

أرنولد توينبي

ترجمة: رمزي جرجس

مراجعة: د. صقر خفاجة

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

Amly تاريخ الحضارة الهلينية



الكتب



أمهات

تاريخ الحضارة الهلينية

أرنولد توينبي

تاريخ الحضارة الهلينية

ترجمة: رمزي جرجس

مراجعة الدكتور: صقر خفاجة

إعداد: د. محمد محمد عناني



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة أمهات الكتب)

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

تاريخ الحضارة الهلينية

أرنولد توينبي

تصميم الغلاف

والإشراف الفنى:

للفنان : محمود الهندى

الإخراج الفنى والتنفيذ:

صبرى عبدالواحد

الإشراف الطباعى:

محمود عبدالمجيد

المشرف العام :

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر
إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق
الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق
المعرفة نتنسم عطرها ربيعاً للثقافة المصرية الأصيلة..
فإننا قطعنا على أنفسنا عهداً ووعداً ليس لنا إلا الوفاء به
لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د. سمير سرحان

تصدير

يسر مكتبة الأسرة هذا العام أن تقدم هذا الكتاب الذى يعتبر مرجعاً لا غنى له لكل من يدرس الحضارة (أو الحضارات الإنسانية) وهى المجال الذى لمع فيه اسم مؤلفه ، ذاع صيته منهجه الذى حوّل فلسفة التاريخ تحويلاً جذرياً ، ألا وهو أرنولد توينبى (Arnold Toynbee) الذى ولد فى لندن عام ١٨٨٩ وتوفى عام ١٩٧٥ .

وقد اقترن اسم توينبى بمذهب نشأة الحضارات وتدهورها ، فى دورات متتالية ، فكان المذهب الذى جعل أبناء القرن العشرين يعيدون النظر فى كل ما كان يسمى تاريخاً ، بل ودفع المؤرخين إلى تعديل مساراتهم فى رصد 'حركة الإنسانية' ، ولولا سفره العظيم «دراسة التاريخ» (١٢ مجلداً) ما خرج علينا اليوم من يقول بصدام الحضارات أو بنهاية التاريخ - أو بنهاية الإنسان (وهو آخر ما أتى به فوكوياما) - ونحن حين نرفض هذه الدعاوى الأخيرة ، فإنما نؤكد صدق نظرات ذلك المفكر الذى تخصص أولاً فى دراسة الحضارة اليونانية ، بعد أن درسها فى أوكسفورد وقضى فترة ما فى أثينا ، ثم انتقل منها إلى إبداع نظرة

شاملة عما يمثل الموضوع الأساسى للدراسة التاريخية ، وهو الحضارة لا 'الدولة الأمة' .

ويقول توينبى فى فلسفته للتاريخ إن المرحلة الأولى لأى حضارة هى مرحلة النمو ، وهو الذى ينشأ من 'التحدى' الذى تفرضه البيئة ، ويتميز هذا التحدى لا بيسلغ الشدة التى تحول دون التقدم أو تعوقه ، ولا يكون 'مواتياً' للتطور بحيث يمنع الإبداع والتغيير ، ويلاقى هذا التحدى 'استجابة' لدى أقلية مبدعة تنزع مسيرة الغالبية التى قد تكون 'سلبية' ، ولكن إخلاصها وولاءها للأقلية المبدعة ، وقبولها ما تفعل بصفة عامة ، يمنح الاستجابة قدرة على مواجهة التحدى .

وتتلو هذه المرحلة مراحل عديدة أولها هو التوحيد المحتوم الذى يتخذ صورة الدولة التى ترسخها القوة لا القبول ، وتتلوها مرحلة أخرى - وهى مرحلة تعدى بعض الجماعات أو الفئات الهامشية على حدود تلك الحضارة ، وكل من هاتين المرحلتين تعتبران 'زمن اضطراب' ('time of troubles') أو قل زمن قلقلة وزعزعة ، يقلل من قدرة الأقلية على الإبداع ، وإن كان ذلك لا يحول دون قدرة الحضارة على استعادة حيويتها وطاقتها .

ولكن قد يحدث أن يقل التضامن الاجتماعى تدريجياً ، وهو الذى يتخذ صورة الحروب بين الدول ، أو الحروب الأهلية - فيما بين الطبقات الاجتماعية ، وعندها تستبدل الأقلية القوة بالإبداع ، أى تعتمد

فى بقائها على القوة من خلال نظام الدولة الذى قد يكون عالمياً ، وخير مثال عليه هو الامبراطورية الرومانية . ويصاحب ظهور الأقلية السائدة نمو فى طبقة عاملة 'خارجية وداخلية' ، وتسيطر عليها الأقلية بالقوة لا بفضل قبول هذه الطبقة لها . وتواجه هذه الطبقة قوة الأقلية بأسلوبين الأول هو اللجوء إلى عقائد تحميها من بطش الأقلية وتمثل لها 'جبل قوة' ، وهو ما تفعله الطبقة العاملة الداخلية ، والثانى هو ابتكار طرق 'غريبة' (أى من خير صلب الحضارة الخاصة بهذه الدولة) أو قل استحداث ثقافات وقيم جديدة تتمتع بقوة روحية ، وهو ما يأتى بحضارة جديدة . وقد حول توينبى منظوره من الحضارات بعد الحرب العالمية الثانية إلى ما يسميه 'أولوية الأديان العليا' .

وقد انتقد بعض المؤرخين هذه الفلسفة أولاً بسبب غموض تعريفاته للحضارة والثقافة والمجتمع ، وثانيها هو اعتماده على تاريخ الحضارة الهيلينية - موضوع هذا الكتاب - أكثر مما ينبغى ، وثالثاً بسبب استقائه مصادر للتاريخ من موضوعات ثقافية وفكرية بدلاً من 'الوقائع' المسجلة فى الحوليات ، ولكن فلسفة التاريخ التى أتى بها ستظل قائمة حتى فى معارضة المعارضين ، ومكتبة الأسرة تقدم اليوم الكتاب الذى يعتبر حجر الأساس فى هذه الفلسفة .

والله من وراء القصد ،،،

د. محمد عنانى

مقدمة

كلفت بهذا الكتاب عام ١٩١٤ من قبل «هوم يونيفرستى لىبرارى» بناء على طلب أحد المشرفين على التحرير وهو الأستاذ الدكتور جلبرت مارى Gilbert Murray . وفى بداية العطلة الطويلة التى قررتها جامعة أكسفورد فى ذلك العام دونت بعض المذكرات عن خطة الكتاب وعرضتها على الأستاذ الدكتور مارى ليبدى انتقاداته . وأمامى وأنا أكتب الآن خطاب له بتاريخ ٢٠ يوليو سنة ١٩١٤ مستهل بالعبارة الآتية : «يخجلنى أننى لم أكتب من قبل . فما كنت إلا مستغرقاً فى إنهاء «ألكستيس» Alcestis ، وغفلت عن سائر ما فى العالم» . ومنذ بداية الشهر التالى حتى نهاية حياته ، أى طيلة ما يقرب من ثلاث وأربعين سنة ، كرس مارى نفسه لخدمة السلام العالمى . بيد أن هذه العبارة ، وقد كتبت فى هذا التاريخ ، إنما تدل على أن نشوب الحرب العالمية الأولى « لم يكن يدخل فى حسابان انجلترا على الإطلاق » حتى بالنسبة لعالم مثل مارى كان يشعر دائماً ، منذ فترة دراسته بالمدارس ، بميل شديد غير عادى إلى السياسة .

وقبل اليوم الذى نشبت فيه الحرب « كنت قد استوعبت تعليقات
مارى الرشيدة على مذكراتي وكتبت مسودة الفصول الأربعة الأولى . غير
أننى منذ ذلك التاريخ لم أعد إلى قراءة هذه المسودة أو تلك التعليقات .

وفى عام ١٩٥١ ، خلال عطلة قضيتها فى سويسرا ، دونت مجموعة
جديدة من المذكرات وعرضت هذه بدورها على الأستاذ الدكتور مارى ،
وفى هذه المرة لم تمنعنى كارثة عامة من كتابة مسودة جديدة كاملة ، وإن
كان مما يؤسف له أننى لم أتمها فى الوقت المناسب لكى أتمكن من أن
أطلع مارى عليها قبل وفاته .

أما النسخة الحالية من الكتاب فقد كتبت بين شهر أبريل من عام
١٩٥٦ وشهر أكتوبر من عام ١٩٥٧ ، فى أجزاء مختلفة من العالم ، فى
المحيط الهادى وتسمانيا Tasmania ووستمورلاند Westmorland
وأيسلند وهامبستيد Hampstead وساسكس Sussex . وبينما كنت
بسيل كتابته ، لم أعد لزيارة قلب العالم الهلينى فى حوض بحر إيجه ،
ولكنى شاهدت بالفعل جانباً من المساحات الشاسعة التى ضمت إليه عن
طريق الفتوحات البرية التى قام بها الإسكندر المقدونى وديمترىوس
الباكتيرى Demetrius of Bactria وعن طريق الإشعاع البحرى السلمى
لنفوذ مدينة الإسكندرية الواقعة على نهر النيل فى الميدانين الاقتصادى
والحضارى ، على البلاد الواقعة شرقى البحر العربى .

وعندما يحاول المرء أن يكتب تاريخ حضارة ما ، فإنه لمما يعينه
كثير العون أن يشاهد جانباً ولو ضئيلاً من المسرح الذى دارت عليه
أحداث المسرحية . إن لمحة عابرة واحدة يلقيها المرء على طبيعة الأرض
تخبره بأكثر مما تخبره به سنوات طوال يقضيها فى دراسة الخرائط
والنصوص .

وبين عامى ١٩١١ و ١٩١٢ ، وقبل أن أدون المجموعة الأولى من
مذكراتى الخاصة بهذا الكتاب ، طفت سيراً على الأقدام (وهذه هى
الطريقة المثلى) بالأراضى الواقعة حول روما حتى تاركوينى Tarquinii
(كورنيتو Corneto) ، وهيسبيلوم Hespellum (سبيلو Spello) ،
وكايتا Caieta (جايتا Gaeta) وبيلاذ اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية
متجهاً إلى الشمال حتى فارسالوس Pharsalus وخليج أمبراك ، كما
طفت أيضاً بثلاثى جزيرة كريت من ناحية الشرق وبشبه جزيرة آثوس
Athos . وفى عام ١٩٢١ زرت القسطنطينية ، والشواطئ الآسيوية المطلّة
على بحر مرمرة ، والساحل الغربى للأناضول فى امتداده إلى الجنوب
حتى نهر ماياندر Maeander ، وشاهدت أيضاً ثساليا الشمالية ومقدونيا
الغربية بما فى ذلك لينكيسستيس Lyncestis وإيوردايا Eordaea
وإيليميوتيس Elimiotis . وفى عام ١٩٢٣ زرت أنقرة (Ancyra)
وسافرت عام ١٩٢٩ ، عن طريق أنقرة والبوابات الكيليكية ، إلى
المدينتين الشماليتين السليوكيتين ؛ أنطاكية على نهر العاصى وسليوكية
بييريا Seleucia Pieria ، وإلى البصرة واليابان بطريق حلب ودمشق .

وفى عام ١٩٤٨ ، قمت أنا وزوجتى « وقد نزلنا ضيوفاً على الحكومة التركية ، برحلة فى طرقات شرق الأناضول الأوسط . فزرنّا بوغاز قلعة Boghazqal'eh وأمازيا Amasia وتوكات Tokat وسيفاس Sivas (سيباستيا Sebastia) ، وقيصريّة الكابادوكية ، والبوابات الكيليكية مرة أخرى (وفى هذه المرة قطعنا رحلتنا بالطريق لا بالقطار) ، ثم طرسوس وأدنه . وفى رحلة حول العالم من الشرق إلى الغرب قمنا بها بين عامى ١٩٥٦ و ١٩٥٧ - وهى الرحلة التى كتبت خلالها النصف الأول من الكتاب - كان أول لقاء لنا بالعالم الهلينى كما بدا فى عصر ما بعد الإسكندر « فى شهر فبراير عام ١٩٥٧ عند أريكاميدو Arikamedo وهو «المصنع» الهلينى الواقع على الساحل الجنوبى الشرقى للهند ، إلى جنوب بونديشرى Pondichéry مباشرة . وبين هذا التاريخ وبداية شهر أغسطس عام ١٩٥٧ ، زرنا تاكشاسيلا Takshasila (تاكسيلا Taxila) وبوروشابورا Purushapura (بيشاوار Peshawar) فى جاندارا Gandhara ، وهما عاصمتا إمبراطورية كوشان ، ورحلت من بابل إلى مرمى البصر من بوابات بحر قزوين ، حتى الطريق الشمالى الشرقى العظيم الذى كان يمثل عصب المملكة السلوكية ، كما كان عصب الإمبراطورية الفارسية أيضاً ، ومن قاعدة للعمليات اتخذتها فى بيروت (وهى المدينة الفينيقية والمستعمرة الرومانية بيروتس Berytus) ، زرت أيضاً هاترا Hatra وكاربلاء Arbela ، وزرنا معاً البتراء Petra وتدمر Palmyra ، والمدينتين الجنوبيتين فى مملكة سلوكية : لاوديكية

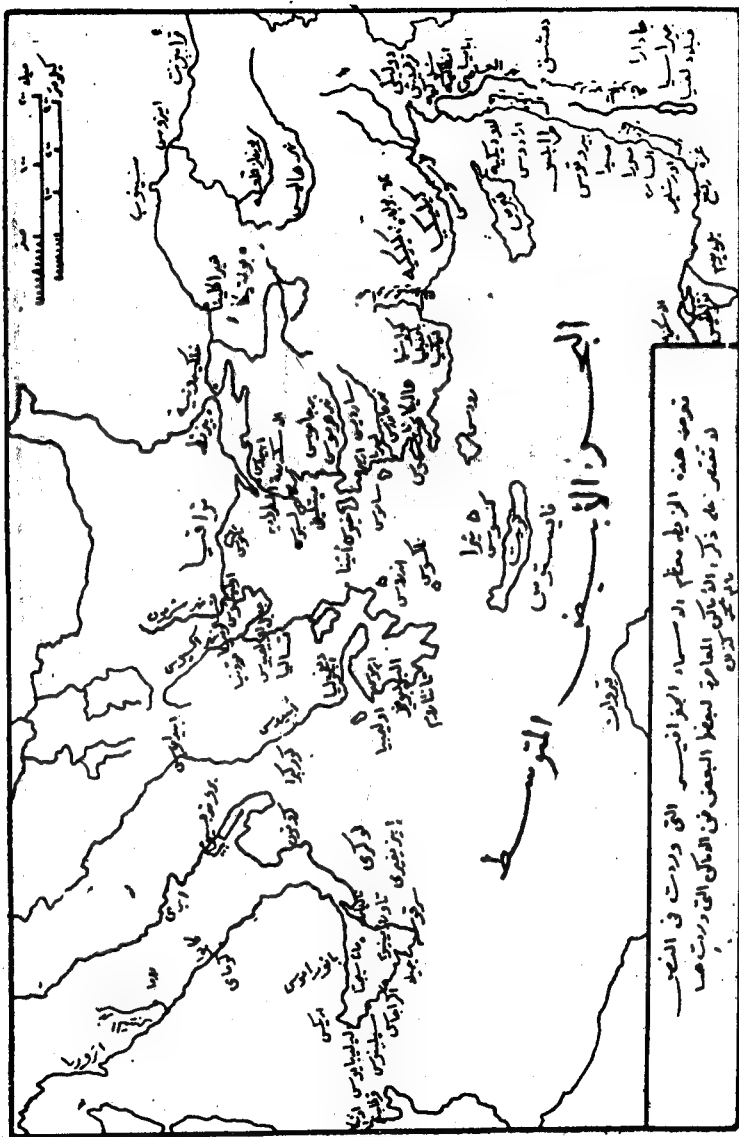
Laodicea (اللاذقية Lattaqieh) وأباميا على نهر العاصى ، والمديتين
الفينيقيتين أرادوس Aradus (أروداد Ruad) وانتارادوس Antardus
(طرسوس Tarsus) ، وعدداً من الأماكن فى سوريا المجوفة Coele
Syria وهى بعلبك ومنايع نهري العاصى والأردن ، ومدن العصر
الإمبراطورى للتاريخ الهلنى فى جبل الدروز وفى حوران وفيلادلفيا
Philadelpha (عمان Amman) وجيراسا Gerasa وجادارا Gadara فى
ديكابوليس Decapolis ، وبيلوس Byblos وصيدا وصور على الساحل
الفينيقى ، وغزة ورفح على الساحل الفلسطينى ، وفى النهاية مدينة
أورشليم ذات الأسوار التى يكشف تخطيط طرقاتها عن تخطيط مدينة
هادريان المعروفة باسم أيليا كابيتولينا Aelia Capitolina .

أما الثغرات التى تشوب معلوماتى عن العالم الهلنى المستقاة من
مصادرها الأصلية فهى كبيرة وخطيرة . فإنى لم أشاهد بعد ماجنا جراكيا
Magna Graecia أو صقلية أو تونس ، ولم أزر إبيروس Epirus أو
بيونيا Paeonia (وهى مقدونيا اليوغوسلافية الحالية) ، أو أمفيبوليس
Amphipolis أو فيليبى Philippi أو جبل بانجايوس Pangaeus ، أو
رودس أو كاريا Caria أو ليكيا Lycia ، أو أكرانيا أو مصر (وهما
المصدران الرئيسيان لموارد العالم الهلنى من الغلال) ، أو باكتريا
Bactria أو باروبانيساداى Paropanisadae (وكلتاهما تقعان فى الوقت
الحاضر فى أفغانستان) . وإن تصدى المرء للكتابة عن هذه المناطق

الهامة دون أن يلقي نظرة عليها ، لهو مغامرة محفوفة بالمخاطر ، بيد أنه لا محيص عن ذلك ، إلا إذا أراد المرء أن يرجئ الكتابة إلى أبد الآبدين . وعلى ذلك فإن كل مافى وسعى الآن هو أن أبسط أوراق اللعب التى بيدى على المائدة ليفحصها القارئ .

١٩٥٨

ارنولد توينبى



نعرض هذه الخريطة معظم الأسماء الجغرافية التي وردت في النص لا تقتصر على ذكر :

الأماكن المعاصرة لبعضها البعض فمن الأماكن التي وردت هنا

الفصل الأول

عقدة المسرحية

كانت «الهلينية» حضارة خرجت إلى الوجود فى أواخر العصر الألفى الثانى قبل الميلاد واحتفظت بشخصيتها منذ ذلك التاريخ حتى القرن السابع من العصر المسيحى . وكان أول ظهور لها على جانبى البحر الإيجى ، وانتشرت من هناك إلى ما حول شواطئ البحر الأسود والبحر المتوسط ، ثم اتسع نطاقها برأ فتوغلت صوب الشرق إلى آسيا الوسطى والهند وامتدت غرباً إلى شواطئ شمال أفريقيا وأوروبا المطلة على المحيط الأطلنطى ، بما فى ذلك جزء من الجزيرة البريطانية .

ولفظه «الهلينية» Hellenism ليست من بين مفردات اللغة الإنجليزية الشائعة الاستعمال . فلفظنا «يونانى» و «اليونان» أكثر منها شيوعاً ، بيد أنه ليست هذه ولا تلك تصدق فى التعبير الدقيق عن موضوع هذا الكتاب ، ولو أنه قد أطلق عليه «تاريخ الحضارة اليونانية» أو «تاريخ اليونان» لكان هذا مدعاة للالتباس والخطأ .

واليونان اسم بلد يحتل طرف شبه الجزيرة الواقعة فى أقصى جنوب شرق أوروبا ، وجد على الخريطة الطبيعية لسطح كوكبنا هذا منذ أن اتخذت الأراضي والبحار صورتها الحالية . وهكذا كانت بلاد اليونان قائمة بالفعل قبل أجيال من ظهور الحضارة الهلينية ، وهى مازالت على الخريطة حتى اليوم ، تحمل اسمها مملكة تمثل دولة من دول العالم الحاضر، بعد مضى ألف وثلاثمائة عام على التاريخ الذى أفل فيه نجم الحضارة الهلينية ، كما شهدت اليونان أيضاً حضارات أخرى إلى جانب الحضارة الهلينية ، قامت بها ثم دالت . فقد احتلت الحضارة المينوية الموكنية اليونان قبل ازدهار الحضارة الهلينية ، التى تلتها الحضارة البيزنطية، على حين أنه فيما بين العصر البيزنطى والعصر الحديث ضمت اليونان على التوالى ، إلى العالم المسيحى الغربى فى العصور الوسطى على يد الصليبيين ، وإلى العالم الإسلامى على يد الأتراك العثمانيين . بل إنه خلال الفترة التى تقارب ألفاً وثمانمائة عام والتى كانت الحضارة الهلينية قائمة لإبانها ، لم تتفق المساحة التى كانت تشغلها ومنطقة بلاد اليونان المصطلح عليها ، إلا فى أجزاء دون أجزاء . ومنذ بداية هذه الفترة حتى نهايتها ، كان الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى من بين المراكز الرئيسية للحضارة الهلينية ، وهو لا يقع فى اليونان بل فى تركيا . ومن ناحية أخرى ، لم ينضم الجزء الشمالى من اليونان الواقع فى القارة الأوروبية إلى العالم الهليني انضماماً تاماً حتى القرن الرابع قبل الميلاد .

أما عن لفظة «يوناني» فإنها فى اللغة الإنجليزية وفى اللغة اللاتينية ترتبط ارتباطاً وثيقاً باللغة اليونانية ؛ بيد أن اللغة اليونانية والحضارة الهلينية لم تتفقا قط سواء من حيث العصر الذى ازدهرتا فيه أو من حيث مدى انتشارهما . فما زالت اللغة اليونانية حتى اليوم لغة حية ، والحضارة الهلينية قد مضى على اندثارها ما يقرب من ألف وثلاثمائة عام، كما أنها ظلت بالفعل لغة حية لعدد غير معروف من القرون قبل مولد الحضارة الهلينية ذاتها . ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، استطاع أحد العلماء البريطانيين وهو المرحوم مايكل فنتريس Ventris ، أن يحل رموز وثائق مكتوبة باللغة اليونانية يرجع تاريخها إلى ما بين القرن الخامس عشر والقرن الثالث عشر قبل الميلاد . وقد عثر على هذه الوثائق فى كنوسوس Cnossos بجزيرة كريت وفى موكناي Mycenae وبيلوس Pylos وفى شبه جزيرة المورة ، وكانت هذه ثلاثا من عواصم العالم المينوى الموكينى . والوثائق مكتوبة على ألواح فخارية ، وليست أبجديتها هى الأبجدية الفينيقية التى أصبحت اللغة اليونانية تكتب بها منذ القرن الثامن قبل الميلاد ، ولكنها «الأبجدية الخطية ب» المينوية التى ليست ألفبائية بل مقطعية . ولعل اللغة اليونانية قد نقلت إلى اليونان فى القارة الأوروبية فى وقت يعود إلى القرن العشرين قبل الميلاد ، ولسنا ندرى كم من الوقت قبل هذا التاريخ استغرقت اللغة اليونانية للتخلص من أصولها فى اللغات الهندية الأوروبية ، فى مكان ما بقلب العالم القديم ،

وفى الانتقال من شمال شرق أوروبا إلى حوض البحر المتوسط . وعلى أية حال ، فقد كان للغة اليونانية تاريخ أطول من تاريخ الحضارة الهلينية . إذ أنها سبقت الحضارة الهلينية إلى الوجود ، وعاشت بعدها أيضاً ، بل إنه خلال الفترة نفسها التى كانت تعيش فيها اللغة والحضارة معاً لم تتطابق المساحتان اللتان احتلتاهما قط .

وخلال الجزء الأعظم من التاريخ الهليني كانت هناك شعوب تتكلم اليونانية ، وإن لم تكن أعضاء فى المجتمع الهليني . فالشعوب التى كانت تحتل شمال اليونان التابع للقارة الأوروبية ، إلى شمال وغرب خط يقطع وسط اليونان من الجنوب إلى الشمال ، ممتداً إلى الغرب قليلاً من دلفى Delphi وثرموبولاى Thermopylae لم تعتنق الحضارة الهلينية حتى القرن الرابع قبل الميلاد ، وفى الاتجاه المقابل ، لم تمثل الشعوب التى كانت تتكلم اليونانية فى قبرص وعلى طول الشاطئ الجنوبي لآسيا الصغرى الذى تمثله السهول الساحلية لكيليكيا Cilicia وبامفيلسيا Pamphylia (وكانت مسقط رأس القديس بولس المواطن الرومانى اليهودى الذى كان يتكلم اليونانية ، والميدان الأول لرسالته التبشيرية) لم تمثل الحضارة الهلينية تمثلاً كاملاً حتى قرابة هذا التاريخ نفسه . وكانت هناك أيضاً بعض القبائل المتأخرة التى كانت تتكلم اليونانية وتقطع الركن الشمالى الغربى من تراقيا ، حول منابع نهري ستريمون Strymon (شترما Sturma) وأوسكوس Oescus (إسكر Isker) ، وقد ظلت هذه القبائل خارج حظيرة الحضارة الهلينية حتى

القرن الأول من العصر المسيحي ، حين تم صبغها بالصبغة الهلينية ،
بطريق القوة على نحو ما ، على يد الرومانيين الذين كانوا يتكلمون
اللاتينية .

وما من شك في أن الرومان كانوا أعظم من اعتنق الحضارة الهلينية
من الشعوب قاطبة ، سواء تلك التي كانت تتكلم منها اليونانية أو التي
لم تكن تتكلمها . بيد أن الرومان كانوا من المهتدين المتأخرين . فقد
تمثلت شعوب أخرى لا تتكلم اليونانية - مثل المسابين والأبوليين
والإترسكيين في إيطاليا والليديين في آسيا الصغرى - الحضارة الهلينية
قبل الرومان ، كما كانت هناك في الطرف الجنوبي من الساحل الغربي
لآسيا الصغرى شعوب أخرى لا تتكلم اليونانية وهم الكاريون
والليكيون ، الذين كانوا في الأصل أعضاء في المجتمع الهليني مثل
جيرانهم الذين يتكلمون اليونانية على كل من جانبي البحر الإيجي . ولم
يكن للدور الذي لعبته هذه الشعوب في التاريخ الهليني قط ، من
الأهمية ما كان للدور الذي قدر أن يلعبه الرومان فيما بعد ، بيد أنه لها
شرف التمييز بالطابع الهليني في طرائق حياتها منذ الفصل الأول إلى
الفصل الأخير من قصة الحضارة الهلينية .

وفي هذا الفصل الأخير ، لم يهب الرومان الوحدة السياسية والأمن
الداخلي لكافة الهلنيين القاطنين حول شواطئ البحر المتوسط ، بأن
بسطوا عليهم ظل حكومة واحدة فحسب ، بل إنهم وهبوا الحضارة

الهليانية وسيلة لغوية ثانية ، لتحل محل اللغة اليونانية . وكان للمساواة الرسمية بين اللغتين اليونانية واللاتينية فى الإمبراطورية الرومانية ، ما يبررها فى روائع شيشرون وفرجيل وهوراس ، وغيرهم من رجال الأدب الرومانيين الذين أنتجوا باللغة اللاتينية ، أعمالاً فنية هليانية تضارع أعظم الأعمال الأدبية التى كتبت باللغة اليونانية . وكان الآباء الروحيون للعالم الهليني فى هذا العصر الزاهر من عصور التاريخ الهليني ، ممن يتحدثون بلغتين . فقد كتب الإمبراطور ماركوس أوريليوس أنتونينوس الذى انحدرت أسرته من إسبانيا والذى كانت لغة آبائه اللاتينية ، يومياته باليونانية وكانت أنطاكية هى مسقط رأس المؤرخ أميانوس ماركليوس Ammianus Marcellinus كما كانت الإسكندرية هى مسقط رأس الشاعر كلوديان Claudian وكانت أيضاً اللغة الأصلية لكل منهما هى اليونانية ، غير أنهما كتبا مؤلفاتهما باللاتينية .

هذه هى بعض الأسباب التى تبين خطأ تسمية الحضارة الهليانية «بالحضارة اليونانية» أو «بحضارة اليونان» . وعلى الرغم من أن ألفاظ «الهليانية» و «الهليني» و «هلاس» غير مألوفة لدى جمهور المتحدثين باللغة الإنجليزية على العكس من لفظتى «اليونان» و «يونانى» إلا أنها تتمتع بميزتين . فهى غير مضللة ولا تحتمل الالتباس ، ثم إنها هى الألفاظ عينها التى استخدمها الهلينيون أنفسهم ، فى اللغة اليونانية ، للدلالة على حضارتهم وعالمهم وأشخاصهم . ويبدو أن لفظة «هلاس»

كانت فى الأصل الاسم الذى أطلق على المنطقة الواقعة حول رأس خليج مالباك على الحدود التى تفصل بين وسط اليونان وشماله ، وهى المنطقة التى كانت تحوى معبد إلهة الأرض ومعبد أبولو فى دلفى ومعبد أرتميس Artemis فى أنثيلا Anthela بالقرب من ثرموبولاي (وهو الممر الضيق بين البحر والجبل والطريق الرئيسى الذى يصل بين وسط اليونان وشماله ، ومن ثم إلى قارة أوراسيا العظيمة التى يمتد فيها شمال اليونان). ومن المرجح أن لفظة «الهليينين» بمعنى سكان «هيلاس» قد اكتسبت معناها الواسع الدال على مفهوم «أعضاء المجتمع الهلينى» عن طريق استخدامها بمثابة اسم جامع يشمل مجموعة الشعوب المحلية المعروفة باسم الأمفكتيونيز Amphyctyones «الجيران» التى كانت تدير معابد دلفى وثرموبولاي وتنظم شئون «الاحتفال البيئى» الذى كان مقترناً بهذه المعابد. وكان هذا واحداً من الاحتفالات الأربعة فى العالم الهلينى التى أصبح ينظر إليها على أنها احتفالات بانهلينية أو «دولية» ، لا باعتبارها مجرد أحداث محلية . أما الاحتفالات الثلاثة الأخرى فكانت ، الاحتفال الأسيمى ويعقد فى منطقة كورنثة ، والاحتفال النيمى ويعقد فى منطقة فليوس Phlius فى البليبونيز (شبه جزيرة المورة) إلى الجنوب الغربى بقليل من خليج كورنثة ، والاحتفال الأوليمبى ويعقد فى منطقة إليس Elis غربى البليونيز إلى شمال بيلوس Pylos . وكانت الجوائز التى تمنح للفائزين فى المسابقات الفنية والرياضية ، فى الاحتفالات التى

أصبح لها كيان بانهلينى، جوائز رمزية ليس لها قيم مادية . أما الاحتفالات المحلية فقد كان عليها أن تجتذب المتسابقين عن طريق عرض جوائز ثمينة، فى حين أن شرف الفوز فى واحد من الاحتفالات الدولية كان يبلغ من العظم درجة تتضاءل إلى جانبها الحاجة إلى الجوائز المادية .

وعلى الرغم من أن «الاحتفال البيثى البانهلينى» هو الذى منح الهلنيين تسميتهم المشتركة ، إلا أن الاحتفال الأوليمبى كان أسبق الاحتفالات الأربعة إلى بلوغ مرتبة الاحتفالات البانهلينية . وكان المؤرخون الهلينيون يؤرخون للأحداث العامة على أساس من وقوعها فى هذا الاحتفال الأوليمبى أو ذاك (وكان الاحتفال الأوليمبى يعقد كل أربع سنوات) كما أصبح الحصول على الإذن بالدخول فى مسابقات أوليمبيا هو محك الاعتراف بعضوية الفرد للمجتمع الهلينى ، ومثال ذلك أن الإسكندر الأول ملك مقدونيا ، الذى كان من رعايا الإمبراطور الفارسى أكسركسيس الساخطين ، والذى نقل معلومات قيمة إلى القيادة العليا للجيش الهلينية المؤتلفة خلال الغزو الفارسى لبلاد اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية بين عامى ٤٨٠ و ٤٧٩ قبل الميلاد ، قد جوزى على صنيعة بأن سمح له بالاشتراك فى مسابقات أوليمبيا ، لا لأن المقدونيين كانوا يتكلمون اللغة اليونانية باعتبارها لغة آبائهم ، بل على أساس من شجرة أسرية خرافية تشير إلى انحدر الأسرة المالكة المقدونية من أرجوس Argos وهى مدينة كانت تقع فى شمال شرق البليونيز وكانت

من أقدس مدن هيلاس قاطبة . وسمح للرومانيين بالدخول فى مباريات الاحتفال الإسيثى رمزاً للاعتراف بالجميل للخدمات التى قدموها للعالم الهلينى عام ٢٢٩ ق.م فى قمعهم للقراصنة الإليريين الذين كانوا يعيشون فساداً فى الساحل الغربى من بلاد اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية .

وإذا كان من المتعذر أن نقرن الحضارة الهلينية بدولة بعينها أو بلغة بذاتها فكيف لنا إذن أن نعرفها ؟ إن جوهر الهلينية ليس جغرافياً أو لغوياً ، إنما هو اجتماعى ثقافى . لقد كانت الهلينية طريقة مميزة من طرائق الحياة ، تجسمت فى منظمة عليا هى المدينة الدولة ، وإن أى امرئ استطاع أن يتأقلم مع الحياة على النسق الذى تجرى عليه داخل المدينة الدولة ليعد هليئياً ، بغض النظر عن أصله أو منبته . وإن الإسكندر الأول ملك مقدونيا والبدوى خان سايليز Khan Sayles الإسكىشى الذى عاش فى القرن الخامس ق.م والقائد الرومانى تيتوس كونكتيوس فلامينوس Titus Quinctius Flaminius والكاهن الأعلى اليهودى يوشع جاسون فى القرن الثانى ق.م ، إن هم إلا أمثلة بارزة لهؤلاء الهلنيين بالتبنى .

يبد أن تعريفنا للحضارة الهلينية مازال مع ذلك ناقصاً مبتوراً ، ذلك لأن المنظمة المميزة لها لم تكن قاصرة عليها وحدها . وعلى الرغم من أن اللفظة اليونانية التى تعنى المدينة الدولة ألا وهى Polis قد انتقلت - دون غيرها - إلى لغات العالم الغربى فى العصر الحديث فى الألفاظ

الاشتقاقية : Politics, Policy, Police إلا أن المدينة الدولة لم تكن تمثل اختراعاً هليينياً بحثاً . إذ كانت متمثلة في سومر Sumer (في الحوض الأدنى لنهرى دجلة والفرات) حول عام ٣٠٠٠ ق.م أى قبل ألفى سنة من مولد الحضارة الهلينية . كما كانت المدينة الدولة من مميزات حضارة كانت سائدة فى أرض كنعان وكانت معاصرة وشقيقة للحضارة الهلينية . ومن الأمثلة الشهيرة للمدن الكنعانية تلك المدن الفينيقيّة صور وصيدا وأرواد على ساحل الشام ، وقادش وقرطاجنة وغيرهما من المستعمرات الفينيقيّة فى جنوب إسبانيا وشمال غرب أفريقيا، كما أن هناك نصاً فى العهد القديم يذكر تحويل إقليم يهوذا إلى مدينة دولة هى أورشليم على يد الملك يوشيا Yosiah فى القرن السابع ق.م. كما بعثت هذه المنظمة مرة أخرى فى البلاد المسيحية الغربية ، وهى مجتمع ينتسب إلى المجتمع الهليني ، خرج إلى الوجود بعد أن أصاب المجتمع الهليني الانحلال . ومن الأمثلة الشهيرة للمدن الغربية ، فى القرون الوسطى ، التى قامت على نسق المدينة الدولة الهلينية ، فينيسيا وميلانو وفلورنسا وسينا فى شمال إيطاليا ووسطها ، ومرسيليا فى بروفنس ، وبرشلونة فى كتالونيا ، وجنت وبروجيس يوبريس فى الفلاندرز ومدن هانسا فى شمال ألمانيا . وكادت البلاد المسيحية الغربية فى العصور الوسطى أن تصبح مجتمعاً من المدن الدول ، مثلما كانت هيلاس ، بل إنه حتى إلى يومنا هذا وبعد مضى ٥٠٠ سنة على التاريخ

الذى أصبحت فيه «الأمة الدولة» هى المنظمة المميزة للعالم الغربى »
مازال نظام المدينة الدولة العقيم الذى كان سائداً فى العصور الوسطى
ممثلاً فى تلك المدن الشهيرة المتخلفة عن ذلك العصر مثل هامبورج
وبريمن وبازيل وجنيف وبرن وزيورخ وسان مارينو . والمدينة الأخيرة
رغم أنها أصغر هذه المدن جميعاً ، إلا أنها تتميز عنها بأنها مازالت
تتمتع بالسيادة والاستقلال التام .

وهكذا يتضح أن نظام المدينة الدولة وحده لا يمثل فى حد ذاته سمة
مميزة لطريقة الحياة الهلينية ، إن ما يميز الحضارة الهلينية فى الواقع هو
كيفية استفادتها من هذه المنظمة باتخاذها إياها وسيلة للتعبير العملى عن
نظرة خاصة إلى الكون . ولقد عبر الفيلسوف الهلنى بروتاجوراس
Protagoras الأبدى فى القرن الخامس ق . م عن هذه النظرة فى قوله
المشهور : «إن الإنسان هو مقياس كل شىء» . وعندما نتحدث باللغة
التقليدية لليهودية والمسيحية والإسلام يمكننا القول بأن الهلنيين رأوا فى
الإنسان «سيد الخلق» وعبدوه كإله بدلاً من الله .

وعبادة الإنسان أو مذهب الإيمان بالإنسان ليست ضرباً من عبادة
الأوثان يقتصر على الهلنيين وحدهم . فهناك ما يوحى بأنها كانت
العقيدة المميزة للإنسان فى طور تحضره فى كل زمان ومكان . فمن
الواضح الجلى ، أنها على سبيل المثال ، العقيدة السائدة فى واقع الأمر
- وإن كان لا يعترف بذلك - فى العالم الغربى فى الوقت الحاضر .
فالغريسون يعدون من المؤمنين المتحمسين ، بقوة الإنسان الجماعية ،

وبخاصة قوته على الطبيعة غير البشرية ، كما تظهر فى التطبيق العملى للاكتشافات التى يتوصل إليها علماء الطبيعة الغربيون فى العصر الحديث . كما كان الغربيون من أتباع المذهب العقلى فى القرن الثامن عشر ، والفلاسفة الإنسانيون الغربيون فى القرن الخامس عشر من عبدة الإنسان كل بطريقته الخاصة . وما يميز التجربة الهلينية فى مجال الفلسفة الإنسانية عن غيرها ، هو أنها كانت أصدق وأصلب عبادة للإنسان سجلها التاريخ حتى يومنا هذا . كانت هذه هى السمة المميزة للتاريخ الهلنى . وأنها لتثير مسألة جدية بالاهتمام . إذ ماهى العلاقة بين عبادة الهلنيين للإنسان وبين نشأة الحضارة الهلينية والأمجاد التى حققته وانكسارها ثم انهيارها فى النهاية ؟

هذا هو موضوع الكتاب الذى بأيدينا . ولكنه ينبغى علينا قبل أن نبدأ فى سرد القصة وفى محاولة تفهم معناها ، أن نسأل أنفسنا عن الأسباب التى دعت إلى أن تكون الحضارة الهلينية أولى الحضارات التى آمنت بالفلسفة الإنسانية دون قيد أو شرط ولأن تكون الحضارة الوحيدة التى فعلت ذلك حتى هذا التاريخ ، ذلك لأنه ما من حضارة ظهرت بعد ذلك ، حتى ولا حضارتنا أيضاً ، قد ربطت نفسها قط بعجلة الفلسفة الإنسانية عن هذا النحو الوثيق . وفيما يلى بعض الاعتبارات التى قد تعيننا على إيجاد جواب على هذا السؤال الأولى .

الفلسفة الإنسانية عقيدة تجتذب الإنسان خلال تلك المرحلة من تاريخه التى يدرك فيها بالفعل أنه قد أصبحت له السيادة على الطبيعة غير

الإنسانية ، ولكن قبل أن تضطره التجربة المريرة لأن يواجه الحقيقة الماثلة فى أنه لم تتحقق له السيادة بعد على نفسه .

لقد حققت حضارات الجيل الأول سيادة الإنسان على الطبيعة غير البشرية . وهذه الحضارات هى الحضارة السومرية فى الحوض الأدنى لنهرى دجلة والفرات ، وحضارة نهر هندوس فى غرب باكستان ، وحضارة شانج فى الوادى الأدنى من النهر الأصفر ، والحضارة المصرية فى الوادى الأدنى لنهر النيل ، والحضارة المينوية الموكنية فى جزر البحر الإيغى . وكانت الحضارات القديمة ، قبل قيام الحضارة الهلينية والحضارة المعاصرة المماثلة لها فى كنعان ، قد توصلت بالفعل أو ورثت من الاكتشافات العلمية - وهى الزراعة واستئناس الحيوان واختراع العجلة والقارب - ما يفوق من حيث عبقرية الخلق والإبداع وسعة الخيال والجرأة، جميع الاكتشافات السابقة فيما خلا تحكم الإنسان البدائى فى استخدام النار ، كما يفوق أيضاً جميع الاكتشافات اللاحقة ، التى قامت على أساسها . بيد أنه على الرغم من أن هذه الحضارات البدائية دعمت بما حققته من أمجاد انتصار الإنسان على الطبيعة غير البشرية على هذا النحو الباهر ، فإن ذلك لم يغيرها بأن تعبد قدرة الإنسان . فقد كانت الحضارات الأولى ، وقد برزت من الحياة البدائية بعد مرحلة انتقالية قصيرة نسبياً تعرف بالعصر الحجري الحديث ، مازالت واقعة تحت تأثير الدهور السابقة التى لم تتحقق للإنسان البدائى خلالها السيادة على

الطبيعة ، رغم سيطرته على النار وقدرته على الكلام ، ولذلك عبد الإنسان الطبيعة لأنه كان يدرك أنها سيده . غير أنه لم تتحقق السيادة للحضارات البدائية بوجه خاص على عنصر معين من عناصر الطبيعة يستأثر باهتمام الإنسان بصورة أقوى وأوثق من أى عنصر آخر لأنه الأصل - فى الطبيعة - الذى ترتبط به شخصيات أفراد الجنس البشرى ، ألا وهو الأسرة فقد ظل بنو البشر يرسفون فى أغلالها .

كانت عبادة الطبيعة فى العصر البدائى هى المادة التى شكلت منها الحضارات البدائية الديانات السامية التى كانت بمثابة رد لهذه الحضارات على تجربة الانهيار والانحلال الاجتماعى التى مرت بها . أمدت عبادة الإنسان البدائى للطبيعة مجسمة فى الأسرة ، وعبادته للطبيعة ممثلة فى المحاصيل الزراعية ، تلك الحضارات البدائية التى كانت الأولى من نوعها والتى ذاقَت مرارة الفشل ، بوسيلة من وسائل التعبير . لقد أمدتها برمز على الجانب المفجع من الحياة البشرية ، وعلى الانتصار العجيب للحياة الذى ينشأ ، على نحو يثير الدهشة ، عن هزيمة الحياة نفسها . وأعرب عن هذه التجارب فى صورة الحبة التى تموت وتدفن فى رحم «الأرض الأم» ثم تنبت ثانية فى محصول العام التالى ، أو فى الجيل التالى من الأسرة البشرية . وطبقت هذه الصورة فى عبادة الأم أو الزوج الباكية المكلومة وأبنها أو زوجها المعذب الذى لقي ميتة قاسية وحقق قيامة مظفرة . وأرسلت هذه العقيدة إشعاعاتها من أرض سومر إلى

أقاصى المعمورة . فتعود الإلهة السومرية إينانا Inanna «التي اشتهرت باسمها الأكادي إيشار Ishar» ورفيقها تموز إلى الظهور فى مصر تحت اسم إيزيس وأوزوريس، وفى كنعان تحت اسم عشتروت Astarte وأدونيس Adonis وفى العالم الحيثى تحت اسم كوبيلا Cybele وأتيس Attis وفى اسكندنافيا فى أقاصى الشمال تحت اسم نانا Nana وبالدر Balder ، والإلهة هنا مازالت تحمل اسمها السومرى الأصيلى ، على حين يدعى الإله فى اسكندنافيا كما فى كنعان «رينا» دون تحديد لاسمه .

وكان أشهر المراكز الهلينية لهذه العقيدة التى انتشرت فى معظم أنحاء العالم والتى تتمثل فى الإلهة ورفيقها الذى يموت ويبعث مرة أخرى هو إليسيس Eleusis ومعبد ديميتير Demeter «الأرض الأم» وابنتها برسيفونى Persephone وإله الحبوب تريبتوليموس Triptole-mus . ولنا إن نقول أن الأسرار الإليوسية كانت تراثاً ورثته الحضارة الهلينية من الحضارة المينوية الموكنية التى سبقتها . على حين أنه لم يكن معهوداً فى العالم الهلنى أن تكون لعبادة الطبيعة السيادة كما كان الحال فى إليوسيس . ولم تمنح عبادة الطبيعة . فقد بقيت عقيدة يعتنقها النساء وأهل الريف ، وكان هؤلاء مجتمعين يؤلفون غالبية عظمى من الشعب . بيد أنها كانت غالبية مضطهدة ، ولذا فإن عقيدتها قد انحدرت معها إلى الكهوف والمغاور .

وكان السبب فى وقوع ذلك ، هو أنه قد حدث فى حوض بحر
إيجة ، على خلاف من امتداد أجل النهضة الحضارية بدرجة ما فى وديان
النيل ودجلة والفرات ، تصدع تام فى الفترة ما بين سقوط الحضارة
المنيوية وقيام خليفتها الحضارة الهلينية هناك . ولقد غرق حطام المجتمع
المنهار فى طوفان الغزو البربرى ، وانمحت آثار الماضى محوياً تماماً ،
حتى إنه لم تتخلف فى أذهان الشعب الهلبنى أية ذكرى ذات بال عن
الحضارة السابقة . وكان على الحضارة الهلينية أن تبدأ حياتها بأن تعيش
على تراثين خلفهما البرابرة ، هما الملاحم التى تنسب إلى هومر والتى
أصبحت بالنسبة للهلينيين كالإنجيل بالنسبة للمسيحيين والقرآن بالنسبة
للمسلمين ، ومجموعة من الآلهة التى لم تكن رموزاً على تقلبات الطبيعة
الغامضة ، بل صنعت على صورة الإنسان وصورة الإنسان البربرى من
دون سائر البشر .

كان هؤلاء الآلهة الأولمبيون نسخاً تنبض بالحياة لنماذجها الإنسانية
الأصلية ، ولم يكن هذا من حسن الطالع ، لأن الطبيعة البشرية البربرية
تتميز بوجه خاص بانعدام روح التهذيب فيها . فالبربرى رجل بدائى كان
من سوء حظّه أنه سيق إلى معركة مع آخر ما يمثل إحدى الحضارات
الأقلة . وكان لهذه الحادثة التاريخية أن حطمت على حين غرة إطار
عادات البربرى وتقاليده ، وبذلك أطلقت من العقال قبل أن يتم نضجه
واستعداده للتمتع بالحرية . والحقيقة أن البربرى إنما هو مراهق فقد براءة

الطفل دون أن يروض نفسه على ضبط النفس الذى يتميز به البالغ . كان هؤلاء الآلهة المحدثون الذين فرضوا سيادتهم على آلهة الطبيعة القدماء خلال الفاصل الاجتماعى الذى تخلل انهيار الحضارة المينوية الموكنية ويزوغ الحضارة الهلينية عصابة من البرابرة الذين يتمتعون بقوة تفوق قوة البشر ، وإن كانوا يتميزون بوجه خاص بسوء سمعتهم . وقد استقر بهم المقام على جبل أوليمبوس ، وأخذوا فى الهيمنة على الكون من هذا الوكر الرائع للمصوص .

وكانت الطبيعة البشرية البربرية التى انعكست صورتها على مجموعة الآلهة الأوليمبية فى واقعية مؤلمة ، موضعاً للعبادة لا يليق على الإطلاق بمجتمع مازال فى طور التحضر ، الأمر الذى أدى بها إلى السقوط سريعاً فى نظر العالم الهلنى . وذهب الأمر إلى أن أصبحت الآلهة الأوليمبية ، فى قصائد هومر ذاتها ، فى صورتها المنقحة الأخيرة التى باتت فيها قانونية معتمدة ، موضعاً للتجريح والهزاء . وما إن حل القرن السادس قبل الميلاد حتى حمل عليها الفيلسوف كسينوفانىس Xenophanes من كلوفون حملة شعواء . واضطر الهلينيون إلى البحث عن موضع للعبادة عوضاً عن الآلهة الأوليمبية ، وظل هذا البحث جارياً حتى انمحت الحضارة الهلينية نفسها من الوجود ، بيد أن الهلنيين الذين أتوا بالمعجزات فى ميادين الفن والفكر ، لم يفلحوا قط فى التخلص دون معونة خارجية ، من عبادة الإنسان التى ورثوها عن أسلافهم البرابرة .

وما حدث هو أنهم أخذوا يتأرجحون بين ضربين من ضروب عبادة الإنسان كانا على درجة أقل من الزراية التى كانت تقابل بها عبادة المحاربين والنسوة السليطات من البرابرة المؤلهين . وكان البديل الاول هو عبادة قوة البشر الجماعية كما ظهرت أول الأمر فى صورة المدن الدول المحلية ، وكما انعكست فى النهاية فى شكل إمبراطورية موحدة بدت لرعاياها وكأنها تضم العالم بأسره ، وأفلحت فى الواقع فى ضم جميع المدن الهلينية الواقعة حول شواطئ البحر المتوسط . وكان البديل الآخر هو عبادة فرد من أفراد الجنس البشرى تم تأليهه لأنه ظهر بمظهر المخلص . كان هناك الطاغية الصقلى أو الملك المقدونى أو الإمبراطور الرومانى الذين قدموا أنفسهم على أنهم منقذون للمجتمع ، وكان هناك أيضاً الحكيم الرواقى أو الأبيقورى الذى بدا كما لو أن فى استطاعته أن ينقذ أفراداً آخرين عن طريق ضربه المثل القاسى بنفسه ، لأنه قد أنقذ نفسه فيما يبدو بواسطة تدريباته التقشفية الصارمة .

ولم يشعر الهلينيون بالاطمئنان قط لممارستهم عبادة الإنسان ، حتى فى أشكالها المبسطة التى لا تعد مجلبة للعار . وكان شاهد قلقهم ذلك الخوف الذى كان يسيطر عليهم من أن يرتكبوا جرم «الهيريس» Hybris، أى ذلك الكبرياء والصلف اللذين يجلبان على الإنسان حنق الآلهة وعقابهم . ولقد أدرك الهلينيون أنه ليس باستطاعة الإنسان أن يؤله نفسه ويفلت من القصاص .

ووجد الهلينيون فى النهاية أن عقوبات الكبرياء رادعة ساحقة ، وأن ممارسة عبادة الإنسان فى أى شكل من أشكالها مكروهة منبوذة ، حتى إنهم سلموا قيادهم لديانتين شرقيتين ظهرتا ، تحت تأثير الحضارة الهلينية ، فى مجتمعات آسيوية كان الهلينيون قد قهروها بحد السيف . فاعتنق الهلينيون فى الهند ووسط آسيا الديانة البوذية فى صورتها الحديثة التى عرفت بين أتباعها باسم «السيرة العظمى» (Mahayana) واعتنقوا فى حوض البحر المتوسط الديانة المسيحية .

وحولت هاتان العقيدتان الهلنيتين فى النهاية عن الفلسفة الإنسانية لأن كلا منهما قدمت موضعاً للعبادة لم يكن هو الإنسان . كان إله إسرائيل الذى أصبح أيضاً إله المسيحية - مثله مثل الآلهة الهلينية أبولو وأبيقور وأوغسطس - شخصاً يمكن للبشر أن يتقابلوا معه ويتصلوا به ، بيد أن العلاقة المشتركة بين الإله والإنسان لم يكن لها الأساس نفسه فى كل من العقيدتين . فالآلهة الهلينية قريبة الصلة بالإنسان ، لأنها خلقت بيد الإنسان على صورة الإنسان . أما إله إسرائيل فكان قريب الصلة بالإنسان لأنه خلق الإنسان على صورته هو . أما عن البوذيين الكامنين Bodhisattvas الذين كان يكن لهم البوذيون المهابانيون الإجلال والولاء والإخلاص إلى درجة العبادة ، فقد كانوا نفوساً استطاعت فى محاولتها بلوغ هدف الديانة البوذية فى محو الذات ، أن تنفض عنها كل أثر من آثار الطبيعة البشرية ، واقترب هؤلاء من هدفهم هذا إلى الحد

الذى أصبح معه فى مقدورهم فى أية لحظة أن ينفضوا عن أنفسهم الوجود نفسه ، وليس هناك ما يمنعهم من أن ينتقلوا إلى النيرفانا Nir-vana أو الراحة الأبدية إلا عطفهم على أنفس أخرى تحتاج إلى المعونة لكى تخلص ذواتها من شرك الشهوة . وقد ابتعدت الماهايانا أكثر من الديانة اليهودية نفسها ، عن عبادة الإنسان . بيد أن الهلينية فى خضوعها لهاتين العقيدتين الشرقيتين اللتين لا تعبدان الإنسان ، قد تركت فى كل منهما جانباً من فلسفتها الإنسانية .

وكانت الديانة المسيحية التى استأثرت فى النهاية بنصف العالم الهلنى تعد صورة معدلة للديانة اليهودية ، وقد تم هذا التغيير عن طريق تطعيم الديانة اليهودية بفكرة هلينية تعد فى نظر اليهود على النقيض تماماً من كل ما تمثله الديانة اليهودية . تقول العقيدة المسيحية إن إله إسرائيل الذى خلق الإنسان على صورته قد هباً أيضاً وسيلة للخلاص لخلائقه البشرية ، بأن تجسد بذاته فى صورة إنسان . وكان هذا المبدأ المسيحى الثورى الذى يقول بتجسد الله ، فى نظر اليهود ، إقحاماً إلحادياً على الديانة اليهودية ، لأسطورة كانت من أفدح وألعن الأخطاء التى وقعت فيها الديانة الوثنية الهلينية . كانت هذه خيانة لكل ما حققته العقيدة اليهودية بعد صراع طويل مرير من أجل تطهير نظرة الإنسان إلى طبيعة الله والسمو بها ، ولم يكن لأى يهودى صادق الإيمان أن يقدم عليها . ولم يكن ليقترب هذا الجرم غير الجليليين الذين عاشوا تحت تأثير

الحضارة الهلينية زهاء ربع عصر ألفى قبل أن تفرض الديانة اليهودية على الجليل بالقوة فى أوائل القرن الأخير قبل الميلاد . والحقيقة أن تأثير الحضارة الهلينية على مبادئ المسيحية ونظرتها ، كان تأثيراً عميقاً ، لأن الله فى تحوله إلى إنسان يعرض نفسه للشقاء الذى هو المصير المحتوم لكل إنسان . ولاشك فى أن عبدة الإنسان الهلنيين قد نبذوا صورة الإله المعذب ، التى تكمن فى ثنايا عبادة الإنسان . وكان القديس بولس يدرك أن صلب المسيح كان ، إلى جانب وقوفه عقبة كثود بالنسبة لليهود ، حماقة فى نظر الهلنيين . وهنا أدى المنطق الهلنى إلى نظرة ازدراء من جانب رجل مثقف ثقافة هلىنية ، تجاه الديانة السرية للنساء وأهل الريف . بيد أن تطعيم الديانة اليهودية بفكرة التجسد الهلينية كان من شأنه أن خرجت إلى السطح من جديد ، وفى الديانة المسيحية هذه المرة ، عبادة الإله الذى لم تفقد قصة موته المفجع وقيامته المظفرة سحرها على النفوس البشرية فى العالم الخفى العظيم للمجتمع الهلنى .

أما الآثار الأخرى التى خلفتها الحضارة الهلينية فى الديانات الشرقية المنتصرة ، فتبدو تافهة إذا ما قورنت بالآثر السالف الذكر ، بيد أن الأثرين التالين كانا عظيمى الأهمية بالرغم من ذلك . لقد وجدت كل من المسيحية والماهايانا فى الفن الهلنى واسطة بصرية لعرض أفكارهما ومثلهما على الغالبية الأمية من أتباعهما . ووجدت المسيحية فى الفلسفة الهلينية واسطة ذهنية لبسط العقائد المسيحية فى عبارات اصطلاحية تقبلها

الأقلية المثقفة ثقيفاً هلينياً من بين أعضاء المجتمع . كما وجدت الكنيسة المسيحية فى البناء الإدارى للإمبراطورية الرومانية - وهى دولة مسكونية بنيت من خلايا تتألف من مدن دول - نموذجاً عملياً صالحاً تحتذيه فى منظمته الخاصة بها .

وكان للتجربة الهلينية فى المضمار الحضارى أن تمثل حقبة رائعة من تاريخ الإنسانية ، حتى ولو لم تسفر عن أية نتائج . ولكن بوسعنا الآن أن نرى ، إذا رجعنا إلى الماضى ، أنه قد كان هناك بالفعل خطر وقيمة بالنسبة للأجيال التالية لما أسهمت به الحضارة الهلينية فى الأفكار والمثل التى تضمنتها الديانة المسيحية والديانة الماهايانية وغيرهما من الديانات السامية وخاصة الإسلام والديانة الهندية المتأخرة عن البوذية ، وهى الديانات التى نشأت عن تلاقى الحضارة الهلينية مع الحضارتين اللتين عاصرتاهما فى كل من كنعان والهند . إن هذه الديانات السامية هى أعظم القوى الروحية فى حياة البشر فى الوقت الحاضر ، ومازالت الحضارة الهلينية تنعم بالحياة وذلك فى الأثر الذى تركته فى كل من هذه الديانات . كانت الآثار التى خلفتها الحضارة الهلينية فى الديانات السامية آثاراً سلبية وآثاراً إيجابية أيضاً . وكان أعظم آثارها السلبية ، دلالتها المؤسفة على قصور عبادة الإنسان ، وكان أجل آثارها الإيجابية خلق المسيحية عن طريق تطعيم الديانة اليهودية بفكرة تتناقض مع المبادئ اليهودية ، ألا وهى فكرة التجسد .

الفصل الثانى

البيئة الطبيعية لمراكز الحياة الهلينية

كان مركز العالم الهلنى ، والطريق الرئيسى به دائماً ، ممراً مائياً . فبعد أن مد الإسكندر الأكبر سلطان الحضارة الهلينية برأ إلى مسافات قصية إلى الشرق وإلى الغرب بأن أطاح بالإمبراطورية الفارسية وجد الحكام الهلينيون الذين خلفوا الأباطرة الفرس على جنوب غرب آسيا ومصر ، أنفسهم ، منجذبين مرة أخرى تحت تأثير قوى لا فكاك منها إلى ناحية البحر ، وكان هؤلاء على استعداد لأن يضحووا بولاية برمتها فى داخل القارة فيما وراء هيلاس ، فى سبيل الظفر بجزيرة واحدة من جزر الأرخبيل الإيغى . وقد حدث فى حقبة متأخرة من التاريخ الهلنى ، وبعد أن وحد الرومان النصف الغربى من العالم الهلنى بعد اتساع رقعته تحت ظل حكومة موحدة ، أن نقلت عاصمة هذه «الدولة العالمية» الهلينية فى النهاية من روما إلى بيزنطة على شاطئ خليج البوسفور .

أما إذا كان العالم الهليني قد نما حول ممر مائي فتلك خاصية لم ينفرد بها وحده، فقد شاركته فى هذا الكيان الجغرافى، الحضارات المعاصرة التى قامت على ضفاف النيل ودجلة والفرات ونهر الهند والنهر الأصفر. ولكن العالم الهليني قد انفرد بالفعل بمشاركته الحضارة السابقة عليه وهى الحضارة الميناوية الموكنية خاصيتها المميزة وهى أن الممر المائى بها لم يكن نهراً بل بحراً. ولم يحدث أن قامت تلك الحضارتان الأخريان اللتان نشأتا حول البحار فى أندونيسيا واليابان، إلا بعد أن بدأ العهد المسيحي بالفعل وفى وقت كانت فيه الحضارة الهلينية فى نزعتها الأخير .

كان مهد الحضارة الهلينية هو حوض بحر إيجه . وكان الشاطئ الشرقى لا يقل أهمية فى اعتباره جزءاً من هيلاس عن الشاطئ الغربى أو عن الجزر التى تنتشر بين الشاطئين . والحقيقة أن المدن الدول الهلينية الواقعة على طول الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى لعبت الدور الرئيسى فى الحياة الهلينية حتى القرن السادس قبل الميلاد ، حين وقعت تحت حكم دول أجنبية تمتد وراءها فى قلب القارة وأصبح عليها أن تتنازل عن زعامتها لهيلاس إلى بلاد هيلاس الواقعة فى القارة الأوروبية ، والتى تضم البليبونيز (شبه جزيرة المورة) ووسط اليونان حتى دلفى وثرموبولاي غرباً .

وطبيعة الأرض فى حوض بحر إيجه معقدة كل التعقيد . فسلاسل الجبال تقطع الأراضي المستوية الواطئة ، وصفوف الجزر تشطر البحر .

وقد تشكل هذا البناء نتيجة لعوامل التواء وانخساف وانهيال القشرة الأرضية . والواقع أن حوض بحر إيجه لا يمثل إلا قسماً صغيراً من منطقة شاسعة تلتف حول ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، حيث وقعت هذه التقلبات الطبيعية . وتمتد هذه المنطقة من الطرف الجنوبي لأمريكا الجنوبية ، حيث تبرز من المحيط المتجمد الجنوبي ، إلى مراكش وإسبانيا حيث تنغمر تحت سطح المحيط الأطلنطى . وثمة قوس من الجبال الملتوية يمتد فى منحنيات هائلة حول ثلاثة جوانب من المحيط الهادى ، مبتدئاً بالانحدار الغربى للأمريكتين حتى أقصى نقطة جنوباً فى تعرجات الجزر التى تطوق الشاطئ الشرقى لآسيا . وفى جزر السيليبين ينعقد هذا القوس مع قوس آخر يتلوى آخذاً طريقه من نيوزيلندة عبر أندونيسيا وجبال الهيمالايا إلى هضبة بامير ، وتواصل الثنيات الجبلية رحلتها من هناك متجهة صوب الغرب فى خطوط متوازية ، عبر النصف الغربى من العالم القديم . وليس حوض بحر إيجه هو القسم الوحيد فى المنطقة الذى انهارت فيه الثنيات الجبلية وانغمرت تحت مستوى سطح البحر . فقد حدث الشيء نفسه فى البحر الكاريبى وعند مضيق بهرنج وفى اليابان والفلبين وأندونيسيا ، كما فى حوض البحر الأسود وغربى البحر المتوسط ، اللذين يعتبر حوض بحر إيجه همزة وصل بينهما . بيد أن ما يهمنا فى هذا المقام هو الجزء الخاص بحوض بحر إيجه من هذه القشرة الأرضية المتكسرة ، إذ كان هذا هو الموطن الأصلي للحضارة الهلينية والمحمور الدائم لها .

وكان لتضاريس بحر إيجه ومركزه الجغرافى أن أمدها بمظاهر طبيعية بارزة ثلاثة كان لها آثار هامة على حياة سكانه .

فحوض بحر إيجه يهينى فى المكان الاول طرقاً ممتازة للمواصلات البحرية . فعلى حين أن هناك مشقة كبيرة فى الانتقال برأ من سهل صغير إلى آخر عبر الجبال الوعرة الشديدة الانحدار التى تفصل بين الواحد والآخر ، فإن لكثير من هذه السهول نوافذ تطل منها على العالم الخارجى الرحب ، تكونت نتيجة لانغمارها إلى ما تحت مستوى سطح البحر . وتنشأ فى كثير من الأحيان عند النقط الساحلية التى تلتقى عندها السهول والجبال ، مرفأى طبيعية طيبة ، كما تهينى سلاسل الجزر - وهى قمم الأجزاء المغمورة من السلاسل الجبلية - التى تمتد من ميل عبر البحر من شاطئ إلى شاطئ فى خطوط متوازية ميداناً صالحاً لتدريب المبتدئين على الملاحة . وفى وسع الملاح المحلى الذى تعلم أصول حرفته فى بحر إيجه ، حيث لا يبعد البر قط عن مرمى البصر وحيث ينذر أن يخرج أمر الوصول إلى الموانئ عن طوقه ، أن يجد حينذاك القنوات التى تفضى به إلى مياه أوسع وأرحب . فإذا ما أبحر الملاح الإيجى صوب الشمال الشرقى خارج البحر الإيجى ، وعبر الدردنيل (هيليوبونت Hellespont) ويبحر مرمرة (بروبونتيس propontis) ومضيق البوسفور فإنه يتفد إلى البحر الأسود . وإذا ما أبحر صوب الجنوب الشرقى عن طريق قنطرة من الجزر - أكبرها وأفضلها موقعاً جزيرة رودس الواقعة بين

الطرف الشرقى لجزيرة كريت والركن الجنوبى الغربى من آسيا الصغرى ، فإنه ينفذ إلى شرقى البحر المتوسط ، وإذا ما سار محاذياً للشاطئ الشرقى حتى بلغ دلتا النيل وصعد فى النهر من هناك فإنه سيجد - فى العصور الأولى - نقالة ، أو قناة ملاحية - كما أصبح الحال فى عصر متأخر - تحمله من رأس الدلتا إلى رأس خليج السويس ، حيث يصبح على أعتاب المحيط الهندى . وإذا ما أبحر خارج بحر إيجه صوب الجنوب الغربى بين الطرف الغربى لجزيرة كريت والشعبة التى تقع فى أقصى جنوب شرق البليونيز - عند رأس ماليا Cape Malea - فسيجد أمامه الحوضين الأوسط والغربى للبحر المتوسط . وفى وسعه أن يتلمس طريقه عبر مضيق مسينا إلى ثغور أنهار التير وأرنو والرون وإبرو ، كما أن فى استطاعته أيضاً إذا ما أخذ الطريق الأرحب الواقع بين صقلية وتونس ، أن يغامر باختراق أعمدة هرقل خلال مضيق جبل طارق والخروج إلى المحيط الأطلنطى .

والأثر الثانى لطبيعة بناء حوض بحر إيجه هو أنها توفر لسكانه أرضاً صالحة للزراعة عظيمة الجودة ، وإن كانت محدودة المساحة ضيقة النطاق . وتؤدى شدة انحدار الجبال إلى تجمع التربة فى الفجوات كما يتجمع الحساء فى الطاس . وعمق التربة هنا عظيم ، كما أن سطحها مستو ، بيد أن الزراعة لا تلبث أن تتوقف عند الخط الذى يلتقى فيه هذا السطح المستوى مع سفح الجبل . أما عن الجبال نفسها فهى قاحلة

جرداء إلى حد كبير « حتى إنه إذا تكبد المزارع مشقة تدريج سفوحها الدنيا ، فإن كمية التربة التى يستطيع الاحتفاظ بها فوق مستوى السهل تبلغ من الضآلة حداً لا تصلح معه لغير إنبات عدد قليل من أشجار الزيتون . ومن المجزى فى الأراضى الشديدة الانحدار الغزيرة الأمطار مثل سفوح هضبة بيرو المطلة على المحيط الأطلنطى ، أن يدرج منحدر الجبل حتى قمته تقريباً ، بيد أن المناخ فى حوض بحر إيجه شديد الجفاف ، كما أن سفوح الجبال جرداء ماحلة ، بدرجة لا تعوض عن هذه المشقة الكبيرة . صحيح أن فى وسع حوض بحر إيجه - شأنه شأن هضبة بيرو - الاعتماد على المطر لتوفير مياه الرى اللازمة لمحاصيله ، بيد أن الخط الفاصل فى بحر إيجه بين الصحراء والأرض الزراعية يكاد يبلغ من الحدة ما يبلغه فى هضبة بيرو حيث يمتد بطول الساحل الذى لا تسقط عليه الأمطار ، وتعتمد فيه الزراعة اعتماداً كلياً على الرى ، ويتوقف نمو النبات فجأة عند النقطة التى يتعذر عندها تدفق المياه المانحة للحياة إلى ما وراءها .

ومن شأن الموقع الجغرافى لحوض بحر إيجه خلق تغيرات موسمية متطرفة . فلما كان بحر إيجه يقع عند الحد الفاصل بين أوروبا وأفريقيا ، فشتاؤه شتاء أوروبا وصيفه صيف أفريقيا ، وكثيراً ما أثارت قسوة كل من الموسمين دهشة الزائرين الوافدين من أقاليم مثل شواطئ أوروبا المطلة على المحيط الأطلنطى أو شواطئ هضبة بيرو المشرفة على المحيط

إلهادى ، حيث تنحصر الذبذبات المناخية فى نطاق ضيق نتيجة للتأثير
الملطف لتيار محيطى يحتفظ بدرجة حرارة ثابتة على نحو ما .

وكثيراً ما تعرضت على غرة فى كثير من المرات للتطرف الموسمى
الكبير الذى تذهب إليه تقلبات المناخ فى حوض بحر إيجه . فإننى قد
سرت على سبيل المثال ، فيما بين ٢٧ و ٣٠ ديسمبر سنة ١٩١١ فوق
هضبة شمال أركاديا فى البليبونيز من أرجوس Argos إلى دير
ميجاسبليون Meghaspileon . ووجدت أن الهضبة مغطاة بملاءة من
الجليد يبلغ عمقها فى بعض المواضع عدة أقدام ، ولم يكن من الممكن
السير إلا حيثما دكت البغال والأدميون مسلكاً ضيقاً لا يسع غير فرد
واحد، حيث يشق المرء طريقه فى صعوبة بالغة بين جدارين من الجليد.
وسافرت مرة أخرى فى الأسبوع الثانى من شهر يناير سنة ١٩١٢ إلى
تساليا بغية التجوال فى ريفها غير أن البرودة القارسة قد أحبطت مسعاى .
فقد كانت هناك ريح شمالية تهب من المنطقة الغربية لسهول الإستبس
الأوراسية العظيمة ، التى تمتد على طول الساحل الشمالى للبحر الأسود
إلى السفوح الشرقية لجبال كارباثيا ، كما كانت الأرض تتشح بصقيع
قامم يجمد الدم فى العروق . ومررت أيضاً بتجربة ثالثة لمست فيها ما
يمكن أن يفعله شتاء حوض بحر إيجه ، وحدث هذا فى يوم من أيام
شهر نوفمبر الأخيرة من سنة ١٩٤٨ ، عندما قطعت الطريق من أثينا إلى
كورنثة بسيارتى أنا وزوجى ثم عدنا إلى كورنثة . وكانت الألوان التى

اصطبغت بها الطبيعة فى مثل ذلك اليوم من أيام الشتاء هى الألوان التى استخدمها الرسام إلجريكو El Greco فى لوحته التى تصور طليطلة وقد اجتاحتها عاصفة راعدة . كانت السماء قاتمة والبحر عاتيا . وكان على أن أخوض فى أكوام من الجليد عندما شقت طريقى مصعداً إلى قمة جبل أكروكورنثوس Acrocorinthus ، وكانت الرياح عند عودتى إلى أثينا بطريق كاكى سكالا Kaki Skala (المرسى الردى) عند حافة صخور سكيرونيا Scironian Rocks ، تعصف فى دفعات قوية ، وتضرب مياه الخليج السارونى فيعلوها الزبد ، وتكاد تكتسح الناظر وتطيح به بعيداً . ولو مد المرء بصره عبر جبال أرجوليد Argolid التى تكتسحها العواصف، لظن - إن لم يكن يعرف أين هو - أنه إنما يحدق فى شواطئ أيسلندة . وفى الطرف الآخر من سلم المواسم لا تقل حرارة الصيف بشاعة - بطريقتها الخاصة - عن برودة الشتاء . فقد رست سفينتى فى ١٧ يوليو سنة ١٩١٢ فى إتيا Itéa فى الساعة الخامسة صباحاً، ومن هناك قصدت دلفى سيراً على الأقدام . وكان طريقى طويلاً صعوداً فى الجبل ، وما لبثت أن أدركت أننى إنما قد دخلت فى صراع مع الشمس . فقد داهمتنى أشعتها اللافتة قبل أن أبلغ نهاية رحلتى ، رغم أننى دخلت إلى دلفى مترنحاً قبل أن تقترب الشمس من سمتها بوقت طويل . وقد اتفق بعد مضى سبعة عشر عاماً على هذا التاريخ أن كنت فى بغداد فى شهر سبتمبر ، حيث بلغت درجة الحرارة ١١٧ درجة فهرنهايتية فى الظل ، مع انعدام ريح الشمال الملطفة التى تهب من سهول

الاستبس والتي تعد خلال فصول الصيف فى بحر إيجة الصديق الرحيم للإنسان . بيد أننى لم أشعر بقسوة الحر فى العراق أو المملكة العربية السعودية كما شعرت بها فى اليونان .

كانت هذه المظاهر الطبيعية لحوض بحر إيجة عوامل فعالة فى التاريخ الهلنى . فلإن ندرة الاراضى الزراعية فى الداخل واستحالة زيادة رقعة الأرض الصالحة للزراعة زيادة ذات بال ، دفعنا الشعوب الهلنية إلى التوسع أولاً على حساب الدولة الضعيفة المجاورة ، ثم إلى دعم الزراعة فيما بعد بالاتجاه إلى التجارة والصناعات الإنتاجية وذلك عندما توقفت حركة توسعهم إزاء مقاومة ضحاياهم ومنافسيهم لهم . وكان لسيادة الهلنيين على البحر المتاخم لأوطانهم أن فتحت أمامهم الطريق إلى عالم عظيم الاتساع شديد التعقيد . كما أن تعودهم على التغيرات الموسمية المتطرفة التى عرفت عن بحر إيجة أكسبهم المران على أن يآلفوا الحياة فى أى وطن داخل نطاق واسع من البيئات الطبيعية المختلفة .

وكانت أقل الجبهات مقاومة لتوسع الشعوب الهلنية فيما وراء البحار هى التى تقع فى اتجاه الغرب على امتداد البحر المتوسط وفى الاتجاه الشمالى الشرقى خلال المضائق إلى البحر الأسود ، ذلك لأن الشعوب الوطنية فى كل من هذين الاتجاهين ، كانت أكثر تخلفاً من الهلنيين فى المضمار الحضارى ، ومن ثم لم تكن لتقوى على الوقوف فى وجههم ، وعلى ذلك فإنه لم يكن أمام الهلنيين من خصوم يخشى بأسهم غير

المجتمعات المتقدمة المناهضة لهم من بين مجتمعات شرق البحر المتوسط الأخرى . وقد أقام المستعمرون الهلينيون «هلاس العظمى» (بمعنى «اليونان الوسطى العظمى») عند «ظاهر قدم» إيطاليا و «أصبعها» ، كما أقاموا فى صقلية مستعمرة على غرار البليونيز وإن كانت تفوقها خصوبة ، وثالثة شبيهة بكريت فى قىروان Cyrenaica . ورابعة تعد صورة مصغرة لآيونيا Ionia بعيداً على شاطئ الريفيرا الفرنسية . وتجاوز هذا التوسع البحرى حدود مناخ البلاد الأصلية للمهاجرين الهلنيين . فإن الساحل الشمالى لبحر إيجه ، حيث أسس الخلكيديون مستعمرة على غرار بلادهم خلكيديكى Chalcidice ، كان أشد قسوة فى مناخه إلى حد بعيد من الريفيرا الفرنسية ، على الرغم من أنه يقع قريباً للغاية من وطن المستعمرين . أما مناخ الساحل الشمالى للبحر الأسود ، حيث أسس أهل مليسيا Milesians المراكز التجارية عند مصبات أنهار روسيا العظيمة ، فقد كان أشد قسوة من ذلك أيضاً . وفى الناحية المقابلة كانت تقع المستعمرة البانهلينية عند نقراطيس Naucratis ، على أحد الفروع الشمالية الغربية لدلتا النيل ، وكانت هذه دون شك تقع فى منطقة أشد حرارة من منطقة بحر إيجه ، وقد حملت نقراطيس لواء الهلينية قبل الإسكندرية ، التى اتخذت فيما بعد عاصمة للعالم الهلينى خلال عصر بدأ بسقوط الإمبراطورية الفارسية على يد الإسكندر الأكبر ، واختتم بغزو الرومان لحوض البحر المتوسط .

وما لبثت حركة التوسع فى العالم الهليني - التى سارت إبان جولاتها الأولى مستتعة الطرق البحرية ، إلى أن قامت العراقيل فى وجه هذه الحركة البحرية قرابة نهاية القرن السادس قبل الميلاد - أن دفع الإسكندر الأكبر عجلتها من جديد قبل نهاية القرن الرابع ق. م وواصلها الرومان قبل نهاية القرن الثالث ، وفى هذه المرة اتخذت حركة التوسع طريقها براً . فى القرن الثانى ق. م حمل خلفاء الإسكندر لواء الحضارة الهلينية إلى حوض نهري جومنا Jumna وجانجيز Ganges ، أى إلى منطقة هبوب الرياح الموسمية ، ونقلها الرومان فى القرن الأخير ق. م إلى الشاطئ الأوروبى المطل على المحيط الأطلنطى ، أى إلى مجال تيار الخليج .

ولقد صمدت المدن الهلينية فى هذا التوسع البرى إلى ناحيتى الجنوب الشرقى والشمال الغربى ، حيال بيئات أشد غرابة من مدينة بورسثينيز Borythenes الشديدة البرودة الواقعة على نهر الدنيبر أو نقراطيس ذات الشمس اللافة الواقعة على نهر النيل . فاستطاعت دورا يوروبوس Dura Europus العيش على ضفة الفرات فى جانب من مجرى النهر حيث يشق طريقه فى سهول الأستبس الشمالية لشبه الجزيرة العربية . واستطاعت كل من «سلوكية على الدجلة» و «أنطاكية على أولايوس» و «بوكيفالا على هيداسبيس» Bucephala-on-Hydaspes العيش فى السهول الحارة فى العراق وخوزستان والبنجاب . واستقرت

بعض المستعمرات الهلينية الأخرى على هضبتى الأناضول وإيران وفى حوض نهري أوكسوس Oxus وجاكارتيذ Gascartas ، حيث يغطى الثلج البلاد إلى نصف العام . وفى الاتجاه المقابل ، تشهد أسماء المدن الحديثة كولن Koln (كولونيا أجريپينا Colonia Agrippina) فى رانيلاذ ولنكولن Lincoln (لندوم كولونيا Lindum Colonia) بين عوالم إنجلترا الشرقية على جلد المستعمرين الرومانيين الذين بثوا فى شمال غرب أوروبا مدناً هلينية فى ثياب لاتينية .

لقد عمد رواد الحضارة الهلينية الأوائل فى انتشارهم براً على تطويع أنفسهم للصمود أمام ظروف البيئة غير الملائمة ، ولكنهم كانوا بطبيعة الحال يشعرون بحنين جارف إلى تلك البقاع - وهى قليلة متباعدة تشر فى الأراضى الداخلية القارية الشاسعة التى تحوط حوض بحر إيجه الصغير - التى يذكرهم مناخها أو تذكرهم نباتاتها أو مياهها بوطنهم . فقد انقض على سبيل المثال المستوطنون الهليونىون - وكانوا من قدماء المحاربين المسرحين أو من المدنيين المغامرين - الذين تدفقوا إلى جنوب غرب آسيا ومصر فى آثار جيش الإسكندر الأكبر ، انقضوا على منطقة شرق الأردن الجبلية ، بغاباتها وقنواتها التى تغذيها الأمطار ، ثم إنهم عندما بلغوا بلاد باروبانيساداى Paropanisadae القصية - وتقع فى تلك الهضاب الباردة الطقس التى تطوق منابع أنهار أفغانستان حيث تتجمع الطرق القادمة من أركان آسيا الأربعة - دعوا هذا الفردوس المكسو

بالكروم وطناً للإله ديونيسوس Dionysus . لقد احتل المستعمرون الهلينيون باروبانيساداي Paropanisadae بحد السيف ، وظلوا صامدين هناك حتى القرن الأول ق. م. فى الوقت الذى كان الغزاة البدو الأوراسيون قد اجتاحوا بقية أجزاء العالم الهلنى جميعها الواقعة شرقى نهر الفرات . وكانت الريفييرا القرمية والبونية - وهما صورتان مطابقتان لايونيا واقعتان على شواطئ البحر الاسود ، احتلهما المستعمرون الهلينيون من قبل إبان المرحلة البحرية لحركة التوسع الهلنى - هما آخر ملاذ لنظام المدينة الدولة الهلينية . فقد بقيت خرسونيسوس تورىكا Chersonesus Taurica (فى موقع مدينة سيبيا ستبول الحديثة) على أطراف الريفييرا القرمية ، مدينة دولة تتمتع بالحكم الذاتى ، حتى القرن التاسع من العهد المسيحى ، كما استعادت مدينة تريبيزوند Trebizond استقلالها ، واحتفظت به مدة ربع عصر ألفى ، بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الشرقية على يد الصليبيين الغربيين عام ١٢٠٤ من الميلاد .

والحقيقة أن احتمال الهلنيين المغتربين لظروف البيئة غير المواتية كان مجرد عمل فذ أقاموا به الدليل على عبقريتهم ، غير أنهم لم يكفوا قط عن الإحساس وهم فى مفاهم بذلك الحنين الذى كان يشدهم دائماً إلى وطنهم هيلاس . وقد حدث فى أواخر القرن السادس ق. م. أن وجد أحد الهلنيين من أبناء «هيلاس الكبرى» ، وهو الطبيب ديموكيديس Dèmocédés من كروتون Croton الواقعة على «أصبع

قدم» إيطاليا ، وجد نفسه قد نفى على حين بغبة إلى قلب الإمبراطورية الفارسية . وكان قد عين مفتشاً للصحة العامة فى جزيرة ساموس Sa-mos الهلينية « القريبة من الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى ، وشارك رؤساءه فى مصيرهم عندما احتلت حملة فارسية مقاتلة جزيرة ساموس . وكان من حسن الصدف أن استدعى لعلاج الإمبراطور الفارسى دارا الأول من إصابات لحقت به من جراء سقوطه عن فرسه ، فكوفئ على إبرائه هذا المريض الجليل بتعيينه فى منصب المستشار الطبى الخاص للإمبراطور . بيد أن ديموكيديس لم يجد فى هذا المنصب المرموق العزاء عن حياة الأسر التى يحياها فى خوزستان Khuzistan ، ولما كان دارا يرفض إخلاء سبيله ، فقد احتال ديموكيديس على ذلك بأن أقنع الإمبراطور بالسماح له بالعمل ضابطاً للمخابرات على متن حملة استطلاعية فارسية كلفت بتفقد الحوض الغربى للبحر المتوسط ، وعند ذلك استطاع ، كما كانت نيته فى الأصل ، أن يفر عند أول نقطة حاذى فيها الأسطول الفارسى الصغير وطنه فى مدينة كروتون .

وكان هذا الحنين إلى هيلاس من بين نقط الضعف الموروثة لدى الأسرة السليوكية Seleucidae التى تميزت عن سائر الأسر المالكة الهلينية التى خلفت الإسكندر الأكبر ، باستطاعتها التوغل بحدودها إلى أقصى نقطة ممكنة فى قلب القارة الأوروبية . وكان سلوكس المظفر هو الذى أرسى دعائم أسرته المالكة ، بعد موت سيده الإسكندر الأكبر ،

بأن استولى على بابلونيا Babylonia (العراق) الولاية الرئيسية التي تتحكم فى جنوب غربى آسيا ، باعتبارها مصدراً للمؤن وباعتبارها ملتقى طرق المواصلات أيضاً . بيد أنه لم يهدأ له بال حتى هيا لنفسه شاطئاً على البحر المتوسط ، وما إن تم له غزو شمال سوريا ، حتى نقل المركز الإدارى والحربى لإمبراطوريته إلى هذا الركن البحرى الشاذ منها . وكان على «سلوكية على الدجلة» أن تعترف بزعامة أنطاكية على العاصى التى أقيمت فى النقطة التى يجرى فيها النهر السورى فى صورة سورية طبق الأصل من وادى تيمى Vale of Tempe إلى نسخة سورية من بيريا Pieria وهو فى طريقة إلى البحر الهلينى . وخلقت بلاد جديدة تحت أسماء كيرستيكى Cyrrhestic وأنثيموزياس Anthemusias وموجدونيا Mygdonia وأدومانتيس Adomantis على طول الطرف الشمالى من «الهلال الخصيب» . غير أن بعث أسماء الولايات المقدونية على هذا النحو فى سورية والعراق لم يخفف من حنين سلوكس إلى وطنه وبلاده، وعندما ضم فى آخر حرب له من حروب الخلافة ، آسيا الصغرى وتراقيا إلى مملكته الآسيوية المترامية ، كانت الفكرة التى استبدت به هى العودة إلى زيارة مقدونيا التى غاب عنها حتى هذا الحين ثلاثة وخمسين عاماً . وقد كلف هذا الحنين إلى الشاطئ الإيجى سلوكس المظفر حياته ، فقد اغتيل وهو فى طريقه إليه . وكلف سليله أنتيوخوس الثالث العظيم Antiochus إمبراطوريته بأن أدى به إلى الاصطدام

بالرومان . بيد أن هذه الدروس القاسية لم تثن أنتيوخوس الرابع «إيفانيس» عن إنفاق دخول المملكة السلوكية المتضائلة على حوض بحر إيجه الساحر الأسر . وذلك بتزيين أثينا وتجميلها . فقد سعى إلى تخليد ذكره في بلاد هيلاس الأصلية هذه بأن استأنف العمل في تشييد معبد زيوس الأولمبي العظيم . الذى كان قد شرع الطاغية الاثينى بيزستراتوس Peisistratus فى بنائه والذى قدر للإمبراطور الرومانى هادريان أن يتمه . بيد أن سلوك أسرة سلوكس إنما يقدم الدليل على أنه مهما طوف الهلنىس بعيداً عن البحر الإيغى ، فإن قلبه الحانى يظل مرتبطاً بقلب هيلاس الجغرافى .

الفصل الثالث

الرد على أخطار الفوضى والضغط

كانت الظروف التاريخية التى أحاطت الفضل الاول من تاريخ الحضارة الهلينية ، هى انهيار وسقوط الحضارة الميناوية الموكنية التى سبقت الحضارة الهلينية فى حوض بحر إيجه . ولعل سقوط المينايين غير اليونانيين ، الذين أسسوا هذه الحضارة القديمة ، كان النتيجة أو السبب فى ظهور الموكنيين بالقارة الأوروبية الذين كانوا يتكلمون اليونانية، والذين احتلوا كنوسوس Cnossos - عاصمة كريت الميناوية- قبل تدميرها فى نهاية القرن الخامس عشر ق.م والموكنيون يعدون برابرة بالقياس إلى المينايين ، ولكنهم اعتبروا بالنظر إلى البرابرة الأجانب الذين وفدوا فى أعقابهم ، ورثة التقاليد الميناوية وحماتها . وقد قام الموكنيون بالفعل بخلق بعض الأشياء التى حلت على نحو ما محل ما حطموه بأيديهم . فقد خلقوا على سبيل المثال ، القوة البحرية الآخية ، التى واصلت جهود «الملك مينوس» وإن جرى ذلك بصورة غير متقنة -

فى خفر البحار . ولقد كانت الفترة جميعها التى تمتد من نهاية القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن الثانى عشر ، تمثل دون شك عصراً من عصور الانحلال ، بيد أن الانفصام العظيم الذى أصاب سلسلة التطور الاجتماعى والثقافى لم يقع فى بداية هذا العصر بل قرب نهايته . ولم تكن الكارثة العظمى هى تدمير كنوسوس فى القرن الخامس عشر . بل كانت الهجرة الجماعية (Völker wanderung) التى دفعت إليها الموجة التالية من موجات البرابرة فى بداية القرن الثانى عشر ق. م. ولم تتسبب هذه الهجرة فى تدمير موكنائى Mycenae والمراكز الأخرى للحضارة الموكنية فى حوض بحر إيجه بل اجتاحت كالموجة العالية أراضى آسيا الصغرى وجرفت أمامها مدينة هتوساس Hattusas (المعروفة الآن باسمها التركى : بوغاز قلعة) عاصمة الإمبراطورية الحيثية . وإذا ما وقف المرء بين أطلال هاتوساس وحاول أن يتخيل مشهد الحصار بأن يستعيد فى ذاكرته وصف فرجيل الشاعر الرومانى لحصار طروادة كما تخيله فى الكتاب الثانى من الإلياذة ، فإنه لن يلبث أن يدرك فداحة كارثة القرن الثانى عشر . فقد تدفق سيل المهاجرين المقاتلين ، الذين كانت قوتهم ما تزال على أشدها ، مطوقاً الشاطئ الشرقى للبحر المتوسط إلى أن تكسر عند الطرف الشمالى الشرقى لدلتا النيل أمام المقاومة المستميتة التى أبدتها القوات المصرية البحرية والبرية . واستقر المقام بمن كتبت له الحياة من الفلسطينيين المقهورين على السهل الساحلى لفلسطين ودعيت البلاد باسمهم .

وقد استقيننا معلوماتنا عن هذا العصر الذى عرف بتقلباته العنيفة ،
والذى بدأ بتدمير كنوسوس وانتهى بمعركة النيل عام ١١٨٨ ، مما عثر
عليه علماء الآثار فى العصر الحديث من قصاصات الوثائق الرسمية
الخاصة بالحكومات المصرية والحشية والآشورية ، من ناحية ، ومن
الدراسة التاريخية التفسيرية لخريطة توزيع اللغات فى حوض بحر إيجه
وآسيا الصغرى وسوريا وكنعان بالصورة التى كانت عليها فى العصر
الآلفى الأخير ق. م. بعد أن هدأت الأحوال به ، من ناحية أخرى ، ثم
من هاتين الملحمتين الهيلينيتين ، الإلياذة Eliad والأوديسة odyssey
اللتين تنسبان منذ القدم إلى هومر .

وتفيدنا السجلات الرسمية المصرية بأن الاضطراب كان شاملاً
مطبّقاً. فإن ذلك التفجر المروع للشعوب المغيرة وتدفعها من الشمال فى
مستهل القرن الثانى عشر ق. م. - وهذه هى الذروة التى بلغت حالة
الاضطراب جميعها - قد ظهرت بوادره فى القرن الرابع عشر ق. م. ،
فى الموجة الأولى من موجات غزو كنعان والشام من ناحية الشرق ،
وهى الموجة التى خرجت من الصحراء الشمالية لشبه الجزيرة العربية
وكذلك خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر فى الغزوات المتلاحقة
لدلتا النيل من جهة الصحراء الغربية ، والتى كان يشنها برابرة يفدون فيما
يبدو من جهات نائية مثل تونس وصقلية ، بل ومن سردينيا فيما يظهر
أيضاً . ومما يفسر اتساع الرقعة التى انتشرت بها الاضطرابات ، الحقيقة

المائلة فى أنه خلال النصف الثانى من العصر الألفى الثانى ق. م. لم يكن المجتمع المينوى هو الحضارة الشرقية الوحيدة التى أصابها الانحلال . فقد استفد المصريون والحيثيون قواهم بخوضهم غمار حرب استغرقت مائة سنة فى سبيل الاستيلاء على سوريا وكنعان ، وانتهت قرابة عام ١٢٧٨ ق. م. باتفاق يقضى باقتسام منطقة النزاع فيما بينها . كما أنهك الحيثيون قواهم أكثر من ذلك نتيجة لسلسلة من الحروب مع إمبراطورية أرزوه Arzawa ، فى غرب آسيا الصغرى ، وانتهى الصراع بينهما فى وقت ما خلال النصف الأخير من القرن الرابع ، بانتصار الحيثيين ، غير أن انتصارهم - كما تكشف فيما بعد - كان باهظاً فادح التكاليف . والحقيقة أن الفراغ الاجتماعى الذى اجتذب البرابرة من أركان الأرض لم يكن يشمل حوض بحر إيجه وحده بل امتد إلى الشرق جميعه .

وتطلعنا الخريطة اللغوية لهذه المنطقة فى الفترة التالية على مزيد من المعلومات حول ماهية هؤلاء المهاجرين والطرق التى اتخذوها فى هجرتهم ، تتبين فيها سهماً عريضاً من الشعوب الدخيلة التى تتكلم الفريجية يسير فى اتجاه مائل عبر آسيا الصغرى ممتداً من الجهة الجنوبية الشرقية للدردنيل ، كما أن فريقاً من المغيرين دفع الكاريين Carians أمامه بحيث هبطوا فى وادى نهر مندرس Maeander حتى البلاد الواقعة عند مصبه حيث طرد الكاريون بدورهم اللوكيين Lycians منه إلى «بطن» و«أصبع» شبه الجزيرة . وتدلنا سجلات الملك تغلت فلاسر الأول Tiglath-Pileser ملك آشور على أن طلائع المهاجرين الفريجيين

القادمين من جنوب شرق أوروبا كانت قد بلغت بالفعل الحوض العلوى لدجلة قبل أن يوقف الجيش الأشورى تقدمها قرابة نهاية القرن الثانى عشر ق. م. ويسير سهم آخر من الشعوب الدخيلة بميل عبر اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية وعبر حوض بحر إيجه ، ممتداً من إبيروس Epirus (البر الاصلى) على الجانب الشرقى من مضائق أوترانتو Otranto ، فى الاتجاه المقابل «لـكعب» إيطاليا ، حتى جزيرة رودس والجزر الصغيرة المجاورة الواقعة تجاه الركن الجنوبى الغربى من آسيا الصغرى .

وكانت اللغة التى يتكلمها هؤلاء الدخلاء الوافدون إلى حوض بحر إيجه من القارة الأوروبية هى لهجة من لهجات اللغة اليونانية ، وهى اللهجة المعروفة فى مصطلحات اللغة الهلينية باللهجة الدورية Doric . ولعل هذه التسمية ترجع إلى أن هذه اللهجة كانت شائعة فى دوريس Doris ، وهى مجموعة الجزر التى كانت تحتل أقصى نقطة ، جهة الجنوب الشرقى ، بلغها المعتدون . ولقد شق سهم الغزاة الذين كانت لغتهم هى الدورية ، طريقة فى الطبقة القديمة من الشعوب المتكلمة باليونانية فى هذه المنطقة وهى الشعوب التى احتضنت الحضارة الموكنية وكانت المتسلطة على القوة البحرية الأخية . فاكتمح الغزاة الجدد هذه الشعوب وأغرقوهم فى طوفانهم أو دفعوهم خارج البلاد . أما الطبقة القديمة من شعوب البليونيز فلم تبق إلا فى الهضبة الوسطى (أركاديا) أو

بعيداً فيما وراء البحار فى قبرص ، التى كان المغامرون الآخيون قد احتلوها فى القرن الرابع عشر ق.م . ولم يعد للطبقة القديمة من الشعوب التى تتكلم اليونانية فى اليونان الوسطى أى موضع فى القارة الأوروبية فيما عدا مقريهما فى أتيكا وفى يوبويا Euboea (التي تعتبر جزيرة من الوجهة الجغرافية وإن كانت فى الواقع جزءاً من القارة الأوروبية) . وكانت الغالبية العظمى من هؤلاء اليونانيين الذين يتكلمون اللهجة الأيونية ، قد دفع بها عبر البحر إلى جزر بحر إيجه وإلى ما وراء ذلك أيضاً ، فى بلد أيونى جديد ، يقع على الشاطئ الغربى من الأناضول ، حيث أدى انهيار الإمبراطورية الحيثية إلى خلو الساحل تماماً (وكان كل ما أفلحت القوة البحرية الآخية فى الحصول عليه من مراكز بالقارة الآسيوية هو رأس جسر واحد عند ميليتوس Miletus) . ودفع أيضاً بالطبقة القديمة من الشعوب التى تتكلم اليونانية والتى كانت تقطن شمال اليونان إلى ما وراء البحار حتى أيوليس Aeolis ، وتقع على الشاطئ الغربى من آسيا الصغرى إلى الشمال من أيونيا Ionia . وأصبح لا يمثل اليونانيين الذين يتكلمون اللهجة الأيولية فى أوروبا غير مقاطعتين محصورتين إحداهما فى تساليا وأخرى فى بويوتيا Boeotia حيث حل هؤلاء الذين يتكلمون الأيولية ، وقد وقعوا تحت ضغط الدخلاء الذين يتكلمون الدورية عند مؤخرتهم ، محل السكان السابقين الذين كانوا يتكلمون الأيونية . ويدل اسم «البويوتيون» على أن هذا الشعب الذى

يتكلم الأيولية قد انحدر من شمال اليونان ، حيث إن هذا الاسم يعنى سكان بويون Boion وهى لفظة مرادفة لجبل بندوس Pindus .

وتروى الخريطة اللغوية الجديدة لسوريا وكنعان القصة ذاتها . فقد انغمرت فى سوريا الشعوب الأمورية التى كانت تتكلم اللغة السامية تحت موجة اللاجئين الحثيين القادمين من آسيا الصغرى والذين سيقوا إلى أعالي وادى نهر العاصى إلى ما يقرب من منابعه ، وتحت موجة مضادة من المعتدين الآراميين الذين يتكلمون اللغة السامية والقادمين من شمال شبه الجزيرة الغربية ، وقد شق هؤلاء طريقهم فى سفوح جبال أنتيطوروس Antitaurus وأمانوس Amanus . وأصبحت الطبقة القديمة من الشعوب التى تتكلم اللغة السامية فى كنعان ، لا توجد إلا فى مقاطعات محصورة متفرقة منعزلة ، كما حدث للشعوب التى تتكلم الأيولية والشعوب التى تتكلم الأركادية فى بلاد اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية . واحتل الساحل ، فيما عدا فينيقيا ، اللاجئين الفلسطينيون الوافدون من حوض بحر إيجه ، واحتلت الداخل الشعوب اليهودية : موآب ويهوذا وعمون وإسرائيل .

وتعتبر الإلياذة والأوديسة ، أكثر مصادر معلوماتنا عن عصر العنف تفصيلاً وأعظمها سحراً ، ولكنها فى الوقت ذاته أعسرهما فهماً وأقلها نصيباً من ثقتنا . وما من شك فى أن مدينة إليون Ilion (وتدعى طروادة فى مواضع أخرى) ، نظراً لوقوعها عند النقطة التى يمتد عندها - فوق

الممر المائى الواصل بين بحر إيجه والبحر الأسود - معبر القوارب الذى يصل بين جنوب شرق أوروبا وآسيا الصغرى ، قد لعبت دوراً هاماً خلال هذه الحقبة من التاريخ . والحقيقة أن اكتشاف موقع طروادة وأعمال التنقيب عن الآثار التى جرت فيه فى العصر الحديث أكدت بما لا يدع مجالاً للشك أن طروادة احتلت مركزاً مرموقاً فى فترة امتدت من العصر الألفى الثالث حتى القرن الثالث عشر ق.م . وأن الصورة التى يرسمها هومر لحصار الأخيين لهذا المركز الاستراتيجى الهام طوال عشرة أعوام ، وما تلى ذلك من تشتتهم بحثاً عن الطريق إلى وطنهم ، لينطبق أيما انطباق على صورة ذلك العصر كما ترسمها لنا السجلات المصرية والحديثة . ويظهر الأخيون فى هذه السجلات أيضاً . ، مثلما يظهرون فى القصائد الهومرية ، فى صورة القراصنة المعتدين . وبالإضافة إلى ذلك فإن التاريخ التقليدى لسقوط طروادة بين عامى ١١٩٤ - ١١٩٣ ق.م . كما جاء فى حساب البعض ، وفى عام ١١٨٣ كما جاء فى حساب البعض الآخر ، ليقارب بصورة مذهلة التاريخ الذى يحدده علماء المصريات لمعركة النيل التى لقيت فيها «الشعوب البحرية» الهزيمة على أيدي المصريين . بيد أن أية محاولة لاتخاذ الإلياذة والأوديسة مصدرين تاريخيين لا بد وأن تعترض سبيلها العقبات . وعلى سبيل المثال ، فإن شريير الإلياذة ، باريس الذى يسمى فى مواضع أخرى «الكسندروس الطروادى» Alexandros of Ilion يظهر من السجلات الرسمية الحديثة تحت اسم «الكسندوس من ويلوزا» Aleksandus of Wilusa ، بيد أنه

فى هذا النص ، الذى يعتبر النص التاريخى المعتمد بالنسبة له ، لا يظهر فى القرن الثانى عشر ق. م. بل قبل نهاية القرن الرابع عشر . فإما أن باريس والكسندروس لم يكونا علميين فى الواقع على شخص واحد ، وإما أن هذا الشخص - إن كان بخلاف ذلك - ليست له علاقة بحصار طروادة فى زمن الاضطراب العظيم الذى وقع فى القرن الثانى عشر . والحقيقة أن شعراء الملاحم كانوا فنانيين مبدعين ذوى أصالة تحول دون أن يكونوا مؤرخين مدققين صادقين . فعلى الرغم من أن الموضوعات التى عالجوها تناولت أحداثاً تاريخية ثابتة، إلا أن جل اهتمامهم كان منصباً على اجتذاب انتباه جمهور مستمعهم ولذلك فلم يكونوا يترددون فى صياغة قصصهم فى قالب فنى براق على حساب الدقة التاريخية ، بل قد يكلفهم ذلك فى بعض الأحيان تغيير القصة بما يطمس معالمها ويخرج بها عن الأصل تماماً .

ويعرض لنا الشاعر الهلينى هزيود Hesiod الذى كان يكتب عن هذه الأحداث بعد انقضاء أربعة قرون أو خمسة على وقوعها ، وذلك فى فترة الظلمات التى سبقت انبلاج فجر الحضارة من جديد ، يعرض لنا جنباً إلى جنب ، صورتين متناقضتين لحقبة الاضطراب الاجتماعى فى حوض بحر إيجه . ففي إحدى هاتين الصورتين ، صور البرابرة وكأنهم فى الواقع جنس شرير يتسبب إلى عصر العنف والاضطراب ، ثم مجدهم فى الصورة الأخرى ، كما مجدهم الملاحم الهومرية ، باعتبارهم جنس

الأبطال النبيل العريق . فإننا فى الصورة الثانية نرى البرابرة كما كانوا يبدون فى نظر أنفسهم ، وفى الصورة الأولى نراهم على النحو الذى ظهوروا به لضحاياهم . وكانت السيادة ؛ فى التراث الأدبى الهلينى ، لصورتهم المثالية ، ويرجع السبب فى ذلك من ناحية إلى فضل عباقرة الحضارة الهلينية الذين صاغوا تلك الأعمال الفنية الرائعة مثل الإلياذة والأوديسة مستمدين إياها من أشعار الملاحم البربرية ، ويعود من ناحية أخرى إلى أن المجتمع الهلينى لم يرث من سلفه المنيوى أى كتاب يقوم مقام «الكتاب المقدس» الذى حل محل الملاحم التيوتونية فى البلاد المسيحية الغربية ، أو مقام القرآن الذى دفع بالأشعار الباقية للوثنيين العرب إلى زوايا الإهمال فى العالم الإسلامى . لقد وقع مؤسسو نظام المدينة الدولة الهلينيون خلال الفصل الأول من تاريخ الحضارة الهلينية تحت سحر الأبطال البرابرة . ولكنهم فى الوقت الذى كانوا يمجدون فيه عصر البربرية فى الأشعار الهومرية ، كانوا بسبيل التخلص منه فى واقع الحياة .

ولقد كان التراث الذى خلفه عصر البربرية فى حوض بحر إيجه يقوم على الفوضى ، ولذلك فقد كان الفصل الأول من التاريخ الهلينى يمثل عصراً مظلماً لا بد أن امتد إلى ما يقرب من أربعمئة سنة ، إلى أن تبددت ظلماته فى النهاية فى القرن الثامن ق.م. وكان هذا العصر المظلم من العصور التى ازدادت فيها مشقات الحياة ، كما يشهد بذلك الشاعر

هزيود . بيد أنه ، على خلاف فترة الفراغ الاجتماعى التى سبقته ، كان عصر مشروعات بناءة . فقد شهد استتباب النظام فى حوض بحر إيجة من جديد ، نتيجة لانتصار فلاحي السهل على رعاة الجبل .

ولا يختلف الحال فى حوض بحر إيجة عن الحال فى مجموعة الجزر اليابانية ، فإن ما يقرب من ٩٠ ٪ من مساحة الأرض، تشغلها الجبال غير الصالحة للزراعة، أما الأرض المستوية الصالحة للزراعة فلا تزيد على ١٠ ٪ تقريباً. بيد أن سكان السهل كانوا يتمتعون فى الصراع الذى نشب بينهم وبين سكان الجبل ، بثلاث ميزات . فكان سكان السهل أكثر عدداً، وأعظم تركيزاً ، وأيسر حالاً، مما أتاح لهم فرصاً للتنظيم والتسلح لم تيسر لخصومهم من سكان الجبل فى تشتتهم وفقرهم المدقع.

ومن المرجح أن اختراع المعدات الحربية التى كانت فى متناول أهل السهل قد تم فى وقت ما يقع خلال النصف الأخير من العصر الألفى الثانى ق.م. وقد شاع استعمال هذه المعدات ، فى العصر الألفى الأخير ق.م. فى منطقة تمتد من آشور الواقعة فى الركن الجنوبى الشرقى عبر أورارتو Urartu (أرمينيا) ثم آسيا الصغرى حتى المراكز الامامية للحضارة الهلينية جهة الغرب ، بما فى ذلك الشعوب التى كانت فى دور التطبع بالطابع الهلنى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط . وكان العنصران المميزان لهذه المعدات ، درع معدنى مستدير ، وخوذة معدنية لها عرف من شعور الخيل . ولا بد أن مخترعى هذه المعدات كانوا ينظرون إلى

الخيـل نظـرة إجلال وإكبار ، وكان لهم أيضاً شغف بالتعدين ، ومصدر وفير للمعادن الخام ، وتشير هذه الاعتبارات الثلاثة إلى الحيشيين الذين عرف عنهم شغفهم بالخيل وتقديمهم فى مضمار سبك الحديد . وفى القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م. كانت الإمبراطورية البرية الحيشية فى آسيا الصغرى على علاقة مباشرة بالقوة البحرية الآخية التى حلت محل القوة البحرية الميناوية فى بحر إيجه ، وكان الآخيون مازالوا يتلقنون إذ ذاك من جيرانهم الحيشيين كيفية استخدام العربات الحربية ، ومن ثم فقد يكون هذا هو الوقت أيضاً الذى بدأت فيه شعوب حوض بحر إيجه فى اصطناع الأسلحة المعدنية . وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فالاحتمال الثانى هو أن هذه الأسلحة دخلت منطقة بحر إيجه خلال حركة الهجرة الجماعية Völkerwanderung التى حدثت فى القرن الثانى عشر ق.م. على أيدي الكاريين ، الذين ينسب إليهم هيرودوتس - Herodotus وهو المؤرخ الكارى الذى عاش فى القرن الخامس استحدثهم فكرة العرف المصنوع من ذبول الخيل . والمسلم به فى الإلياذة هو أن هذه المعدات كانت شائعة الاستعمال بالفعل بين أبطال كل من طرفى النزاع فى حصار طروادة ، وكما أوضحنا من قبل ، فإنه لو صح أن هذا الحصار كان حادثة تاريخية فى واقع الأمر، فلا بد أنه كان من بين الوقائع التاريخية للهجرة الجماعية . وكان استخدام الأسلحة المعدنية والعربات فى عصر الهجرة الجماعية وطوال العصر المظلم الذى أعقبه ، وفقاً على

طبقة أرستقراطية وراثية ينتظم محاربوها فى صفوف سلاح للمشاة
الراكبين، ممن يقومون بمناوراتهم على العربات الحربية على حين
يقاتلون راجلين فى مبارزة مع العدو وجهاً لوجه . ويتمتع سلاح العربات
الثقيلة التسليح ، فى ميدانه المفضل أى السهل ، بميزة معينة على سكان
الجبل الراجلين الخفيفى التسليح ، غير أن هذه الميزة لم تكن تضمن له
التفوق الحاسم ، كما يستدل مما وقع فى كنتان ، خلال العصر المظلم،
حيث لقي راكبو العربات وهم سكان السهل ، الهزيمة المنكرة على يد
سكان الجبل فى جميع البقاع فيما عدا الشريط الساحلى . ولعل انتصار
سكان السهل فى هيلاس لا يرجع إلى تزودهم بالأسلحة والعربات بقدر
ما يرجع إلى انتظامهم فى المدن الدول .

وفى العالم الهلنى وخلال العصر المظلم ، خرجت المدن الدول
إلى الوجود نتيجة لفرض الوحدة السياسية على مجتمعات كانت على قدر
من الضآلة لا تسمح بأن تؤلف كل منها على حدة، دولة لها كيانها
وفاعليتها. واللفظة اليونانية التى تستخدم للدلالة على عملية التكتل
السياسى هذه هى «سوناويكيزم» Synoecism ، ومعناها الحرفى هو
«الإسكان المشترك» . بيد أنه لا يجب أن يؤخذ هذا الاصطلاح الفنى
بمعناه الحرفى الصارم . فإن مدلوله لا يقتصر على فكرة «تجميع المناطق
المدنية» فحسب . وما من شك فى أنه كان لهذه العملية فى كل حالة من
الحالات جانب طوبوغرافى . واللفظة اليونانية التى تستخدم للدلالة على

المدينة الدولة التى تتكون نتيجة لعملية الإسكان المشترك هذه هى «بوليس» Polis ، والمعنى الأصلى للفظ «بوليس» هو «القلعة» وكان من الطبيعى أن تقيم المجتمعات التى «تسكن سكناً مشتركاً» داخل مدينة دولة ، قلعة مشتركة ، إن لم يكن لشيء فلكى تصبح هذه «مدينة الملجأ» التى يمكن لسكان السهل أن يلوذوا بها بصحبة قطعانهم وأغنامهم وحاجاتهم التى يسهل نقلها اتقاء شر العدو المغير . ولكنه لما كان «الإسكان المشترك» Synoecism يتطلب ، ضمناً إقامة حكومة مشتركة ، فقد كانت القلعة تضم فى العادة داخل محيط أسوارها مركزاً بلدياً دائماً ، يحوى المعابد العامة المخصصة للجمهور وأماكن الاجتماع التى كان بعضها يقام فى العراء ، والبعض الآخر فى قاعات مسقوفة حيث تصرف الشئون المدنية العامة . وقد قمت فى شهر مارس عام ١٩١٢ ، وفى المنطقة المجاورة لبلدة سيتيا Sitia ، قرب الطرف الشرقى لجزيرة كريت ، بزيادة موقع مركز بلدى محصن من هذا النوع . وكانت معالم أساسات المنشآت العامة فى هذا الموقع واضحة يسهل التعرف عليها ، بيد أنه لم يكن هناك ما يدل على أنه قد أنشئت فى أى زمن من الأزمان مساكن لإقامة الأفراد داخل محيط الأسوار . وما من شك فى أنه قد أصبح من المعتاد أيضاً أن يجمع المركز البلدى الدائم حوله فى النهاية ، أحياء دائمة لسكنى الأفراد ، وقد يحدث أن تطوق هذه المدينة الوليدة فى نهاية الأمر بسور دائرى خاص بها . ومع ذلك فعليه لم يكن من المألوف أن يتخذ جميع سكان المدينة الدولة مساكنهم داخل أسوار

المدينة ، حتى وإن كانت المنطقة التى تحتلها من الصغر بحيث يسهل الوصول منها إلى جميع الأراضى الزراعية فيما حولها ، ثم إنه من الواضح أنه كان من المحال تحقيق ذلك فى حالة اتساع المنطقة وامتدادها .

كانت مدينة إسبرطة ، على سبيل المثال ، اتحاداً بين خمس قرى فى سهل لأكيدايمون Lacedaemon الفسيح ، الذى يقطعه نهر يوروتاس Eurotas عند الجزء الأوسط من مجراه . ويبدو أن أربعاً من هذه القرى قد اتلفت بالفعل فى مدينة واحدة ، غير أن القرية الخامسة وهى أموكلاى Amycle كانت مرتبطة ، نظراً لقدسية معبدها المحلى المقام للإله أبولو ، بموقعها الأسمى ، وكان على بعد ثلاثة أميال شمال الوادى . بيد أن سكان أموكلاى كانوا بحكم القانون مواطنين إسبرطيين يقفون على قدم المساواة ، ويتمتعون بالحقوق والواجبات ذاتها ، التى يتمتع بها إخوانهم المواطنون المقيمون فى مدينة إسبرطة . وعلى هذا القياس أيضاً كان كل ساكن وطنى فى أتিকা Attica ، وهى المنطقة التابعة للمدينة الدولة أثينا ، يعد مواطناً أثينياً ، بيد أن أتিকা كانت تمثل أيضاً منطقة شاسعة . فالمسافة بين رأس سونيوم Cape Sunium الواقعة فى طرف شبه جزيرة أتিকা وبين مدينة أثينا ، تستغرق يوماً كاملاً سيراً على الأقدام ، ويبلغ طولها نحو أربعين ميلاً . ومن المحتمل أن الأغلبية من مواطنى أثينا ظلوا مقيمين فى بعض عواصم الريف أو القرى خارج المدينة ، حتى عسكر سكان الريف ، عند نشوب الحرب الأثينية

البليونيزية العظمى عام ٤٣١ ق.م، بين «الأسوار الطويلة» التي أصبحت في ذلك التاريخ تصل ما بين المدينة وموانئها، اتقاء خطر الجيش البليونيزي المغير. ولا مراء في أن الأراضي التي كانت تتبع كل من أثينا وإسبرطة كانت بالغة الاتساع على نحو غير معهود. وظلت المدينتان الدولتان الواقعتان في جزيرة صقلية: سرقوسة Syracuse وأكراجاس Akragas (أجريجتوم Agrigentum) هما المدينتان الوحيدتان اللتان تضارعان في مساحتهما مساحتى إسبرطة وأثينا في جميع أنحاء العالم الهليني، حتى بدأت روما في التوسع في أراضيها بطريق الغزو، وذلك في القرن الرابع ق.م. ومع ذلك، فلإن عدم تطبيق أسس الإسكان المشترك القائمة على الوحدة الطبوغرافية، تطبيقاً كاملاً، في أثينا أو إسبرطة لم يكن غريباً أو شاذاً. فلم يكن جوهر الإسكان المشترك هو وحدة المساكن بل وحدة النفوس ومثل هذه الوحدة السيكلوجية لا يمكن أن تفتعل افتعالاً. ففي عام ٣٦٩ ق.م. ألف السياسى الطبيى إپاماینونδας Epameinondas بين المجتمعات القروية الواقعة في جنوب غرب أركاديا في مدينة دولة تحت اسم ميجالوبوليس Megalopolis (و «ميجالى بوليس megale polis» تعنى المدينة العظمى). وكان المقصود أن تكون الدولة الجديدة حاجزاً يقوم في وجه إسبرطة، وأن تكون المدينة الجديدة أيضاً بمثابة قلعة من قلاع الحدود. ورغبة في توفير القوة العددية الكافية من السكان لمدينة ميجالوبوليس، لضمان متانة دفاعها، حمل مؤسس المدينة، القرويين الأركاديين على

هجر أوطان أجدادهم فى الريف والإقامة داخل سور المدينة الدائرى الجديد، ولكن هذا الإجراء قوبل بالسخط والإعراض البالغين من جانب الأهلىن، حتى إنه رؤى أن الحكمة السياسية تقتضى - رغبة فى انتشار الدولة الجديدة من خطر تصدعها، وانقسامها من جديد إلى عناصرها الأصلية- أن يسمح لسكان عدد من القرى المنقولة بالعودة إلى أوطانهم الأولى على حين يحتفظون بحقوق مواطنتهم الجديدة لمدينة ميغالوبوليس. ويتضح لنا من هذا المثل، أن ثمن إنقاذ الوحدة السياسية للمدينة الدولة من خطر التفكك، كان هو التضحية ببعض مظاهر الوحدة الطبوغرافية .

ولسنا ندرى أين بدأت حركة التوحيد السكنى فى العالم الهلىنى ، ولكن غالب ظننا هو أنها بدأت فى الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى ، حيث وجد كل من اللاجئين الذين يتكلمون الأيونية واللاجئين الذين يتكلمون الأيولية بعد أن طردهم الغزاة المتحدثون بالدورية خارج بلاد اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية ، أن عليهم أن يشتروا ويصمدوا أمام الأعداء المتربصين بهم داخل القارة . وكان يتحتم على القادمين الجدد إذا ما أرادوا البقاء على قيد الحياة أن يتكاتفوا لتحصين قلاع مشتركة ، ولإقامة حكومات مشتركة بداخلها . وقد تناهى إلينا أن مؤسسى مثل هذه المدن الدول فى الأراضى الآسيوية كانوا ينحدرون عن أصول مختلفة متباينة كل التباين (والتسمية الجغرافية الآسيوية اليونانية أيوليس Aiolis تعنى «مختلف الألوان») . وكان من شأن جماعات البحارة الوافدين من

جهات متفرقة كثيرة فى بلاد اليونان الأوروبية أن تأتلف فى كثير من الأحيان لتكوين دولة جديدة فوق الأراضى الآسيوية . والتسمية التى تطلق وفق المصطلحات الدستورية الهلينية ، على الجزئيات الرئيسية التى تنقسم إليها المدينة الدولة هى «فولاي» Phylae . والمعنى الحرفى لهذا اللفظ هو «الأم» أو «الأجناس» . وكان من الطبيعى أن يطلق مثل هذا الاسم على جماعات ركاب السفن ذوى الجنسيات المختلفة الذين كانوا يتحدون فيما بينهم لتأسيس مدينة مثل فوكايا Phocaea أو كلوفون Clophon بيد أنه كان من السخف بالنسبة لأفراد عدة مجتمعات قروية ، كانت تعيش متجاورة فى ذات السهل الصغير فى صقع من أصقاع بلاد اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية منذ زمن لعله يضرب فى أعماق التاريخ ، أن يفكروا فى إطلاق هذا الاسم على بعضهم البعض عند اتحادهم فى سبيل تكوين مدينة دولة ، هذا إذا لم تكن هذه التسمية قد أصبحت مألوقة متداولة باعتبارها من بين المفردات الفنية المقررة لنظام المدينة الدولة . وتوحى هذه الاعتبارات بأنه من المحتمل أن يكون نظام المدينة الدولة فى العالم الهليني قد ظهر فى أول الأمر على الشاطئ الآسيوى لبحر إيجه ، وانتقل من هناك إلى بلاد اليونان الأوروبية .

وعلى أية حال ، فإن اتخاذ سكان السهل لهذا النظام السياسى مكنهم من التغلب على سكان الجبل فى معظم أنحاء هيلاس . وكان من شأن قيام المدن الدول أن نعم مواطنوها بالأمن والسلام . وما لبثت عادة

تقلد السيوف أن بطلت ، بل أصبح مجرد حمل عصاه للمشى يعد عملاً عدوانياً منبؤاً . ومن الأمثلة القديمة الشهيرة التى تصور الأحوال التى نشأت عن تطبيق نظام المدينة الدولة ، المثال الذى تقدمه إسبرطة . فإن لفظة إسبرطة تعنى فى اللغة اليونانية «الأرض المبدورة» . ففى حوض نهر يوروتاس Eurotas ، بلغ اندحار سكان الجبل وانكسارهم أمام سكان السهل درجة استطاع معها سكان السهل أن يقيموا مدينتهم فى الحقول العارية المنبسطة . ولم يكن لمدينة إسبرطة سور يحوطها أو قلعة تحميها . وكان ضمان سلامتها هو التفوق العسكرى الذى كانت تتمتع به القوات الموحدة التابعة للقرى الخمس المؤتلفة فى هذا الوادى . وفى الوقت ذاته يدلنا تاريخ كنعان المعاصر أن نتيجة الصراع الذى قام فى لأكيديمون Lacedaemon (لاكونيا Laconia) بين الإسبرطيين وسكان الجبل المحيطين بهم ، كانت مظنة شك وقضية غير مسلم بها . لقد كانت كنعان تمثل بالفعل عالماً من المدن الدول قبل أن تقع الهجرة الجماعية Völker wanderung ، أما بعد هذه الهجرة فقد صمد نظام المدينة الدولة على طول الشاطئ . ومن ناحية أخرى ، فإن الصراع الذى نشب فى الداخل بين سكان السهل وسكان الجبل خلال العصر المظلم قد انتهى كما رأينا باندحار سكان السهل ، أما الاتحاد الذى تم بين مجتمعى سكان الجبل الظافرين ، وهما قبيلتا إسرائيل ويهوذا ، فإنما كان فصلاً متأخراً من فصول القصة ، له ما يقابله فى التاريخ الهلنى فيما

حدث من اتحاد مجتمعات سكان الجبل فى أركاديا Arcadia فى نهاية الأمر .

وكان من أثر انتصار سكان السهل على سكان الجبل فى معظم أنحاء هيلاس أن توطد النظام وعلت كلمة القانون فى حوض بحر إيجه كما كان الحال فى القديم ، بعد أن كانا قد تزعزا فى أول الأمر نتيجة لانتزاع الموكنيين للسيادة البحرية من أيدي الميناويين ، ثم قضى عليهما كلية فى النهاية حين انهارت قوة الأخيين البحرية بدورها . وكان هذا الانتصار هو الخطوة الأولى فى سبيل بناء حضارة جديدة . وكان خطوة عسيرة ، مهد الطريق إليها بابتكار نظام المدينة الدولة . وكان من الطبيعى أن ترتفع مكانة المنظمة التى أدت هذه الخدمة الاجتماعية الجليلة وأن تحظى بالشكر والامتنان . وليس أصدق من قول أرسطو : «لقد جاءت المدينة الدولة إلى الوجود لكى تجعل الحياة ممكنة» . بيد أن كل شيء ذا قيمة ، يجب أن يبتاع بثمن .

وكان جانب من الثمن الذى دفع من أجل إعادة توطيد النظام من جديد فى حوض بحر إيجه هو خلق حالة من الظلم الاجتماعى . فقد بدأت معظم المدن الدول الهلينية - وتعد أثينا استثناء بارزاً لهذه القاعدة- حياتها وهى ترزح تحت عبء انقسام شعبها إلى جماعتين إحداهما تمثل المرتبة الأولى من المواطنين وتعيش داخل المدينة على دخل الأراضى الزراعية المجاورة لها ، وأخرى لا تحتل فى البناء الاجتماعى غير الأطراف ويمثلها المواطنون من الدرجة الثانية وهم سلالة سكان الجبل

المقهورين ، وقد كان هذا الانقسام فى المجتمع مصدراً لا ينضب له معين من مصادر الصراع الاجتماعى الذى تلا ذلك . ولقد عاملت إسبرطة المدينة الدولة المجتمعات المغلوبة من سكان الجبل المحيطين بها فى لاكيديمون معاملة بلغت حداً غير معهود من السخاء والحكمة . فقد سمحت لهؤلاء التابعين Perioeci بالاحتفاظ بحكمهم الذاتى فى مدن خاصة بهم كانت صوراً مصغرة من المدن الدول . وكان واجبهم الأول تجاه ساداتهم هو الانخراط فى سلك القوات اللاكيديمونية الموحدة وقت الحرب . وعند ذلك كانوا يلحقون بالفرق ذاتها التى كان ينتظم بها المواطنون الإسبرطيون ، ولم يظهر قط خلال تاريخ الجيش الإسبرطى جميعه من بدايته حتى نهايته ، ما يوحى بأن الجندى اللاكيديمونى غير الإسبرطى كان يقل عن أخيه الإسبرطى فى السلاح ثباتاً أو استبسالاً فإنه عندما غزت إسبرطة السهل الساحلى لحوض نهر يوروتاس ، عمدت إلى معاملة الشعوب المغلوبة هناك بصرامة وقسوة لم يكونا معهودين فى تلك المرحلة من مراحل التاريخ الهلنى ، وكان ينظر إلى هؤلاء العبيد (واسمهم باليونانية Heilotes وتعنى «أسرى الحرب» أو «سكان المستنقعات») على أنهم قد أهدروا حقوقهم الإنسانية ومن ثم حقت عليهم العبودية .

وثمة جانب آخر من ثمن استعادة النظام ، يستدل عليه مما جاء على لسان الفيلسوف هيراقليطس من أفسوس Heracleitus of Ephesus الذى عاش فى أوائل القرن الخامس ق.م . قال هيراقليطس : «الحرب

أصل كل شئ» . ولم يكن يفكر بالأسلوب السياسى بل فى النواحى المتعلقة بشئون الكون ، كما كان يقصد فى هذا النص المعنى المجازى لكلمة «حرب» . بيد أن مآثره هذه صدقت بكل حذافيرها على الطريقة التى أعيد بها توطيد النظام من جديد خلال العصر المظلم فى التاريخ الهلينى . فانتصار سكان السهل على سكان الجبل أحرزته القوة العسكرية ، وأصبحت الحرب - وهى الوسيلة التى اتخذت لتحقيق هذه الخطوة الأولى من خطوات تقدم الحضارة الهلينية - ركناً أساسياً ، كالمدينة الدولة ، من أركان الحياة الهلينية . وكان هذا التزاوج المبكر بين الحضارة والحرب فى التاريخ الهلينى نذير شؤم ، ذلك لأن النظام الجديد - على خلاف النظام القديم - كان يقوم على أساس من وجود عدد من المراكز المحلية ، المستقلة استقلالاً سياسياً عن بعضها البعض ولذا فإنها قد تقع فى أسر من جراء ذلك فى صراع الواحدة مع الأخرى . لقد وطدت قوة مينوس Minos البحرية الأمن فى جميع شواطئ بحر إيجه وجزره ، كما قامت خليفتها وهى القوة الآخية البحرية بتقديم هذه الخدمة العامة العالمية ذاتها بدرجة ما . ولكن مثل هذا العامل الجوهري فى توطيد السلام ، كان يعوز عالم المدن الدول الهلينية الجديد الذى دعت إلى وجوده الحرب التى دارت رحاها بين سكان الجبل وسكان السهل .

وطبقت قاعدة الحرب التى استخدمت لحل أولى المشكلات التى صادفت المجتمع الهلينى ، مرة أخرى لحل المشكلة التالية التى ابتلى بها

الهليينون نتيجة للحل الذى أوجدوه للمشكلة الاولى . فإن استعادة سيادة القانون وتوطيد النظام الذى تم فى حوض بحر إيجه ، وكان الفضل فيه يعود إلى قيام نظام المدينة الدولة ، قد أتاح للسكان فرصة الزيادة فى العدد إلى ما يتجاوز حدود الموارد الإقليمية . وقد رأينا كيف أن البناء الجيولوجى للمنطقة قد قرر هذه الحدود فى صرامة غير معهودة . وهكذا عوقب الهليينون على نجاحهم فى اتخاذ الخطوة الاولى فى سبيل التمدن . إذ وجدوا أنفسهم خلال القرن الثامن ق.م . حيال أمرين : إما أن يموتوا جوعاً وإما أن يطلقوا الفائض من السكان إلى ما وراء البحار للاستحواذ على أراض زراعية جديدة بقوة السلاح . وثبت تفوق الحملات المنظمة من «الفلاحين المهيئين للقتال» الذين استطاعت مدن هيلاس أن تبعث بهم إلى البحر على الشعوب الوطنية المتخلفة نسبياً التى تعيش على شواطئ شمال غرب اليونان وفى «ظاهر قدم» و «أصبع» إيطاليا، وجزيرة صقلية، والحزام الأخضر عند قيروان Cyrenaica وشواطئ هليسيون Hellespont وبروبونتيس Propontis والبوسفور، والبحر الأسود، وحقق العالم الهلينى بذلك خلال فترة لا تتجاوز القرنين إلا قليلاً (تمتد من الربع الثالث للقرن الثامن ق.م . إلى الربع الأخير للقرن السادس) حركة التوسع البحرى الهائل التى تناولنا خطوطها العريضة فى الفصل السابق .

وكانت الشعوب الهلينية التى لعبت الأدوار الرئيسية فى تنظيم حركة الهجرة الجماعية هذه إلى ما وراء البحار هى : الأخيون Achaeans

واللوكريون Locrians الذين كانوا أهم المستعمرين «لظاهر قدم» و«أصبح» إيطاليا ، والكورنثيون Corinthians الذين استعمروا شاطئ شمال غرب اليونان ، بما فيه جزيرة كوركرا Corcyra (كورفو Corfu) ذات الأهمية الاستراتيجية، وأنسوا مدينة سرقوسة Syracuse فى صقلية، والميجاريون Megarians الذين يجارون الكورنثيين فى الخليج المسمى باسمهم ، وقد أفاد هؤلاء من امتلاكهم لشاطئيه بتأسيس المستعمرات فى صقلية من ناحية وشواطئ البوسفور والبحر الأسود من ناحية أخرى ، والخلكيديون Chalcidians الذين مكن لهم موقع مدينتهم على الأوريبوس Euripus (وهى قناة ضيقة بين جزيرة يوبويا Euboea وأراضى اليونان الوسطى) من إرسال مستعمرين إلى صقلية فى أحد الاتجاهين ، كما جعل فى وسعهم أن يقيموا فى الاتجاه الآخر مدينة تشبه خلكيدونية بكل تفاصيلها وذلك على الشاطئ الشمالى لبحر إيجه وأهل ميليتوس Milesians فى أيونيا Ionia الذين لعبوا ، فى البحر الأسود وفى البحار الضيقة المفضية إليه ، الدور الرئيسى نفسه الذى لعبه الكورنثيون فى الغرب ، والفوكيون Phocaeans وهم الأيونيون المغامرون الذين أسسوا ماسيليا Massilia (مرسيليا Marseilles) على الريفيرا الفرنسية. أما عن مجموعة المستعمرات الهلينية فى القيروان فقد أقامها هناك رواد شجعان قدموا من جزيرة ثيرا Thera (سانتورين Sant-orin الصغيرة فى بحر إيجه ، وهى تمثل شذرة من حطام بركان انهار وغمرته المياه .

وكان من بين هذه المستعمرات مدينة هلينية واحدة على جانب عظيم من الأهمية ، تنسب إلى إسبرطة . فقد قامت مدينة تاراس Taras (تارتوم Tarentum) - التى تحتل موقعاً طيباً عند مرفأ طبيعى فى بطن كعب إيطاليا - بإحياء ذكرى مؤسسيها على اعتبار أنهم هم الإسبرطيون البارثينيون Parthenae (أبناء الأمهات غير المتزوجات) . ويحكى أن جميع المواطنين الإسبرطيين الذكور الذين كانوا فى سن التجنيد ، قد احتجزوا فى الميدان إبان الحرب التى انتهت باحتلال الإسبرطيين لمسينا messene مدة طويلة من الزمن حتى إن الجيل الناشئ من الفتيات الإسبرطيات عمدن بعد أن عيل صبرهن إلى حمل الأطفال سفاحاً . ولم تشأ الحكومة اللاكليمونية الاعتراف بهؤلاء الأطفال الذين ولدوا بما لا يتفق وسنن الزواج المشروع ، باعتبارهم مواطنين إسبرطيين ، وعندما قرر هؤلاء ، ساخطين ، الهجرة بكامل هيتهم ، شيعتهم الحكومة الإسبرطية غير آسفة . وقد تدخل قصة البارثينيين فى عداد الأساطير ، غير أنه من الثابت أن تاراس كانت المستعمرة الوحيدة التى أسستها إسبرطة فى تاريخها الطويل ، كما أنه لاشك أيضاً فى أن السبيل الآخر الذى طرقة إسبرطة لحل المشكلة الهلينية المشتركة المتعلقة بزيادة عدد السكان كان سيلاً مخالفاً انفردت به وحدها . فلإنها لم تظفر بالأراضى الزراعية الجديدة التى تحتاج إليها من البلاد الواقعة فيما وراء البحار ، بل من جارتها اللاتى تناخمنها فى البليسونيز ، كما لم تعتمد فى زراعة

الحقول المتزعة على سواعد مواطنيها ، بل على كد سكانها وملاكها
القدامى بعد أن وضعتهم فى مرتبة الفلاحين العبيد ، وهى المرتبة التى
فرضتها من قبل على سكان وادى يرروتاس الأدنى .

ربما لم يكن حل إسبرطة لهذه المشكلة الشاملة بأكثر مجافاة للقواعد
الخلقية من المسلك الطبيعى الذى يقضى بالاستيلاء على أرض فيما وراء
البحار ، بيد أنه قد ثبت أن هذا الحل كان أصعب من غيره إلى حد بعيد
فى مجال التنفيذ . لقد كانت هناك مدن استعمارية مثل تاراس وسرقوسة
وأكراجاس Akr gas وهيراكليا بونتيكا Heraclea Pontica ، تضم
سكاناً من الرعايا يقارب عددهم عدد السكان الذين كانوا يخضعون
لإسبرطة فى مسينا Messene ، وقد زاد سخط هؤلاء الرعايا أيضاً . فقد
تلاحقت ثورات المسابين Messapians المتهورين ضد تاراس ، كما
أثار الصقليون المغلوبون المتاعب فى وجه سرقوسة . بيد أن هؤلاء
الرعايا التابعين ، فيما وراء البحار ، للمدن الهلينية الاستعمارية ، قد
استخلصوا على أقل تقدير بعض المنافع الثقافية فى مقابل خسارتهم
لحريتهم السياسية والاقتصادية . لقد أقحمت عليهم إحدى الحضارات
التي ما لبثوا أن اعترفوا بسموها على حضارتهم ، ومهد ذلك السبيل إلى
تمثلهم فى النهاية بالقاهرين لهم . ولكنه لم تكن ثمة منفعة من هذا
القبيل يمكن أن يجنيها المسينيون من وراء هزيمتهم على يد إسبرطة .
كما لم يقنع هؤلاء قط بمصيرهم . وأصبح حالهم فى العالم الهلنى
كحال البولنديين فى أوروبا ، لا تسنح لهم فرصة للثورة إلا اغتتموها ،

كما لم يسمحوا لأعمال القمع قط أن تثبط عزائمهم أو تضعف من روحهم المعنوية . وكان على الإسبرطيين بعد أن غزوا مسينا فى القرن الثامن بعد حرب طويلة شاقة ، أن يخوضوا غمار حرب أشد هولا فى القرن السابع ، لقمع الثورة الأولى من سلسلة الثورات المسيية الطويلة . وعندما أعيد قهر الميسينيين من جديد ، كان على الإسبرطيين أيضاً القيام بالمهمة التى لا تنتهى قط ألا وهى ضمان رضوخهم .

وكانت اللعنة التى حلت بإسبرطة من جراء غزو مسينا تدعو إلى السخرية . فقد تحتم على الإسبرطيين ، كيما يحتفظون بالمسينيين المغلولين عبيداً زراعيين ، أن يخضعوا هم أنفسهم لعبودية الخدمة العسكرية الكاملة التى تبدأ من سن السابعة إلى سن الستين . وهكذا فإنهم لم يحرروا أنفسهم من سخرة العمل بأيديهم فى الأرض ، إلا لى ينفقوا حياتهم فى ميادين التدريب وبين جدران الثكنات . وكانت إسبرطة هى المدينة الدولة الهلنية الأولى التى طبقت النظام الديمقراطي . فقد أدمجت النبلاء القدامى فى عامة الشعب . وأصبح جميع الذكور الإسبرطيين «نظراء» لبعضهم البعض . وخصصت لكل جندى من المواطنين الإسبرطيين حصة من الأراضى المسيية ، مع ما يخصها من العبيد ، لى توفر له النصيب العيى الذى يجب أن يسهم به فى ميس الجند . وقد أصبح ميس الجند هو الوحدة التى يقوم على أساسها البناء العسكرى الإسبرطى .

ويقال إن مبتدع هذه الطريقة الغريبة من الحياة جماعياً (agôgê) ،
وهى الحياة التى انعدمت فيها شخصيات الإسبرطين القاهرين لمينا ،
وناهيك عن تعذر استمتاعهم بوقتهم أو ممتلكاتهم أو أسرهم ، هو
ليكورجوس Lycurgus . بيد أن ليكورجوس لم يكن يمثل شخصية
تاريخية . إذ كان إلهاً ، كما يظهر فى الأساطير اليونانية على أنه ملك
من ملوك تراقيا ، وقع ذات مرة فى شرك الإله ديونيسوس Dionysus .
ولم يكن ذلك النظام الذى يسمى بنظام ليكورجوس ، تخطيطاً وضعه
مصلح اجتماعى ، بل لقد جاء نتيجة لمحاولة أرغم عليها الإسبرطيون
لكى يوائموا بين حياتهم الإسرطية والمطالب الفادحة التى اقتضتها سيادة
إسرطة على مينا . لم يكن الشاعر الغنائى ألكمان Alcman الذى
عاش فى القرن السابع يقل فحولة عن معاصريه فى المدن الهلينية
الأخرى ، بيد أنه لم يظهر له من يخلفه فى إسبرطة بالذات . ويوسع
المرء أن يقرأ هذه القصة ذاتها ، كما لو كانت تمثل تمثيلاً صامتاً إذا ما
طاف فى إسبرطة الحديثة بالمتحف المحلى . ويتبين المرء من
معروضات القرن السابع والقرن السادس ، أن الإسبرطين استطاعوا
الوقوف على قدم المساواة مع معاصريهم فى هيلاس فى فنون طلاء
الزهريات ونحت العاج . بيد أن هذه الفنون لا تلبث أن تذوى قرابة نهاية
القرن السادس ، ومن ثم فإن معروضات الفترة التالية لا تعدو لوحات
بارزة ، لا تبلغ درجة كبيرة من الإتقان ، يرجع تاريخها إلى ما بعد القرن

الثانى ق.م. وتتفق فترة القرون الثلاثة ونصف القرن العجفاء هذه مع العصر الذى كان نظام ليكوجوس معمولاً به فى إسبرطة ، كما تتفق والفترة التى كانت فيها الفنون فى أوج ازدهارها فى بقية أجزاء هيلاس . كان هذا هو المصير الذى جلبته إسبرطة على نفسها لأنفرادها باتخاذ هذا المسلك الغريب .

وقد وضعت الحكومة اللاكيديمونية عامدة حداً لاشتراك إسبرطة فى الحياة العامة فى هيلاس بأن منعت «النظراء» الإسبرطيين من الدخول فى مسابقات الاحتفالات البانهلينية . وكانت تخشى أن تضار الروح العسكرية لدى الجندى إذا ما سمح له بأن ينال شهرة شخصية باعتباره بطلاً رياضياً دولياً . غير أن هذا الشرط لم يطبق على السيدات الإسبرطيات . فكان من حق الإسبرطية الوارثة أن تنفق ثروتها لإعداد فريق للدخول فى سباق العربات التى تجرها أربعة خيول . وكانت النسوة الإسبرطيات يخدمن نظام الحكم بالإسهام بالسنتين السليطة فى الاحتفاظ بالمستوى اللائق من التدريب بين معشر الرجال لديهن ، الذى كان مثقلاً بالأعباء والواجبات بصورة غير معهودة . ومن القرن السادس إلى القرن الرابع ق.م. كانت النسوة الإسبرطيات هن الوحيدات المتحررات فى جميع أنحاء هيلاس .

الفصل الرابع

تحرير المدينة الدولة للفرد

كان التغيير غير المحمود الذى طرأ على الروح السائدة فى إسبرطة قبل نهاية القرن السادس ق.م. نذير شر بمستقبل المدن الدول الهلينية ، وتغيير شر بمستقبل الحضارة الهلينية ذاتها . فقد عمد الهلينيون إلى عبادة مدتهم على اعتبار أنها آلهة ، بدلاً من أن ينظروا إليها على أنها مجرد مرقق عام ، وذهب الأمر فى النهاية إلى أن أصبحت المطالب التى فرضتها المدن الدول المؤهلة على مواطنيها تستلزم من التضحيات ما استلزمه الصنم الهندى جوجرنوت Juggernaut من عبدة الجوجرنوت ، الأمر الذى ساق هذه المنظمة إلى نهايتها المحتومة . فإن المدن الدول الهلينية ، قد أثارت فى النهاية - كما فعل الإله المهيّب كنوسوس Kno-sos حين عمد إلى التهام أبنائه - نائرة أتباعها الذين عانوا من الويلات زمناً طويلاً ، مما دفعهم إلى العصيان والثورة ضدها .

وعلى أية حال ، فقد كان هذا التطور الذى طرأ على إسبرطة تطوراً مبكراً سابقاً لأوانه ، ولم تكن السمة المميزة لتاريخ الحضارة الهلينية خلال عصر التوسع فيما وراء البحار ، هى تلك الصبغة العسكرية التى اصطبغت بها الحياة الإسبرطية فى نهاية عهدها ، بل كانت ذلك الازدهار الذى تسنى قبل ذلك للفرن الإسبرطى ، رغم أنه فى هذا العصر ذاته ، كانت مطالب المدن الدول الهلينية ، شأنها شأن جميع المنظمات التى تسفر عن نتائج فعالة ، شديدة الوطأة على كواهل المواطنين . كانت هذه تقضى بطاعة القوانين المحلية ، وبالخضوع للتدريب العسكرى وقواعده الصارمة ، وتتطلب استعداد الفرد للتضحية بحياته فى ميدان القتال من أجل دولته ضد خصومها .

وقد يعنى ذلك القتال دفاعاً عن قضية خاسرة غاية الخسران . فقد كان الشاعر الآثينى سوفوكليس Sophocles من بين قواد الحملة الآثينية التى جردت لإعادة غزو ساموس عام ٤٣٩ ق.م. ، كما اشترك الفيلسوف الآثينى سقراط فى القوة التى أعادت غزو بوتيدايا Potidaea فى بداية الحرب الآثينية البليبونيزية العظمى التى وقعت بين عامى ٤٣١ ، ٤٠٤ ق.م. وقد أخضع الآثينيون أهل ساموس وبوتيدايا ظلماً وعدواناً ، ومن ثم «كان هؤلاء على حق فى الكفاح من أجل حريتهم» . وإنه لما يسئ إلى مكانة هذه المنظمة الأولى من منظمات الحضارة الهلينية أن يضطر عبقرىان فاضلان نيبلان - وهما بسبيل القيام بالواجبات العادية الملقاة

على عاتق المواطن - إلى القتال من أجل بلدهما في وقت لم يكن فيه هذا البلد في جانب الحق ، وكانت مثل هذه التجربة تنذر بوقوع صراع بين الدولة والضمير . وكان هذا في الواقع هو موضوع مأساة «أنتيجونى» Antigone التى أخرجت قبيل السنة التى اشترك خلالها المؤلف فى خدمة بلاده فى حربها ضد ساموس . وتجلب أنتيجونى - بطلة هذه المأساة - على نفسها ، عامدة عقوبة الإعدام بأن تعصى أوامر الحكومة التى كانت تقضى بأن تمتنع عن دفن جثة أخيها ، الذى اتهم بارتكاب جريمة شنعاء ضد أمته وهى جريمة الخيانة العظمى . وتؤثر أنتيجونى الموت على أن تنكر لإيمانها بأن واجبها فى دفن جثة أخيها بطريقة كريمة أحق بالطاعة من واجبها الذى يقضى بالإذعان للسلطات العامة . وفى سنة ٣٩٩ ق.م. أى بعد مضى اثنين وأربعين عاماً على هذا التاريخ، اتخذ سقراط هو نفسه الموقف ذاته الذى وقفه سوفوكليس فى أثينا فى شخص بطلته . ومع ذلك فيمكن القول بوجه عام إنه حتى سنة ٤٣١ ق.م. المشثومة ، كانت الخدمات التى تسديها المدن الدول الهلينية - باستثناء إسبرطة - إلى مواطنيها ، سواء بصفة فردية أو بصفة جماعية ، تفوق بالفعل الواجبات التى فرضتها عليهم . فإما المدينة الدولة « بعد أن ساعدت الهلنيين على حل المشكلتين المتتاليتين المتعلقةتين بالفوضى والضغط ، لم تجعل فى مقدورهم «تنسم الحياة» فحسب ، بل «وتسمها عن سعة ووفرة» . إذ تمضى الفقرة التى اقتبسناها فى الفصل السابق من

كتاب «السياسة» لأرسطو ، والتي تقول : «جاءت المدنية الدولة إلى الوجود ، لكي تجعل الحياة ممكنة» فتذكر أن «علة وجود هذا النظام هو أنه يجعل الحياة جديرة بأن يحياها الناس» . ولو أن أرسطو كان يكتب قبل التاريخ الذي سطر فيه عبارته الأخيرة بنحو مائة عام لكان قد وجد من الحقائق ما يثبت أيضاً صحة ما ذهب إليه . فالحقيقة أن المدن الدول الهلينية قد أتاحت بالفعل لأفراد الجنس البشرى ، طوال مدة لا تقل عن ثلاثة قرون تتم، بعام ٤٣١ ق.م. مجال الانطلاق والحافز علم الانطلاق أيضاً .

أتاحت للأفراد الانطلاق بأن حررتهم من قيود «عبادة الطبيعة» ، وعلى رأسها تلك القيود الشديدة الوطأة التي تتمثل في عبادة «الطبيعة» في صورة الأسرة . وحياة الأسرة إنما تغلغل البشرية بقيود «الطبيعة» غير الإنسانية . وفي أحضان الأسرة ، يفقد بنو البشر شخصياتهم المستقلة التي تتميز بفكرها وإرادتها الخاصة ، فهم لا يعلنون سوى أفرع شجرة أسرية ، لا تمثل بدورها غير فرع آخر من شجرة الحياة المتطورة التي تضرب جذورها في أغوار النفس غير الواعية .

وفي الثلاثية التي كتبها الشاعر المسرحي الآثيني أيسخيلوس Aeschylus والتي تدور حول قصة «آل أترئوس» Atreus - وقد أخرجت لأول مرة عام ٤٥٨ ق.م. تقف على تصوير درامي للصراع المرير الذي خاضه أحد الأفراد من أجل الخلاص من المأزق النفسى الذى جبرته إليه واجباته العائلية ، وكيف أنه تحرر من هذه المحنة

العصية التي نزلت به - دون وجه حق - عن طريق تدخل إلهي كريم من جانب مدينة دولة هيت لمساعدته . وتتلور القصة حول أسرة عمد أفرادها إلى قتل ذوى قريابهم ، وكيف أنه قد ترتب على ذلك أن وجد هؤلاء الذين كبت لهم الحياة ، وجدوا أنفسهم حيال التزامات جبرية فادحة لا سبيل إلى التوفيق بينها . فإن الإله أبولو يأمر أوريستيس Orestes بأن يتهم لموت أبيه أجاممنون Agamemnon بذبح قاتلة أبيه كليتا بمنسترا Clytaemnestra ، زوج أجاممنون وأم أوريستيس ، وعند ذلك تضطهد إلهات الانتقام Erinyes أوريستيس ، دون رحمة أو شفقة لأنه أزهق أشد النساء قريى إليه . وإلهات الانتقام هن بمثابة تشخيص أسطوري لشعور الإنسان بالذنب . وفى داخل الحلقة المفرغة من الواجبات العائلية المتعارضة المتناقضة ، لا يجد أوريستيس أمامه من سبل إلى الخلاص من محته المروعة ، برغم أن المنطق والعقل كانا يقضيان بأنه لم يكن مجرماً أتماً ، بل ضحية . ويتم له الخلاص على يد الإلهة أثينا Athènè التي تعد تشخيصاً أسطورياً للمدينة الدولة الأثينية ، إذ تمكن أثينا من إقناع إلهات الانتقام بقبول الحكم الذى تقضى به هيئة من المحلفين الأثينيين ، وعندما تعادل أصوات المحلفين بين الجانبين المتخاصمين تدلى أثينا - باعتبارها رئيسة المحكمة - بصورتها المرجح مؤثرة جانب الرحمة والعدل .

كان من شأن قانون المدينة الدولة ، بل والخدمة العسكرية فى ظل المدينة الدولة ، أن حررا الأفراد بالفعل من عبوديتهم القديمة للأسرة ،

ولكن ثمن ذلك كان دخولهم فى عبودية من نوع جديد هى العبودية للمدينة الدولة . وقبل أن يحل عهد أيسخيلوس بأثينا كانت « المدينة الدولة » قد قضت فى هذه المسألة لصالح الفرد ، غير أن العهد بذلك لم يكن قد تقادم إلى الحد الذى يجعل من الموضوع الذى دارت حوله مسرحية أوريسيتيا Oresteia موضوعاً مبتذلاً أو غفلاً من المعنى بالنسبة لجمهور النظارة الأثينيين فى القرن الخامس . وفى لاتيوم Latium الواقعة على الحافة الغربية لعالم هلىنى مطرد الاتساع ، خاضت الأسرة غمار معركة أشد هولاً عند مؤخرتها دفاعاً عن حقوقها البدائية الأولى . ولقد احتفظ رب الأسرة خلال تاريخ القانون الرومانى الطويل « بكثير من حقوقه الاستبدادية القديمة على روجه وأبنائه البالغين حتى فى ظل مجموعة القوانين المعدلة الأخيرة التى أمر بوضعها الإمبراطور جستينيان Justinian فى القرن السادس من العهد المسيحى » ، أى بعد أن تعرض القانون الرومانى طوال سبعة قرون للتأثير الإنسانى للفلسفة الهلينية وطوال قرنين للتأثير المذهب الرقيق للديانة المسيحية . وخلال الجانب الأعظم من الرحلة التى قطعها التاريخ الرومانى ، كان المواطن الرومانى البالغ من الذكور يعد فى واقع الأمر عبداً لأبيه إلى اليوم الذى يموت فيه الأب ، بيد أن ثمة موضعاً واحداً كان هذا الابن العبد يعتبر فيه ، وذلك منذ تأسيس الدولة الرومانية ، من الأحرار وهذا الموضع هو المعسكر . فعندما كان يجند كل من الأب والابن ، يصبح الابن نظير أبيه باعتبارهما أخوين فى السلاح فى خدمة الدولة .

وبالإضافة إلى أن المدينة الدولة قد أتاحت للأفراد مجال الانطلاق، فإنها أتاحت لهم كذلك الحافز عليه . فهي عند تحريرها لهم من عبوديتهم القديمة العهد لأسرهم ، لم تحاول أن تمحل حياتهم وتجديها بأن تحرمهم من مشاعر الألفة التي هي مصدر سحر الحياة بين أحضان الأسرة . كانت المدن الدول في حد ذاتها مجتمعات تبلغ من الصغر الدرجة التي تجعل في إمكانها ، إلى حد بعيد ، أن تصرف شؤونها - كما تفعل الأسرة - عن طريق الاتصال المباشر بين أفرادها . وبطبيعة الحال ، فإنه مهما تناهت حدود الحياة السياسية في الصغر ، فالقانون يبدو جامداً جافاً لا علاقة له بالأشخاص إذا ما قورن بالعرف السائد بين أفراد الأسرة ، وهكذا تبدو الحرب أيضاً إذا ما قورنت بالأحقاد والمنازعات الأسرية . ومن ناحية أخرى فإن المدينة الدولة الهلينية ، كانت قبل العصر الإمبراطوري تتمتع في العلاقات بين أفرادها - على خلاف ما اتسمت به العلاقات الإنسانية في الإمبراطورية الرومانية أو ما تظهر عليه هذه العلاقات في الدول الغريبة الحديثة من جمود شديد - بمثل تلك الألفة ومشاعر القربى التي تنشأ بين أفراد أسرة كبيرة بعض الشيء . ويشير أرسطو إلى أنه لا ينبغي أن يزيد جمهور المواطنين على الحد الذي يمكن فيه «لصوت مناد ليس لديه مكبر للصوت» (Kèryx) (mè stentoreios) أن يبلغ مسامع الجماعة كلها . ومن الحقائق التاريخية الثابتة أن قلة من المدن الدول الهلينية - وربما لم تكن هذه تعدو اثنا

وسرقوسة وأكراجاس Akragas (أجريجنتوم Agrigentum) ثم روما في نهاية الامر - كانت تضم جماهير من المواطنين تتجاوز الحد الذي رسمه أرسطو . ولم تكن إسبرطة تشذ عن هذه القاعدة ، فإنه على الرغم من أن أراضيها أصبحت تشغل بعد غزوها لمسينا ما يقرب من خمس مساحة شبه جزيرة البليبونيز ، إلا أن جميع سكانها فيما عدا نسبة ضئيلة منهم كانوا من التابعين Perioeci أو أسرى الحرب Heilotes . ويقال إن الأقلية المسيطرة من المواطنين الإسبرطيين المذكور البالغين الذين كانوا في سن التجنيد ، كانت تقدر بخمسة آلاف جندي وقت غزو الإمبراطور الفارسي كسر كسيس Xerxes لبلاد اليونان الواقعة في القارة الأوربية (٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م.) ، ولكنه يبدو أن هذا التقدير إنما ينطوى على بعض المغالاة ، لأن عدد الجنود الإسبرطيين لم يكن يتجاوز فيما يظهر ٣٥٠٠ جندي وقت أن خرجت إسبرطة مع أثينا للحرب عام ٤٣١ ق.م.

وليس أدل على عظم كل من مجال الانطلاق الجديد والحافز عليه ، اللذين أتاحتهما المدن الدول للأفراد في العالم الهليني في عصر توسعه فيما وراء البحار (من القرن الثامن إلى القرن السادس ق.م.) ، من تلك الأمجاد التي حققها في ذلك العصر بعض الأفراد الذين ذاع صيتهم في شتى ميادين العمل والنشاط . فظهر في ميدان الأدب شعراء من أمثال ميمرموس من كلوفون Mimnermus of Colophon وأرخيلوخوس من

باروس Archilochus of Paros وألكايوس Alcaeus وسافو Sappho من لسبوس Lesbos . وكانت الموضوعات التى عالجوها تدور حول تجارب الفرد عندما يبدأ فى الشعور بذاتيته ، أى حول لذات الجنس والخمر وعواقبهما ، وحول الولاء والأحقاد فى ميدان السياسة ، وإن كان يأتى على رأس هذه الموضوعات «مصير الإنسان القانى فى عظمته وحقارته» . وقد استطاع أرخيلوخوس أن يحرر نفسه تحريراً كاملاً بحيث وجد من نفسه القدرة على أن يتباهى بقشله فى أداء واجبه الوطنى فى ميدان القتال . وحدث ذلك إبان حرب عدوانية جائرة كانت تخوضها باروس ضد الوطنيين التراقين فى جزيرة ثاسوس Thasos فى شمال بحر إيجه ، حيث أفلت أرخيلوخوس ذات مرة من موت محقق بأن ألقى عنه درعه . وبدلاً من أن يخفى وجهه خجلاً ، راح يفاخر فى إحدى قصائده بمسلكه الذى لا يليق بشرف الجندي ، وإن الحقيقة الماثلة فى أن هذه القصيدة مازالت بين أيدينا حتى اليوم إنما تدلنا على أن هذا الشاعر وجد من بين معاصريه بعض من يشاركونه شعوره ويعطفون عليه . وفى ميدان الفكر ، كان هناك العلماء الطبيعيون الذين راحوا يتأملون طبيعة الكون المادية ؛ هل كانت المادة الأولية هى المناء أو مادة أخرى لا يمكن تجديدها أو كانت العقل ؟ كانت هذه هى المسألة التى ثار حولها النقاش بين ثاليس Thales وأناكسيماندر Anaximander وكلاهما من ميلينوس وبين أناكساجوراس من كلازوميناي Anaxagoras of Clazomenae .

هل كان الكون وحدة غير مميزة عديمة الحركة ؟ أو أنه كانت به تعلدية وتباين وحركة وإيقاع ؟ هل كان إيقاعه تغيير وفصل لعناصر متلمجة تختلف عن بعضها البعض من حيث النوع ؟ أو هل نشأت الصفات والأشكال الظاهرة أيضاً لجميع الأشياء المرتبة عن مطر أبدي يتألف من مئات الآلاف من الذرات المتظمة الشكل ؟ كان هذا هو موضوع النقاش بين زينون من إلبا Zeno of Elea وأمپدوكليس Empedocles من أكراجاس ولوكيپوس Leucippus من ميليتوس (؟) .

كما ظهرت هناك أيضاً أسماء شهيرة فى العلوم التطبيقية مثل : أمينياس الكورنثى Ameinias ، وهو أول هلىنى ضم سقناً تسير بقوة ثلاث طبقات من المجدفين ، وثيودوروس Theodorus من ساموس ، وهو أول هلىنى قام بصب قوالب من البرنز . بيد أن الهلىنيين لم يكونوا قط من بين الرواد الأوائل فى مضمار العلوم التطبيقية . فقد كانت هذه حرفة يحترفونها ، وامتد احتقارهم لها إلى معظم ضروب العمل اليدوى الأخرى فيما عدا الزراعة . فلم يهتموا مثلاً بفن طلاء الزهريات ، وهو الفن الذى يعتبر فى نظرنا أجمل ما تفتقت عنه عبقرتهم الفنية . كما أن أساتذة الفنون الجميلة العظام لم يكونوا يتمتعون بمكانة اجتماعية كبيرة ، ولم يشهد التاريخ الهلىنى ذلك الازدواج المشر بين العلوم التطبيقية والعلوم البحتة الذى كان العامل فى ازدهار هذين الميدانين فى العالم الغربى الحديث منذ القرن السابع من العهد المسيحى . كانت العلوم

الهلية منذ بداية التاريخ الهلنى حتى نهايته تميل إلى الناحية النظرية لا إلى الناحية التجريبية . فميادين الرياضيات والفلسفة والشعر كانت هى الميادين التى اطمأن إليها الهلنيون ولم يشعروا نحوها بغربة أو نفور .

ولا عجب أن أمجاد الهلنيين فى هذه الميادين خلال عصر التوسع الحضارى الهلنى فيما وراء البحار بلغت شأوا بعيداً ، حدا بهم إلى أن يرفعوا تلك المنظمة السياسية التى أطلقت العبقريّة الفرديّة من عقالها ، إلى مراتب الآلهة . وفى هذه الأثناء كانت عبادة قوة الإنسان الجماعية المجسّمة فى المدينة الدولة قد حلت فى واقع الأمر محل «الباشيون» الأوليمبى أو مجموعة الآلهة الأوليمبية باعتبارها الديانة الأولى للعالم الهلنى ، وإن لم يعلن عن ذلك صراحة أو يعترف به رسمياً . وكان المواطنون فى المدن الدول يعبدون مدنهم تحت قناع الآلهة القديمة (وكان بعضها من بين الآلهة الأوليمبية والبعض الآخر أقدم من هذه عهداً) التى كانت تجند للقيام بهذا الدور . وقد نجد من آن لآخر أن الإله المجد من الذكور . فاتخذ الكورنثيون الجوابون للبحار ، على سبيل المثال ؛ الإله بوسيدون Poseidon إله البحار الأوليمبى ، إلهاً حارساً لمدينتهم . بيد أن معظم المدن الدول ، كانت تمثلها إلهات حارسات ، فقد مثلت أثينا على سبيل المثال الإلهة «أثينا بوليوخوس» Athênè Poliüchus (أى أثينا حارسة المدينة) ، ومثلت إسبرطة الإلهة «أثاناخالكيأويكوس» Athànà Chalcioecus (أى سيدتنا سليلة البيت البرنزى) ، ومثلت

أيجينا Aegiuva الإلهة «أثانا أفايا» Athànà Aphaia ، ومثلت أرجوس Argos الإلهة هيرا Hera ، ومثلت أفسس الإلهة أرتميس Artemis وهلم جرا . وكانت الإلهة الحارسة تمثل القوة الجماعية للمواطنين الذكور فى المدينة الدولة . ويمكننا القول ، إذا ما تحدثنا بلغة علماء النفس الغربيين فى العصر الحديث ، بأن المواطنين إذ يعبدونها إنما كانوا يعبدون أرواحهم الخلاقة الجماعية . وكانت روح الكورنثيين المتجسدة هى أفروديت Aphrodite .

ولقد كانت المدينة الدولة أحق بالعبادة من الآلهة الأوليمبية التى شكلت على صورة البرابرة البشر ، وبشس حال النفس البشرية المتحررة ، إن هى لم تهتد إلى موضع حقيق بالعبادة على نحو أو آخر خارج نطاق ذاتها . كانت المدن الدول جديرة بأن تنال التكریم والتقديس من جانب مواطنيها ، نظراً لأنها قد أمدتهم بظروف اجتماعية حفزتهم على إبراز مواهبهم الكامنة . ولكن ، هل كان لمثل هذه الجماعة السياسية المحلية التى كانت تتربص بجاراتها ، وتتربص بها جاراتها ، أن تحظى بكل ذلك الولاء الذى طالبت به واستحوذت عليه ؟ وهل كانت قادرة فى واقع الأمر على أن تتيح للفرد المجال لإبراز أسمى قدراته ، وعلى أن تحفزه على أن يظهر أكرم ما فى نفسه ؟ هاتان هما المسألتان اللتان كان يتوقف عليهما مستقبل الحضارة الهلينية . وعلى خلاف حال الهلنيين أنفسهم خلال عصر التوسع فيما وراء البحار ، فإننا نعلم أى مستقبل كان

ينتظرهم ، وفى إمكاننا ، ونحن نحكم بالبصيرة التى تتأتى للمرء بعد وقوع الحادث المعنى أن نتبين خطأين جسيمين فى النظام الذى أودع فيه الهلينيون كل إمكانياتهم وأولوه عظيم ثقتهم .

كانت نقطة الضعف الجوهرية التى تكمن فى نظام المدن الدول فى العالم الهلنى هى كثرتها وتعددتها ، بدلاً من اقتصرها على مدينة واحدة . ولو أن تعداد بنى البشر فى العالم لم يكن يربو على الحد الأقصى الذى سنه أرسطو لعدد المواطنين الذين ينبغى أن تضمهم المدينة الدولة ، لكان من الممكن أن يوجد مثل هذا الشئ المعروف باسم «المدينة الدولة» ولأصبح هذا النظام السياسى أعظم النظم الإنسانية قاطبة . وبطبيعة الحال ، كان المجموع الكلى للسكان فى العالم الهلنى وحده ، دون أن ندخل فى حسابنا سكان البلاد المجاورة الأخرى ، يتجاوز فى واقع الأمر هذه الحدود إلى مدى بعيد ، حتى فى بداية تاريخ هذا العالم . وعلى ذلك فلم يكن هناك قط ذلك الشئ المعروف باسم «المدينة الدولة» ، فى واقع الحياة . فقد كانت هذه العبارة فى صيغتها المفردة شيئاً معنوياً خيالياً مجرداً . والواقع أن «المدينة الدولة» ظلت دائماً تحمل صيغة الجمع حتى الفصل الأخير من التاريخ الهلنى ، عندما جعلت روما من نفسها المدينة الدولة للنصف الغربى من عالم هلىنى اتسعت رقعته أيما اتساع ، بأن محت بعض شقيقاتها من الوجود وهبطت بالبقية الباقية منها إلى مرتبة المدن الإقليمية . وحتى ذلك التاريخ -

وكانت آنذاك فرصة إنقاذ هذه المنظمة قد أفلتت كلية - قامت هناك مدن دول ذات سيادة ، احتدمت بينها حروب لا تنقطع . كانت كل دولة من المدن الدول الناشئة قد ألقت خلال الفصل الأول من التاريخ الهليني عادة شن الحروب على سكان الجبل الذين يكتنفونها . وبعد أن تم قهر سكان الجبل واصلت كل مدينة دولة تنمية عادة شن الحروب بالدخول فى معارك مع غيرها من المدن الدول الأخرى التى تقع على ممرها . وهكذا أصبح نظام المدينة الدولة - فى صيغة الجمع - يحمل بين ثناياه عنصر الحرب ، وذلك حتى اتخذت خطوات فعالة لتوطيد السلام .

والمثلث الثانى فى نظام المدن الدول هو أن فئة واحدة من فئات المجتمع هى التى كانت تتمتع على نحو كامل تام بميزتى مجال الانطلاق والحافز على العمل اللتين أتاحتهما المدن الدول لمواطنيها ، وكان هؤلاء هم فئة المواطنين الذكور الذين كان يتسع وقتهم لحضور السوق العامة . حيث كان يتم تصريف شئون الدولة ، ثم العمل أيضاً فى الحقول والمصانع حيث تتوافر للمجتمع أراقه . ولم يكن هذا بحكم الواقع لا بحكم القانون ، فى صالح هؤلاء المواطنين القرويين الذين تقع أراضيهم على مسافة بعيدة من المركز البلدى للدولة . ولكن الفئتين اللتين عاد عليهما قيام المدينة الدولة بأفدح الضرر كانتا النساء (من دون طبقات المجتمع جميعاً) والعبيد . كان للنساء والعبيد فى ظل الحياة البربرية التى سادت عصر الفوضى اللاحق للحضارة الميناوية والسابق للحضارة

الهلينية ، كما جاء فى الأوديسة مكانهم فى مجتمع ذلك العصر . وما من شك فى أن أسلوب الحياة داخل المدينة الدولة الهلينية ، خلال القرن الثامن ق.م . وما تلاه ، كان يمثل خطوة حضارية تقدمية واسعة ، إلا أن ركب التقدم هذا خلف وراءه النساء والعبيد .

ولقد أضفى النظام الاجتماعى للحياة فى المدينة الدولة على حياة الرجال طابعاً جديداً من الطرافة والرونق بحيث لم تعد الأمهات والزوجات والبنات يبلغن فى مستواهن العقلى مستوى الرجال . ومما له عظيم المغزى أن اللفظة المهذبة التى كانت تطلق على العاهرة فى ذلك العصر هى «الرفيقة» (Hetaira) . وكان يتحتم أن تكون للعاهرة فى المدينة الدولة الهلينية ، مثل شقيقتها فى اليابان فى العصر الحديث ، مواهب عقلية بالإضافة إلى جمال القوام وفتنته . كما ينبغى أن يكون فى استطاعتها أن تساير عملاءها من الرجال فى ميولهم الذهنية . ومن الجدير بالذكر أيضاً أن المغامرات العاطفية المثالية لم تكن تلك التى تقوم مع المرأة بل مع الغلمان ، إذ أن رأى العام الهليني لم يكن يستنكر علاقات مضاجعة الجنس . وعندما كانت المرأة تقتحم بين الحين والآخر عالم الرجل ، لا باعتبارها رفيقة بل عن جدارة واستحقاق كأن تحرر قصب السبق فى ميدان من الميسادين التى يستأثر بها الرجال - مثل قرص الشعر - فقد كانت تنزع بدورها إلى علاقات مضاجعة الجنس ، الأمر الذى يدل على أن المرأة العظيمة المواهب نفسها لم تكن تجد

السعادة فى الإشباع الطبعى لغرائزها الجنسية ، لأنه لم يكن فى استطاعتها أن تصبح زوجة أو حتى عشيقة ، على أساس من المساواة الحقيقية بينها وبين الرجل . ويصور المؤرخ ثوكديديس Thucydides ابن أولوروس Olorus السياسى الأثينى بركليس Pericles ، على أنه أشار فى خطاب التأيين الذى ألقاه فى ذكرى الأثينيين الذين لقوا مصرعهم فى ميدان القتال فى السنة الأولى من الحرب الأثينية البليونيزية العظمى بين عامى ٤٣١ ، ٤٠٤ ، أشار على النساء الأثينيات فى لهجة جافة مقتضبة بأن واجبهن الأول والأخير هو الانزواء والعمل على إنجاب عدد آخر من الأطفال ليعوضن الخسارة فى الأرواح التى تكبدها المجتمع من جراء هذه الحرب . أما إسبرطة - وكانت إسبرطة دائماً غريبة الأطوار وسابقة لعصرها أيضاً - فقد كانت المدينة الدولة الوحيدة التى استعادت فيها المرأة ، خلال عصر التوسع الهلينى فيما وراء البحار ، بعض ما يشبه ذلك الوضع الاجتماعى الذى كانت تتمتع به فى جميع البلاد إبان عصر البربرية والفوضى السابق على العصر الهلينى . وقد جاء هذا الكسب الذى نالته ، نتيجة لهبوط ذلك الثقل الكبير لنظام «ليكورجوس» على كواهل المواطنين الإسبرطيين الذكور . وكانت الفتيات الإسبرطيات يخضعن للتجنيد أيضاً ، غير أن النسوة المسنات كن يعفون من ذلك فى سهولة ويسر . وفى هذا الصدد ، جاء أرسطو بتعقيب لاذع حكيم ، إذ قال إن الشعوب النزاعة إلى القتال والحرب من دأبها أن تقع فريسة : «لنظام تجنيد النساء الرهيب» ، (كما أعرب عن ذلك جون نوكس John Knox أيضاً) .

وكان من شأن هذه المثالب التى بدت على المدن الدول الهلينية ، أن أصبحت هذه المدن عاجزة عن القيام بدور الإطار الذى يحيط بأطراف الحياة ، كما أصبحت غير قادرة على أن تستأثر وحدها بحق العبادة والتقدیس . ويمكن لنا أن نتصور جسامه هذا العيب إذا ماتبيننا الأهمية الكبرى التى اكتسبتها المنظمات المخالفة لنظام المدينة الدولة ، والتى كانت قائمة بالفعل أو التى ظهرت إلى الوجود فى العالم الهلنى خلال القرون الثلاثة : الثامن والسابع والسادس ق.م . وبالنظر أيضاً إلى عدد ما اجتلب من هذه المنظمات من خارج العالم الهلنى . وبدراستنا لهذه المنظمات المكمله ، تتضح لنا حاجات ثلاث عجزت المدينة الدولة عن الوفاء بها ، أو هى لم توفرها ، على الأقل بالقدر المرجو ، فإن طبقات المجتمع التى لم تتمتع بنعم الحياة التى أتاحتها المدينة الدولة ، وبخاصة العبيد والنساء ، كانت فى حاجة إلى التعويض النفسى عن ذلك فى مجال آخر . كما أن كافة طبقات المجتمع كانت فى حاجة إلى إطار للحياة أرحب من إطار دولة هينة الشأن تعيش فى أفق ضيق . لقد كانت فى حاجة لأن تحيا جانباً من حياتها فى عالم أوسع نطاقاً ، وفى إطار اجتماعى له صفة العمومية البانهلينية لا الإقليمية المحدودة الضيقة . ثم إن الطبقات جميعها كانت تفتقر إلى التجربة الدينية وإلى الإشباع الدينى اللذين لم يتيسرا لها ، سواء عن طريق عبادة المدينة الدولة أو عبادة مجموعة الآلهة الأوليمبية . واستطاعت معظم هذه المنظمات التى تختلف

نمط المدن الدول والتي كان لها فى ذلك العصر سلطان على مشاعر الهلينيين وأخيلتهم ، أن تفى بأكثر من ضرورة واحدة من بين هذه الضرورات الثلاث .

ويمكننا الاستدلال على عظم الحاجة التى كان يشعر بها العبيد والنساء إزاء ذلك التعويض النفسى ، من تمسكهم الشديد بمواصلة إحياء طقوس «عبادة الطبيعة» تلك العبادة التى طغت عليها أول الأمر - كما يدلنا تاريخ الطقوس فى المدن الدول - عبادة مجموعة الآلهة الأوليمبية ، ثم عبادة الإلهات الحارسات للمدن الدول . بيد أن عبادات «الطبيعة» المستهجنة هذه لم تشبع النهم بالقدر الكافى ، وهكذا أدت هذه الحاجة التى ظلت ماثلة ، إلى ازدهار أسرار إليوسس المحلية (نسبة إلى إليوسس Eleusis) وذيوع عقيدة دخيلة ألا وهى عبادة إله الطبيعة الطراقى ديونيسوس Dionysus (ويعرف فى مواضع أخرى باسم باخوس Bacchus) . كانت الأسرار التى تقام طقوسها فى إليوسيس Eleusis بأتিকা Attica ، تمثل إحدى عبادات «الطبيعة» المحلية التى قدر لها أن تصبح الديانة السائدة فى المنطقة ، وكان يسمح بالدخول إليها للنساء والعبيد فى حدود ضيقة ، أما الأجانب فقد كانوا يقبلون دون قيد أو شرط . وإن ضآلة معلوماتنا عن طقوس إليوسيس وعن كنهها لتحملنا على الاعتقاد بأنه ربما كان مثل جفاف الحبة وعودتها إلى الحياة من جديد حولاً بعد حول ، يضرب للداخلين فى هذه العقيدة على أنه ضمان

لوجود حياة أخرى للإنسان ، على خلاف الخلود المعنوى الذى يتحول إلى الأسيرة أو إلى الدولة . ولقد استتب الأمر لعبادة ديونيسوس فى العالم الهلينى برغم ما لقيه ديونيسوس من مقاومة فاشلة حفظت ذكراها تلك الأساطير التى تروى قصة الهزيمة التى لحقت لفترة من الزمن بهذا الإله الغازى على يد خصميه ليكورجوس Lycurgus وبنثيوس -Pentheus . ولنا أن نتصور أن مظاهر عبادة ديونيسوس التى أثارت نفور بعض النفوس الهلينية ، كانت هى ذاتها المظاهر التى اجتذبت نفوساً أخرى ، وقد أفردت هذه العقيدة دوراً كبيراً للمرأة . وكانت مخرجاً للعواطف الجامحة الكامنة فى أغوار النفس اللاواعية .

وتبدو الطقوس والمذاهب التى وضعها أورفيوس Orpheus بمقارنتها بالأسس الفلسفية التى وضعها فيثاغورس Phythagoras وكأنهما تمثلان المرتبتين الدنيا والعليا لعقيدة واحدة مجتلبة ، كالعقيدة الديونيسية ، من مكان ما خارج العالم الهلينى . وإن المذهبين الأورفى والفيثاغورسى - من حيث تعاليمهما وأهدافهما والشروط التى يفرضانها لبلوغ هذه الأهداف - ليتفقان فى كثير من النقاط مع المعتقدات التى كانت سائدة فى الهند فى العصر ذاته . وليس من المعقول أن هذا التشابه قد جاء محض صدفة واتفاق . والغالب أن سهول الإستبس الأوراسية العظيمة كانت هى المصدر المشترك الذى استمدت منه كل من الهند وهيلاس هاتين الظاهرتين الدينيتين المتمثلتين . ففى القرنين

الثامن والسابع ق.م. أدت إحدى الانتفاضات المؤقتة للبدو الأوراسيين إلى انحدار بعضهم صوب الجنوب الشرقى إلى حوض نهر هندوس In- dus ، واتجاه البعض الآخر إلى الغرب حتى حوض نهر الدانوب ، وربما كان هؤلاء من حملة عقيدة مازالت قائمة فى شمالى آسيا حتى يومنا هذا . وخلاصة تعاليم هذه العقيدة هى أن هذا العالم ليس الوطن الحقيقى للإنسان ، وأن الحياة فى الجسد ليست هى مصيره الأسمى وأن الهدف الحقيقى للنفوس البشرية هو التخلص من قيود الوجود ، بيد أنه دون بلوغ هذا الهدف الأسمى مشقة بالغة ، لأن الوجود لا يقتصر على أجل واحد ، بل هو سلسلة مريرة متصلة من التجسّدات التى لن تكف عن التلاحق إلى ما لا نهاية حتى يتضح للمرء طريق الخلاص وتتوافر له العزيمة أيضاً على أن يسلك هذا الطريق . وقد قام فيثاغورس ، الفيلسوف والنبي الذى انحدر من ساموس Samos بتكوين مجتمع فى «هلاس العظيمة» عند «أصبع» إيطاليا ، مهمته وضع هذه المعتقدات موضع التنفيذ . وكانت هذه الجماعة فى طابعها مزاج بين جماعة أخوية دينية بدائية ، ومعهد علمى غربى حديث . وكانت أقوال «المعلم» هى الصديق بعينه فى نظر تلاميذه . ويشبه فيثاغورس كالفن Calvin ، فى أنه كان يتمتع بالسيادة على حكومة كانت تدبر شئون مدينة دولة ، ولكنه يخالفه فى أنه أثار حركة ارتداد ثورية فى كروتون Croton كسرت شوكة الجماعة الفيثاغورية وقضت على من عاش من أفرادها بالتشريد فى المنفى

. ولو أن فيثاغورس وأتباعه أصابوا من النجاح فى الميدان السياسى ما أصابوه فى الرياضيات ، لكن التاريخ الهلنى قد اتخذ وجهة أخرى تدعو إلى الدهشة غير الوجهة التى اتخذها بالفعل فى مرحلته التالية .

لم يكن أنبياء هيلاس الذين ظهرُوا فى الربع الثانى من العصر الألفى الأخير ق.م. آباء روحانيين يبلغون مرتبة معاصريهم العظماء الذين تألقوا فى كنعان وإيران ، فقد جمع فيثاغورس وإمبيذوكليس Empedocles على خلاف هؤلاء ، بين دور النبى والفيلسوف والعالم الطبيعى ، ولكنهما اختلفا أيضاً مع أشعياء النبى ولعلهما اختلفا أيضاً مع زرادشت Zarathustra فى أنهما جمعا بين هذه وبين دور الساحر البدائى أيضاً . ولعل النبى الكرىتى إيمينيديس Epimenides لم يكن يزيد على كونه عالماً فقيهاً بالنقوش الدينية القديمة ، ومما أساء إلى سمعة فقهاء المذهب الأورفى ، انحذارهم إلى هذا المستوى البدائى واستغلالهم سذاجة عملائهم فى ابتزاز أموالهم . وهكذا ضلت الحركة الأورفية كما ضلت الحركة الفيثاغورية طريقها إلى مصيرها الواضح فى أن تصبح جماعة دينية بانهلينية ، وقد استطاع وحي دلفى فى وسط اليونان أن يفى بمثل هذه الحاجة التى كان يشعر بها الهلينيون فى ذلك العصر ، وهى قيام منظمة دينية بانهلينية .

وكانت تشترك فى معبد دلفى ، الإلهة التى كانت تشغله فى الأصل وهى الإلهة البدائية «الأرض» بالإضافة إلى إلهين دخيلين تلا أحدهما

الآخر هما «أبولو» الأوليمبي و «ديونيسوس» الطراقي ، وكانت العرافة تستمد وحيتها من هذا الحلف المحلى الذى قام بين ثلاثة أوجه للطبيعة الإلهية ، وهى ألوهية الطبيعة الممثلة فى «الأرض» والقوة الإلهية التى تحكم الكون ممثلة فى أبولو ، والألوهية الشيطانية للنفس اللاواعية كما تظهر فى ديونيسوس . وكان يعلن عن الوحي باسم الإله أبولو بوساطة نبية فى حالة غيبوبة واستغراق ، ثم تقوم هيئة كهنة دلفى بنظم أقوالها فى أبيات سداسية الوزن قبل إلقائها على الجمهور . وهذا الجمهور الذى كان يضم حكومات مدن دول كما كان يضم أفراداً على حد سواء ، ييغى الحصول على معلومات عن المستقبل . ولم يكن فى وسع الوحي أن يتجاهل بأية حال هذه الرغبة الفجة . وسعى الوحي إلى صون سمعته خشية عدم ثبوت صحة أقواله ، بأن أصبح أستاذاً لا يبارى فى الغموض ، حتى وقع عشية غزو الإمبراطور الفارسى أكسركسيس لليونان بالقارة الأوروبية ، فى خطأ التنبؤ باحتمال انتصار الغازى الجبار ، وجلب على نفسه العار بأن نصح سائلى مشورته بعدم المقاومة . وحاولت كهنة دلفى أن تستعيد مكانتها المنهارة بأن تروج لأقصوصة تقول بتدخل أبولو العجيب لمحاربة فرقة من فرق الحملة الفارسية التى كانت فى طريقها إلى معبده ، بيد أن هذه الأسطورة لم تنطل على أحد خاصة فى ذلك العصر الجديد الذى انبلج فيه فجر المذهب العقلى ، وعلى أية حال ، فقد كانت دلفى قد أدت إلى هذا الوقت رسالتها الحقيقية كاملة . ولم تكن هذه هى

الإدلاء بنبوءات غامضة، بل بذل المشورة السديدة. هل ندخل فى حرب؟ متى ينبغى علينا أن نقوم بانقلاب؟ أين نعثر على مستعمرة فيما وراء البحار؟ كانت الكهانة الدلفية تجيب عن مثل هذه الأسئلة فى حكمة فى الغالب الأعم. وكانت حكمتها وليدة التجارب الطويلة والمعلومات الصادقة. وقد لعبت دلفى باعتبارها ناصحا بانهلينيا أمينا، دوراً مجيداً فى تاريخ المجتمع الهلينى فى عصر التوسع فيما وراء البحار.

سبق أن ذكرنا أن دلفى كانت ملتقى واحد من الاحتفالات الدورية البانهلينية الأربعة. والمرجح أن هذه الاجتماعات قد نشأت عن أصل دينى، شأنها شأن المعابد التى ترتبط بها، بيد أنها ما لبثت أن تحولت إلى مباريات فى مضمار البطولات الفردية، سواء فى الفنون الجميلة أو فى الألعاب الرياضية. وكانت جميع هذه الاحتفالات الأربعة مباحة لآى فرد حر بوسعه أن يبرهن على جدارته بلقب «هلىنى» وعلى أنه أهل لأن يتسبب إلى الهلنيين. وتحتل هذه الاحتفالات مركز الصدارة بين جميع المنظمات البانهلينية من حيث تعبيرها عن الوعى الجماعى بالاشتراك فى حضارة هلىنية واحدة. وكان لدى الهلنيين جميعاً تراث مشترك آخر يتمثل فى الأشعار الهومرية، وكان لشيوخ هذه الأشعار أن ظلت ماثلة الأذهان ذكرى مجتمع سابق لم يكن قد انقسم بعد إلى ذلك العدد الهائل من المدن الدول المتناحرة المتباغضة التى اقتسمت فيما بينها، من جراء ذلك، ولاء الهلنيين. وتعد من الخصائص

المميزة للحضارة الهلينية أنها استطاعت الإعراب عن وعيها المشترك بوساطة الشعر والرياضة لا بوساطة السياسة أو الدين .

ظل تاريخ الإلياذة والأوديسة ، بالصورة التى نعرفهما بها اليوم ، وحقيقة مؤلفها موضوع نزاع بين العلماء الغربيين فى العصر الحديث منذ نهاية القرن الثامن عشر ، ولكنه مما لا شك فيه أنه كان وراء هاتين الملحمتين الرائعتين ، تراث شعري يرجع تاريخه إلى ذلك العصر الموغل فى القدم السابق على الحضارة الهلينية والذى وقعت إبانة الهجرة الجماعية Völkerwanderung ، والذى استمدت أيضاً كلاً من هاتين القصيدتين موضوعهما منه وأخذت عنه أكثر مشاهدتها . ولا بد أن هذا الشعر الملحمى ، كان خلال معظم مرحلة التكوين التى مر بها خلال العصر المظلم من التاريخ الهليني ، فناً يروى شفاهاً ، نظراً لأن فن الكتابة الذى كان شائعاً فى منطقة بحر إيجه خلال العصر المينوى ، قد اندثر هناك من جراء حالة الفوضى التى تجمعت عن الهجرة الجماعية ، ولم يسترده الهلينيون حتى القرن الثامن ق.م . ومما يذكر أن عالم بحر إيجه لم يستعر معرفته للقراءة والكتابة فى هذه المرة عن طريق إحيائه للحروف المقطعية الميناوية ، التى كانت مستخدمة فى كتابة اللغة اليونانية - بالإضافة إلى لغات أخرى - فى العصور الموكنية . فقد كانت هذه الحروف قد اندثرت تماماً وطواها النسيان فى جميع البلاد فيما عدا جزيرة قبرص . وفى غير قبرص تعلم الهلينيون القراءة والكتابة

باستعارة حروفهم الأبجدية من جيرانهم الفينيقيين فى كنعان . وبوحى من نظم الكتابة السومرية والمصرية العريقة الراسخة ، اخترعت فى النصف الأخير من العصر الألفى الثانى حروف جديدة على يد الفينيقيين والحيثيين وعلى يد الميناويين أيضاً ولم يضع الحيثيون أو الفينيقيون قط حروف الكتابة التى ابتدعوها . وقد خفض الفينيقيون عدد الأحرف المستخدمة فى كتابتهم إلى الحد الأدنى بأن استخلصوا منها الحروف الساكنة ، واقتصروا فى الكتابة على هذه الحروف . بيد أن ميزة الإيجاز التى تفوقت بها الحروف الأبجدية الفينيقية على الكتابة المقطعية ما لبثت أن ضاعت إزاء فقدان الكتابة الفينيقية لعنصر الدقة ، نظراً لتعدد أوجه اختيار الأحرف المتحركة لكلمة لا تشتمل إلا على الأحرف الساكنة . وكان التجديد الذى أدخله الهلينيون ، عندما استعاروا الأبجدية لكتابة اللغات اليونانية والليكية والكارية هو فصلهم للأصوات المتحركة وابتكار حروف لتحل محلها . وتضاءلت الخسارة الطفيفة التى نجمت عن ذلك فيما يتعلق بعنصر الإيجاز أمام ذلك الكسب الكبير الذى تحقق من ناحيتى الدقة والوضوح . وتعتبر هذه الأبجدية الهلينية ذات الحروف المتحركة ، أيسر وأدق نظام للكتابة اخترع حتى هذا التاريخ ، وهى بالصورة التى نقلها بها اللاتين لا تزال تستخدم حتى اليوم فى العالم الغربى الحديث . وجعل اختراعها فن الكتابة فى مقدور أى إنسان ، على خلاف الأثر الذى تركه الاختراع القديم لنظم الكتابة السومرية

والمصرية والصينية ، التى بلغت من التعقيد والصعوبة (وكانت تجمع بين العلاقات الصوتية التى تمثل حروفاً متحركة والعلامات القديمة التى تقوم مقام كلمات يذاتها) حداً لم يكن هناك مفر من أن تصبح معه احتكراً فى يد حفنة من العلماء المتخصصين المحظوظين . وفى بواكير القرن الخامس ق.م . ، إن لم يكن قبل نهاية القرن السادس ، كانت معرفة القراءة والكتابة قد عمت أتيكا إلى الدرجة التى أصبح من الممكن معها أن يجرى أى استفتاء بأن يطلب من الناخبين كتابة اسم السياسى الذى يودون نفيه من البلاد على شقفة من الفخار .

وأمدت هذه الأبجدية المعدلة الهلنيتين بنظام مشترك آخر له أعظم الأثر فى إذكاء الشعور بالتضامن البانهلينى . كما صادفت الأبجدية الهلينية - لميزاتها هذه - هوى فى نفوس جيران الهلنيتين . فلم تلبث أن اتخذتها شعوب بلاد الأناضول غربى الصحراء الوسطى وشعوب إيطاليا حتى البندقية Venetia شمالاً ، بما فى ذلك هذه المدينة أيضاً ، وذلك فى كتابة لغاتها المحلية . وكان لتقبلهم طريقة الكتابة الهلينية أن أصبحوا قابليين للتشبع ببقية عناصر الحضارة الهلينية ، وبذلك مهدوا السبيل لتوسيع حدود العالم الهلينى عن طريق الدعوة السلمية بدلاً من الغزو القسرى والاستعمار .

الفصل الخامس

مواجهة خطر المنافسة الفينيقية والإترسكية في الغرب

توقفت حركة التوسع فيما وراء البحار ، التى كان المجتمع الهلنى يجد فيها حلاً لمشكلة زيادة عدد السكان داخل بلاده الأصلية ، وذلك خلال القرن السادس ، أمام المقاومة الفعالة التى أبدتها المنافسون من أجل الفوز باستعمار شواطئ البحر الأسود وغربى البحر المتوسط ، التى لم يكن فى طاقة سكانها الوطنيين المتخلفين أن يقاوموا مقاومة فعالة عدوان أى من الحضارات الشرقية المتنافسة المطردة الانتشار .

وخلال القرون الأولى من العصر الألفى الأخير ق.م. عندما كانت الحضارة الهلنية بسيلها إلى الخروج إلى الوجود فى حوض بحر إيجه ، باستغلالها هناك لحالة الفوضى التى نجمت عن انهيار المجتمع الميناوى الموكينى ، كان من حسن حظ هذه الحضارة الناشئة أنها لم تكن معرضة لأى ضغط من جانب أية مجتمعات مجاورة مماثلة لها . وكان انعدام

الضغط هذا ، شأنه شأن حالة الفوضى التى كان على النظام الجديد أن يجلبها ، تراثاً خلفه عصر البربرية السابق للعصر الهلنى . وكانت حركة الهجرة الجماعية Völkerwanderung قد محت الدول الكبرى من «الشرق» ، فى أوائل القرن الثانى عشر ق.م. بصفة مؤقتة . وفضلاً عن تحطيمها لقوة الموكنين البحرية فى بحر إيجه وسحقها للإمبراطورية البرية الحثية فى الأناضول ، فقد تركت مصر منهكة القوى بعد الجهد الذى بذلته فى صد هؤلاء البرابرة عن حدودها . وكان لنشأة هذا الفراغ السياسى أن أصبح فى الإمكان توطيد النظام من جديد فى حوض بحر إيجه وسورية وكنعان عن طريق تكوين مجتمعات سياسية جديدة على النطاق المصغر للمدينة الدولية . واستطاع المجتمع الجديد فى سورية وكنعان أن يبنى المجتمع الجديد فى بحر إيجه خلال الفصل الأول من تاريخهما . كان الفينيقيون قد ابتكروا الأبجدية ، وكتبت لهم الحياة بعد الهجرة الجماعية التى وقعت فى القرن الثانى عشر . واكتشفوا المحيط الأطلنطى ، ومازالت الحضارة الهلنية فى صراع مع عناصر الفوضى ، بيد أنه لم يكن أى من المجتمعات الفينيقية أو الفلسطينية أو اليهودية فى كنعان أو المجتمعات الآرامية فى سورية أو مجتمعات اللاجئيين الحثيين فى سورية وعلى جانبى جبال طوروس فى موقف يسمح لها بتهديد المجتمع الهلنى فى بلاده الأصلية ، وكل ما استطاع ممثلو الفينيقيين والحثيين البحريين ، وهم الإترسكيون (Tyrrhanians) أن يفعلوه هو

التنافس مع الهلنيين فى مضمار السيطرة على البحر الأسود وغربى البحر المتوسط ، وفاز الهلينيون خلال القرنين الأول والثانى تقريباً من فترة التنافس هذه ، بنصيب الأسد من الغنائم التى كان هؤلاء المغامرون الشرقيون المتنافسون يسلبونها من الشعوب الوطنية المتخلفة .

وما إن أشرف النصف الأول من القرن السادس ق.م. على الانتهاء حتى كان الهلينيون قد خرجوا من المنافسة حول البحر الأسود بنصر حاسم . وكانت الآثار الوحيدة التى بقيت شاهداً على نشاط منافسيهم فى هذا القطاع هى عبادة «الآلهة الكبار» (كابيريم) الفينيقية فى جزيرة ساموتراقيا Samothrace الواقعة فى شمال بحر إيجه ، كذلك من كتبت لهم الحياة من سكان المستعمرات الإترسكية الواقعة على جزيرة ليمنوس Lemnos خارج مدخل الدردنيل مباشرة ، الذين لاذوا فى النهاية داخله ، وذلك فى موضعين على الشاطئ الجنوبى لبحر مرمرة . وفى غربى البحر المتوسط لم يتمكن الفينيقيون من الاحتفاظ بثلاثة مواقع رئيسية فى جزيرة صقلية بأقصى طرفها الغربى ، بينما انحصرت مواقع الإترسكيين على الشاطئ الغربى لإيطاليا بين «هلاس العظمى» الواقعة عند «أصبع» و «ظهر قدم» إيطاليا من جانب وبين سلسلة من المواقع الهلينية المتقدمة ، التى أسستها فوكايا Phocaea وابتتها ماسيليا Massilia (مارسيليا Mar-seilles) ، التى امتدت من الريفيرا الفرنسية إلى كوستا برافا Costa Brava بكاتالونيا Catalonia من جانب آخر . وكان الشاطئ الشرقى

والشاطئ الجنوبي بأكملهما فى صقلية - التى تعد مفتاح السيطرة على الغرب - تشغلها سلسلة متصلة من المدن الهلينية الاستعمارية .

وكان انتصار الهلنيين على خصومهم الفينيقيين الإترسكيين فى هذه المرحلة الأولى من مراحل المنافسة التى قامت بينهما ، يرجع إلى تمتعهم بميزات ثلاث ، هى التفوق العدى واحتلال قاعدة عملياتهم لموقع أفضل من موقع خصومهم ، وحصانتهم ضد الهجوم من جانب الدولة الكبرى الأولى من سلسلة الدول الكبرى التى قدر لها أن تقوم الواحدة بعد الأخرى فى جنوب غرب آسيا .

أما من ناحية العدد ، فإن المدن الفينيقية الرئيسية الخمس أو الست المنعقدة على طول ساحل كنعان وسورية بين جبل الكرمل ومصب نهر العاصى ، لم تكن لتقوى على الوقوف فى وجه مئات المدن الدول الهلينية فى آسيا وجزر بحر إيجه وبلاد اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية ، كما أنه لابد أن قاعدة الإترسكيين فى وطنهم كانت أصغر من ذلك مساحة نظراً لأن المستوطنين الإترسكيين الذين أقاموا فيما وراء البحار لم يفقدوا صلتهم بها فحسب بل إنهم لم يكونوا يذكرون على وجه التحديد المكان الذى كانت تحتله . وليس أمامنا إلا أن نفترض أن هؤلاء المتحدثين بلغة لا تنتسب إلى اللغات الهندية الأوروبية قد خرجوا من بقعة منعزلة غير معروفة على الشاطئ الجنوبي للأناضول - وربما كانت الشاطئ الصخرى الوعر فى غرب كيليكيا Cilicia - لم يبلغها

سواء الغزاة الذين كانوا يتكلمون اللغة اللوفية Lovian ، وذلك فى بداية الألف الثانى ق.م. أو الغزاة الذين كانوا يتكلمون اليونانية وذلك قرب نهاية هذا العصر .

ومما زاد من أثر تفوق الهلنيين العدى ذلك الموقع الذى كانت تحتله قاعدة عملياتهم التى كانت تسد طريق الشعبين المنافسين لهم إلى البحر الأسود وتهدد جانبهما إذا ما اتجها إلى غربى البحر المتوسط . ولعل أعظم الميزات التى تمتعوا بها هى تلك الميزة السلبية التى تتلخص فى وقوعهم خارج مرمى الدولتين العسكريتين الآشورية والبابلية ، اللتين تعرضت شعوب سورية وكنعان التعيسة من جانبهما ، إلى المناوشات المتكررة فى فترة تمتد بين القرن التاسع والقرن السادس ق.م. ، بيد أن ثمة تغييرات سياسية وقعت خلال القرن السادس فى غربى البحر المتوسط وجنوب غربى آسيا أدت إلى انقلاب الأوضاع . ففى المنطقة الأولى قام الفينيقيون الذين يعيشون فيما وراء البحار فى غرب صقلية وجنوب إسبانيا وشمال غرب أفريقية فى القرن السادس ، وتحت ضغط التوسع الهلنى ، بمثل ما قامت به المجتمعات الأم فى سورية ولبنان ذات مرة ولفترة قصيرة عندما كتلت قواها عام ٨٥٣ ق.م. ، لعرقلة تقدم الغزاة الآشوريين فى معركة قرقر Qarqar . ففى القرن السادس وضعت المدن الدول الاستعمارية الفينيقية نفسها على الدوام تحت القيادة الموحدة لمدينة من بينها ، وهى قرطاجة Carthage (المدينة الجديدة) ، فقامت قرطاجة بعقد حلف مع الإترسكيين فيما وراء البحار ضد الهلنيين ،

وهكذا وجد الهلينيون أنفسهم فى مواجهة قوات منافسيهم الموحدة . وفى الناحية الأخرى استعادت المدن الفينيقية الأم الممتدة على طول شاطئ كنعان وسورية مكائتها الأولى نتيجة لحلول الفرس محل الآشوريين وخلفائهم البابليين . فقد أدت هزيمة الإمبراطورية البابلية على يد مؤسس الإمبراطوريات الفارسية كورش عام ٥٣٨ ق.م ، إلى تحرير الفينيقيين واليهود أيضاً . بيد أن مغنم المدن الدول الفينيقية من وراء هذه الثورة السياسية كان أعظم من مغنم المنفيين اليهود . فقد اتخذتها حكومة الإمبراطورية الفارسية شريكة لها وأنعمت على كل منها بإمبراطورية مصغرة خاصة بها . وكان لارتباط الفينيقيين بالإمبراطورية الفارسية على أساس التمتع بميزات خاصة ، أن تدعمت قوة الفينيقيين من النواحي العسكرية والسياسية والاقتصادية . فقد أصبحت الأجزاء الداخلية من القارة تمثل بلاداً صديقة لا بلاداً معادية . وانفتح على مصراعيه ميدان هائل للنشاط الاقتصادى يصل إلى آسيا الوسطى والهند . ولا بد أن هذا التحسن المباغت الذى طرأ على مركز المدن الأم الفينيقية قد أدى إلى تعزيز موقف الفينيقيين فيما وراء البحار نظراً لأنهم - على خلاف الإترسكيين فيما وراء البحار - لم يقطعوا صلتهم بوطنهم . وأدى هذان التغيران الشاملان إلى انقلاب ميزان القوى فى غير صالح الهلنيين إلى الحد الذى توقفت معه حركة التوسع الهلينى فيما وراء البحار قبل نهاية القرن السادس . بيد أنه قبل ذلك التاريخ بأكثر من مائة وخمسين سنة ،

كان أثر المقاومة المتزايدة التى كانت تلاقيها حركة التوسع هذه قد بدأ يظهر بالفعل على الحياة الداخلية للمجتمع الهليني .

كان سكان العالم الهليني فى زيادة مضطردة (وقد ظلوا على هذه الحال حتى القرن الثانى ق.م) ، وقد أسفر التقدم البطئ لحركة التوسع ثم توقفها فى النهاية ، دون أن تصاحب ذلك أية زيادة فى الإنتاج بالنسبة لتصيب الفرد أو لحصة الفدان ، عن تحول الضغط الناشئ عن الزيادة المضطردة فى عدد السكان ، إلى الداخل . ومما زاد من حدة التوتر الاجتماعى الذى أصاب الحياة الداخلية للمدن الدول نتيجة لذلك ، ظهور بدعة عسكرية جديدة ، تلتها بدعة اقتصادية . فقد أدخل فى العالم الهليني قرابة عام ٧٣٠ ق.م. نظام تشكيل الفيلق (الصفوف المتراسة) الخاص بجنود المشاة . وقرابة عام ٦٥٠ ق.م اخترعت العجلة فى مكان ما من الشاطئ الآسيوى لبحر إيجه ، وبدأت فى الانتشار فى بقية أنحاء العالم الهليني منذ عام ٦٢٥ ق.م تقريباً .

وكان القتال فى صورة تشكيلات ، طريقة أكثر فاعلية لقتال الجنود المشاة الثقيلى التسليح من المبارزات الفردية بين بطل وآخر . ولكنه لم يكن هدفاً عملياً ميسور التحقيق مادامت الأسلحة المعدنية باهظة الثمن بحيث لم يكن فى وسع أحد اقتناؤها غير الأثرياء من أفراد المجتمع ، وكان لحركة الاستعاضة فى صناعتها عن البرنز الباهظ الثمن بالحديد الزهيد الثمن ، وهى الحركة التى بدأت فى المنطقة الإيجية قرابة زمن

الهجرة الجماعية وتمت خلال العصر المظلم الذى تلى هذه الحقبة ، أن أصبح فى مقدور الفلاح صاحب الأرض أن يحصل على العتاد الذى كان من قبل وقفاً على قلة من الأرستقراطيين ، كما أن ما نجم عن ذلك من زيادة كبيرة فى عدد المقاتلين الثقيلى التسليح لدى المدينة الدولة ، أتاح الفرصة لأول مرة فى التاريخ الهلنى لإبراز ما للعتاد المعدنى من قيمة كبرى ، وذلك بالاستعاضة عن البطل ذى العربة الحربية ، بفيلق من جنود المشاة الفلاحين ، الذين لا تكمن قوتهم فى القوة البدنية الفردية بل فى مستوى التدريب والنظام والروح المعنوية العالية لدى الجماعة المقاتلة بأسرها .

وكانت أقل القطع صلاحية فى سلاح المقاتل الهلنى هى الدرع الدائرى . فإنه إذا ما احتفظ به فى مقياسه الضيقة يسهل استعماله فى العربة الحربية إلا أنه لا يكفل أية حماية تذكر للجندى فى ميدان القتال ، وإذا ما صنع باتساع يكفى لتغطية البدن من الرقبة إلى الفخذين ، فإنه يبلغ حداً من الثقل يتحتم معه ألا يشغل الذراع واليد فى شئ غير حمله ، وحتى فى هذه الحالة أيضاً يكون بارزاً دون ما داع خارج الكتف الأيسر ، بينما يترك الساقين عاريتين ، ولذلك يتحتم أن يغلف الساقان بدروع معدنية لحمايتهما ، الأمر الذى يزيد من ثقل الجندى أكثر فأكثر . أما فى نظام قتال الفيالق الجديد ، فالهدف من الدرع الدائرى الثقيل ذى القطر الكبير هو رفع الروح المعنوية لدى الجنود ، ففى تشكيلات

الصفوف المتراصة يقوم البروز اليسارى فى درع كل جندى بحماية الجندى الذى يليه ويقف إلى يساره ، وعلى ذلك فإنه عند مواجهة العدو « يجد الجندى أن من الأسلم له أن يحافظ على وضعه فى التشكيل عن أن يخرج عن الصفوف ، ثم إن الجندى الذى يترك الصفوف بالفعل ، إنما يحرم نفسه من حماية الجندى الواقف إلى جواره من ناحية اليمين » . بالإضافة إلى أنه يعرض جاره الواقف إلى اليسار للخطر . وبالإضافة إلى ذلك ، كان من العسير على المرء الفرار وهذا الشغل المعوق موثوق بذراعه ، ولذلك فقد كان شرف الجندية يقضى بالألا يلقي المرء بدرعه . والعبارة التالية من بين العبارات الشهيرة التى تنسب إلى الأمهات الإسبرطيات : «إنى واثقة من أن ابنى سوف يعود إما بدرعه وإما فوق درعه» ، إذ جرت العادة على أن تنقل جثة الجندى الذى يموت ميتة مشرفة فى ميدان القتال ، فى موكب إلى بيته محمولة على درعه ، فوق أكتاف زملائه ممن كتبت لهم الحياة . وأصبحت هذه الأداة المهوشة التى باتت رمز الشجاعة والبأس ، تسمى عموماً «بعدة الحرب» (Hoplón) ، كما أصبح المقاتل الثقيل التسليح فى الفيلق يعرف باسم «حامل الدرع» (Hoplites) .

وترتب على إدخال نظام تشكيل الصفوف المتراصة التى ينتظم فيها حملة الدروع من الفلاحين الملاك « بالإضافة إلى ظهور «روح الجماعة» ، أن بطل عمل الصنديد الأرستقراطى . وحاول هذا أن يحتفظ لنفسه

بمركز الصدارة الذى كان يحتله من قبل بأن استعار من البدو (الذين قاموا بثورة من ثوراتهم المضطربة خلال القرنين الثامن والسابع بزحفهم خارج سهول الاستبس الأوراسية) آخر حيلهم فى الفروسية وهى ركوب الخيل بدلاً من قيادتها . غير أن سلاح الفرسان الذى حل محل سلاح العربات الحربية التقليدى فى العالم الهلنى وقت أن أدخل نظام فيلق المشاة ، لم يحتل مكان الصدارة بين الأسلحة الأخرى حتى عهد الإسكندر الأكبر ، أى بعد مضى ما يقرب من أربعة قرون . وكانت أعظم فيالق حاملى الدروع الهلنية قاطبة ، خلال القرون الثلاثة الأولى ونصف القرن من تطبيق نظام الفيالق فى العالم الهلنى هى الفيالق اللاكيدايمونية (ولاكيدايمون Lacedaemon هو الاسم الرسمى للدولة الإسبرطية ، بما فيها المجتمعات التابعة Peroeci) ، وكان الفيالق اللاكيدايمونى يضم ، إلى وقت متأخر يرقى إلى القرن الرابع ، فرقة مميزة تعرف باسم «الفرسان» ، بيد أن هؤلاء لم يكونوا ، خلال القرن الرابع ، يقاتلون بالصورة التى كان يقاتل بها سلاح راكبي العربات الحربية الذى عفا عليه الزمن ، كما لم يقاتلوا فى صفوف سلاح الفرسان الحديث . فكانوا يتخذون مراكزهم بين صفوف المشاة باعتبارهم حرساً خاصاً للملوك الإسبرطيين ، وكانوا يحصلون على هذه المراكز المرموقة بناء على جدارتهم العسكرية ، لا بحق انتسابهم إلى طبقة أرستقراطية .

وبات ينظر فى إسبرطة إلى الفلاح المالك حامل الدرع - ولعل ذلك قد وقع فى زمن مبكر مثل أواسط القرن السابع ق.م - على أنه

يقف على قدم المساواة مع زميله فى السلاح ، الجندى الأرسقراطى المولد . أما فى بقية المدن الهلينية فقد أخذ الجندى الفلاح فى المطالبة بما تحقّق لزميله بالفعل فى إسبرطة . ولما كان حامل الدرع هذا قد علا شأنه وأصبح من المجتمع العسكرى بمثابة العمود الفقرى ، فقد شعر بأنه قد أصبح من حقه أن يأخذ بنصيب فى إدارة الشؤون العامة للبلاد . وعندما وجد أنه ، بدلاً من أن تتحقّق له رغباته السياسية ، أصبح يواجه متاعب اقتصادية ، لم يلبث أن عقد العزم على أن يعدل الميزان الاقتصادى لصالحه عن طريق حصوله على الحقوق السياسية التى بدا أن مكانته العسكرية الجديدة تؤهلها .

كان الفلاحون الملاك والعمال الزراعيون مجبرين ، خلال عصر أدى فيه نقص الأراضى الزراعية المطرد إلى عجزهم عن الموازنة بين دخلهم ومنصرفهم ، إلى الاقتراض بفائدة ، من ملاك الأراضى الأرسقراطيين الذين كان ما يزال بأيديهم فائضاً يقرضونه ، كما يسر اختراع النقود من عملية الاستدانة هذه ، وقطعة النقود إن هى إلا قطعة معدنية تصدرها الدولة ، كوساطة للتعامل ، وتحمل صورة الدولة وصفتها ، وتضمن تمغة الدولة أن قطعة النقود لها من القيمة ما هو مبين على وجهها . ومقابل منح الجمهور هذا الضمان ، تحتكر الدولة المصدرة للعملة حق سك العملة داخل أراضيتها . وكان الجديد فى هذا الاختراع الهلينى هو تدخل الدولة فى الأمر . لقد كان الأفراد يستخدمون

أوزاناً ثابتة معروفة من المعادن كوسيلة للتقايض منذ فجر الحضارة فى الحوض الأدنى من نهري دجلة والفرات . بيد أن التطور الجديد الذى طرأ على الاختراع القديم قد يسر بالفعل من المعاملات المالية ، وبخاصة عملية الاقتراض والإقراض . وعندما كان ينؤ كاهل المستدين تحت عبء التزامات لم يكن فى مقدوره الوفاء بها ، كان يجره ذلك إلى الوقوع هو وأسرته وممتلكاته تحت سلطان الدائن . كان فى وسع الفلاح صاحب الأرض أن يرهن أرضه وفى وسع العامل الزراعى الذى لا يملك أرضاً أن يقترض بضمان حريته الشخصية وحرية أبنائه ، فإذا ما عجز هؤلاء وهؤلاء عن الوفاء بديونهم ، فإن الفلاح يفقد أرضه ، ويتحول العامل إلى عبد من حق دائه أن يبيعه فيما وراء البحار . وكان الدائنون يستغلون هذا الموقف أبشع استغلال ، ولكن ضحاياهم ما لبثوا أن تحولوا إلى وحوش ضارية ، فلم يقتصروا على المطالبة باستعادة حريتهم واسترداد أراضيهم ، بل نادوا بضرورة مصادرة ضياع الملاك وتقسيمها ، وكان لهم فى ذلك هدف مزدوج يرمى إلى كسر شوكة الملاك الكبار من الناحية الاقتصادية والتخفيف أيضاً من أثر ندرة الأراضى الناجم عن بطء حركة توسع العالم الهلينى فيما وراء البحار .

وأخذت حلول هذه الأزمات صورة تغيير كلى وجزئى ، طرأ على المجتمع خلال فترة امتدت مائة وخمسين سنة . وما إن حل الوقت الذى توقفت فيه حركة التوسع فيما وراء البحار كلية ، قبل انتهاء القرن السادس ق.م بوقت قصير ، حتى كانت الطبقة الأرستقراطية فى معظم المدن

الدول الهلينية الكبرى قد حرمت من امتيازاتها تماماً ، واستعيض عن حق المولد بالمؤهلات العقارية لتكون أساساً للحقوق السياسية ، كما أنه جرى فى معظم الأحيان تقسيم الملكيات الضخمة . كما أدخل على النظم الاقتصادية فى العالم الهليني انقلاب كلى . وكان هذا التعديل هو اعظم التعديلات قاطبة ، لأنه أوجد حلاً للمشكلة الاقتصادية التى نجمت عن إبطاء حركة توسع العالم الهليني ثم توقفها تماماً فى نهاية الامر .

وتمت هذه التعديلات فى معظم المجتمعات التى وقعت فيها ، قسراً ، على يد حكام دكتاتوريين أو طغاة . وقد تفشت هذه الدكتاتوريات كما لو كانت وباء بدأ دورته بدول خليج كورنثوس (كورنثة وسيكايون Sicyon وميجارا Megara) ثم امتد أولاً إلى الدول الآسيوية (ميليتوس Miletus وميتيليني Mytilene) وبلغ أثننا فى النهاية . بيد أنه لم يقدر لأى من هذه الدكتاتوريات أن تعيش طويلاً إذ كان يطاح بها فى الجيل الثالث على أكثر تقدير . وكانت إسبرطة هى المدينة الوحيدة التى استطاعت أن تواصل الحياة دون أن تقع فريسة لنظم الحكم الدكتاتورى ودون أن تقوم بثورة اقتصادية على النحو السالف الذكر . إذ كان الأفراد من عامة الشعب فى إسبرطة - كما أسلفنا - يمنحون الإقطاعيات من الأرض ، لا على حساب الطبقة الأرستقراطية الإسبرطية ، بل على حساب جيران إسبرطة المقهورين من سكان مسينيا Messenia ، كما كان النصاب العقارى الذى يؤهل الفرد لبلوغ مرتبة «النظير» الإسبرطى

هينا للغاية » إذ لم يكن يتعدى ما يسهم به حامل الدرع من نصيب عيني في مؤن مائدة الطعام المشتركة التي تتبع فرقته ، ويحصل على ذلك من إقطاعية الأرض المسيية التي تخصص له . وهكذا تلافى إسبرطة أسباب النزاع الذي قد ينشأ بين صفوف مواطنيها ، لكى تثير نزاعاً آخر بينها وبين رقيق الأرض ، كما استطاعت أن تقيم دعائم جيشها المؤلف من حملة الدروع باستغلال أراضي هؤلاء العبيد واستغلال كدهم دون أن تتخلى عن النظام الاقتصادى القديم الذى يقوم على أساس من الاكتفاء الذاتى » اعتماداً على الزراعة .

ورأت الحكومة اللاكيدايمونية أن قيام حكومات ثورية دكتاتورية فى الدول المجاورة يشكل خطراً يتهدد النظم الغربية التى أوجدتها إسبرطة لتكون حلاً للمشكلات الاجتماعية المشتركة . وعلى ذلك فقد استخدمت السلطات الإسبرطية قواتها العسكرية البرية للإطاحة بالحكومات الدكتاتورية ببلاد اليونان التابعة للقارة الأوروبية ، داخل دائرة مست حدود أثينا نفسها . ولم تكن هذه بمهمة شاقة أو عسيرة ، نظراً لأن هذه الحكومات كانت بالفعل قد حققت رسالتها واستنفدت أغراضها قبل أن تجرد إسبرطة حملاتها عليها . ومن ثم استقرت الأحوال فى دول خليج كورنثوس ، فى ظل حكومات محافظة قامت على أساس من اتفاق ودى بين الفلاحين الزراع من حملة الدروع ورجال الأعمال الذين قاموا بمساندة الدكتاتوريات من قبل لتكون أداة للإطاحة بالطبقة الأرستقراطية الوراثة البائدة . وقد دخلت هذه الحكومات الجديدة فى أحلاف دائمة مع إسبرطة

الأمر الذى أتاح لها أن تحتل مركز الصدارة فى النواحي التى تختص برسم السياسة الخارجية المشتركة لحلفائها . بيد أن النتيجة التى ترتبت على خلع الحكومة الدكتاتورية فى أثينا عام ٥١٠ ق.م جاءت مخالفة لذلك ، وعلى النقيض مما كان يتوقع . فعندما تدخلت إسبرطة فى أثينا للمرة الثانية ، ولم يمض على تدخلها فى المرة الأولى سوى عامين فقط ، وذلك استجابة لطلب المحافظين الأثينيين وتلبية لندائهم ، اضطرت قوات الحملة التى جردتها لهذا الغرض إلى التسليم والانسحاب أمام التحالف الذى تم بين الفلاحين الأثينيين الملاك الذين يمثلون الجنود حملة الدروع والغالبية العظمى من أفراد الشعب الذين لا يملكون أرضاً . وقامت الحكومة الجديدة على أساس من هذا الائتلاف . ولم تدخل هذه الحكومة فى حلف مع إسبرطة ، كما لم تقبل الزعامة الإسبرطية . ومضت فى طريقها فى جرأة ، ودام حكمها مائة سنة ، سطرت لنفسها خلالها تاريخاً مجيداً .

وكانت أثينا قد اختطت لنفسها طريقاً سارت على هديه منذ بداية مرحلة الانقلابات الاجتماعية التى تعرض لها العالم الهلنى طيلة المائة والخمسين السنة الماضية . أما المحاولة الأولى لإقامة حكومة دكتاتورية فى أثينا فقد باءت بالفشل . ومن ثم حاول الطرفان المتنازعان الوصول إلى حل يرضى كلا منهما وذلك بالاتفاق ، فيما يتعلق بالسنة الحكومية ٥٩٤ ق.م ، على أن يخولا للحاكم السنوى الرئيسى سلطات خاصة ،

وأن يراعيا فيمن يتولى هذا المنصب أن يكون محل ثقة من الطرفين من حيث أمانته وعدالته . وكان سولون Solon هو الرجل الذى وقع عليه اختيار الطرفين ، وقد تحقق لهما فيه كل ما كانا يصبوان إليه . إذ سارع سولون إلى استئصال شأفة ثورة وشيكة بأن ألغى عقود ارتهان أراضى المدنيين ، وصكوك عبوديتهم الشخصية ، وسن قانوناً يحرم فى المستقبل منح القروض أو الحصول عليها على أساس من هذين الضمانين . ووضع أيضاً دستوراً سياسياً جديداً ، يقوم على أساس من تقسيم المؤهلات العقارية إلى مراتب معينة ، وكان هذا الدستور يتمتع فى الواقع بقسط كبير من روح التحرر لم يتيسر للدساتير التى وضعت لدول خليج كورنثوس بعد مضى ربع قرن على هذا التاريخ . كما لم يوافق سولون من ناحية أخرى على مبدأ تقسيم الضياع الكبيرة ، وبذلك أضاع عامداً الفرصة فى أن يقيم من نفسه دكتاتوراً ، حفاظاً على العهد الذى قطعه على نفسه . ولكنه عجز عن أن يجنب أثينا مصير الوقوع تحت طائلة أحد الطغاة فى الجيل التالى . وكان الثوار ما يزالون على سخطهم ، وسرعان ما تقدم بيزستراتوس Peisistratus الذى لم يكن شديد التمسك بالقيم ، على النقيض من سولون ، ليقوم بدور الدكتاتور . وتم له ما أراد فى محاولته الثانية . بيد أن بيزستراتوس كان يبدو عظيم الاعتدال مع ذلك إذ ما قورن بغيره من الطغاة . إذ سعى إلى أن يحكم أثينا Attica - كما قدر لأوغسطس أن يحكم العالم الهلنى بأسره فى مرحلة متأخرة من تاريخه - بالتحايل فى تطبيق نصوص الدستور القائم بدلاً من

تقويضه علانية . وكانت سياسته الاقتصادية ، شأنها شأن سياسة ستولون ، على جانب عظيم من الأهمية . ومن البديهي أنه قد أقدم على الخطوة الشورية التي أحجم عنها ستولون ، ألا وهى تقسيم الضياع الواسعة ، بيد أنه قد مضى قدماً فى الثورة الاقتصادية البناء التى بدأها ستولون ، وإلى ذلك يرجع الفضل فى أن أثينا لم تجابه ، بعد أن طرد هيبارخوس Hipparchus ابن بيزستراتوس فى عام ٥١٠ ق.م منها ، المصير ذاته الذى جابهته كل من سيكايون وكورنثة وميجارا .

واتخذت الثورة الاقتصادية صورة تحول عن نظام اقتصادى يقوم على الزراعة بقصد الاكتفاء الذاتى ، إلى نظام اقتصادى أساسه التخصص فى نوع الانتاج سواء الإنتاج الصناعى أو الإنتاج الزراعى ، بقصد الحصول على واردات من المواد الغذائية والمواد الخام مقابل السلع المصدرة من هذا الإنتاج . فمن الممكن أن يوفر الفدان من الأراضى الآتيكية أقوات عدد أكبر من الأثينيين إذ أنه ، بدلاً من زراعته حبوباً بقصد الاستهلاك المحلى ، غرس بالكروم وأشجار الزيتون التى تنتج النبيذ وزيت الزيتون ، وهما سلعتان يمكن المقايضة عليهما بغلال صقلية ومصر وأكرانيا . ولا جدال فى أن صافى الربح الذى يعود على الاقتصاد الأثينى سيزداد زيادة كبيرة إذا ما نقل إنتاج التربة الآتيكية من السواحل ، إلى المستهلك ، فى أوعية فخارية مبرقشة مزخرفة على نحو جذاب محبب . وبهذه الطريقة

يمكن إلحاق حقول القمح التى تتبع أوكرانيا ومصر وصقلية وكذلك مراعى الأغنام فى هضبة الأناضول ومناجم أتروريا Etruria بل والأراضى البعيدة عن الشواطئ التى تحرص عليها قرطاجة أشد الحرص والتى تقع فى شمال غرب أفريقية وجنوب غرب إسبانيا ، يمكن إلحاقها جميعاً باقتصاد العالم الهلنى ، وبخاصة عندما دعت الضرورة من جراء المقاومة القرطاجية والإترسكية إلى وقف حركة التوسع فى المنطقة التى يستعمرها المستوطنون الهلنيون ويفلحونها بأيديهم . وما كان لسولون أن يدرك هذه الحقيقة لو أنه لم يكن من رجال الأعمال . ولقد كانت الخدمة الجليلة الخالدة التى أسداها إلى أثينا هى حثه على تصدير النبيذ والزيت الذى تنتجه أتيكا ، ثم تشجيعه لهجرة الخزافين الأجانب وغيرهم من الصنائع الماهرة إلى البلاد .

هل قام سولون بهذا العمل الذى يعد الأول من نوعه من أجل بلاده وحدها أو من أجل العالم الهلنى جميعه ؟ لسنا فى مأمن من أن نهول فى تقدير الدور الذى قامت به أثينا فى هيلاس خلال القرون الثلاثة السادس والخامس والرابع ق.م ، لأن الجانب الأعظم من تاريخها بالصورة التى آل بها فى الوقت الحاضر ، جاء - بطريق مباشر أو غير مباشر- عن مصادر آثنية . فقد كانت أتيكا إلى عهد سولون بلداً متخلفاً . ولم تقم بأي دور فى حركة توسع العالم الهلنى بطريق الاستعمار فيما وراء البحار . كما أن رجال الأعمال فى أثينا كانوا يبلغون فى مستهل

القرن السادس ق.م جداً بعيداً من الندرة ، ولقد كان من بين الأسباب التى أدت إلى اختيار المواطنين الآثينيين لأخيهم المواطن سولون ، للقيام بدور الوسيط ، أن رجل الأعمال النادر الوجود كان يعتبر شخصاً محايداً فى مجتمع مازال يعتمد أساساً على الزراعة . ومن المرجح أنه قد كان هناك فى ميليتوس Miletus وكورنثة المعاصرتين مجتمع كبير من رجال الأعمال ، وذلك لأنه لم يكن لدى هاتين الدولتين - على خلاف أثينا التى كانت أراضيها الأصلية عادة عظيمة الاتساع - سوى المساحة العادية من الأراضي الصالحة للزراعة . ولذا فقد اضطررتا إلى الاتجاه أولاً إلى الاستعمار ثم إلى التجارة والصناعة . وعرفت ميليتوس السبيل إلى توفير أرزاق بنيتها عن طريق الإتجار فى السلع الكمالية فى مقابل غلال أوكرانيا ، والاشتغال أيضاً بصناعة غزل ونسج الصوف الذى يرد من فريجيا ، وظهر الفخار المصنوع والمزخرف فى كورنثة على الطريقة «الكورنثية الأصلية» فى الأسواق الدولية قبل ظهور الأوانى الفخارية الآتيكية ذات الزخارف السوداء بنحو مائة عام ، ولم تخرج المصنوعات الآتيكية إلى الأسواق الدولية إلا بعد انقضاء ما يقرب من عشرين سنة على حملة سولون التى كان يرمى من ورائها تشجيع الفخارين الآثينيين وحثهم على العمل . ولكن الأوانى الفخارية الآتيكية كانت قد استأثرت بالأسواق قبل أن ينتهى القرن السادس ق.م ، كما تحول فن زخرفتها إلى طريقة الأشكال الحمراء ، وهى طريقة تتميز بصعوبتها . ويعد قرار منح الحقوق

السياسية لغير أصحاب الأراضي من بين سكان أثينا بعد الإطاحة بالحكومة الدكتاتورية التي كانت قائمة هناك ، دليلاً آخر على أن حركة التصنيع كانت قد قطعت في أثينا بالفعل شوطاً أبعد مما قطعت في دول خليج كورنثوس ، حيث كان لرجال الأعمال والفلاحين من أصحاب الأراضي متضامين ، القدرة حتى ذلك الحين على الحيلولة دون اكتساب العمال الصناعيين لآى قسط من القوة أو النفوذ والحقيقة أننا إذا ما قارنا النظامين الأثينى والكورنثى بنظام الحكم الأرستقراطى الذى كان سائداً قبل الثورة ، لا يلبث أن يتضح لنا أن «الديمقراطية» الأثينية فيما بعد الثورة ، و«الأوليغاركية» أو نظام حكم الأقلية الذى كان سائداً فى دول خليج كورنثوس لم يكونا سوى وجهين مختلفين لنظام دستورى واحد ، فقد كان نظام الحكم الديمقراطى الذى اصطلحه كلايستينيز Cleisthenes فى أثينا عام ٥٠٧ ق.م نظاماً يقوم على أساس الأنصبة العقارية التى أصبحت تقريباً نظراً لصلاتها فى حكم الملغاة . وعلى هذا النحو أيضاً قضت نظم الحكم الأوليغاركية فى دول خليج كورنثة بمنح جانب كبير من السكان المذكور الذين بلغوا سن الرشد الحقوق السياسية إلى الحد الذى دعت فيه الحاجة فى هذه البلاد أيضاً ، كما فى أتيكا الديمقراطية ، لتصرف الشؤون العامة للبلاد عن طريق عرض الأمر أولاً على لجنة كبيرة تمثل نخبة لا بأس بها من الناخبين ، قبل أن يقدم إلى اجتماع عام ، وذلك لكى يأخذ ضرورة تسمح بعرضه على بساط البحث بين أعضاء

هذا الاجتماع الكبير الذى لا يسلس قياده . بيد أنه على الرغم من ذلك التشابه الكبير الذى كان قائماً بين هذين النوعين من الدساتير التى وضعت فيما بعد الثورة ، إلا أن الفوارق بين ما كان يخوله كل منهما من الحقوق السياسية تعد فى غاية الأهمية . ففى العالم الهلنى الذى أخذ بمساسة التصنيع قرابة نهاية القرن السادس ق.م ، ظفر البحارة المجدفون والصناع المهرة بذلك المركز الاجتماعى المرموق الذى كان قد ناله الفلاحون أصحاب الاراضى الذين كانوا يمثلون الجنود حملة الدروع قبل مائتى عام . وترجمت هذه الحقيقة العسكرية الاقتصادية الجديدة إلى لغة السياسة لأول مرة فى الدستور الأثينى الذى صدر عام ٥٠٧ ق.م ، وهكذا أصبحت الديمقراطية الأثينية «حركة المستقبل» .

وعلى ذلك فقد أطاحت النتائج السياسية التى ترتبت على الثورة الاقتصادية ، فى القرن السادس ق.م بالأرستقراطية الوراثية فى معظم الدول الهلينية . بيد أن الطبقة الأرستقراطية ظلت محتفظة بهيبتها بعد زوال امتيازاتها ، وذلك زهاء مائة عام . ففى ظل الديمقراطية الأثينية ذاتها ، وجد المصلح السياسى بركليس Pericles الذى تولى الحكم فى الفترة بين سنة ٤٦٢ ق.م. وسنة ٤٣٠ ق.م. أن من مميزاته السياسية البارزة انتسابه إلى أسرة الكمايونيدى Alcmaeonidae من ناحية أمه ، وكان الطاغية الصقلى أو رجل الأعمال الإيجينى فى القرن الخامس يكلفان نفسيهما عتاً فى سبيل الظهور بمظهر الأرستقراطيين ، بأن يحاولا

إحراز قصب السبق فى أحد الاحتفالات البانهلينية الأربعة ، ثم يكلفا الشاعر الطيبى بندار Pindar بنظم قصيدة فى الإشارة بهذا النصر .

ولاشك فى أن بذور الثورة الاقتصادية التى حققت أهدافها كاملة فى أثينا ، قد بثت منذ زمن بعيد يرقى إلى مستهل حركة التوسع الإقليمى للعالم الهلنى فيما وراء البحار . ويتطلب الاستعمار بطبيعة الحال إتقان فنون الملاحة ، ولاشك فى أن الملاحين الذين فتحوا الطريق أمام الزراعة المستعمرين كانوا ينضوون تحت كل من فئتي التجار والقراصنة فى الوقت ذاته . وإلى جانب التجارة والقرصنة ، كانت ثمة اعتبارات اقتصادية تتحكم فى اختبار بعض المستعمرات الهلينية . فتبدو كوماى Cumae - وكانت أقدم مستعمرة هلينية فى الغرب ، كما كانت تعد أقصى المستعمرات فى هذه الناحية على الإطلاق حتى تأسيس ماسيليا Massilia - كما لو كانت أثراً باقياً لمحاولة فاشلة للاستيلاء على الموارد المعدنية فى جزيرة إلبا وعلى الأراضى الإيطالية الأصلية المجاورة التى احتلها الإترسكيون . ومن ناحية أخرى فإن إنشاء مدينة بوسيديوم Paseideium ، والتى تقع عند مصب نهر العاصى فى سورية ، كان فيما يبدو بمثابة محاولة كتب لها النجاح إلى حد ما ، للقضاء على احتكار الفينيقيين للنشاط التجارى بين البحر المتوسط وحوض نهري دجلة والفرات . بيد أن الهدف الأساسى للاستعمار الهلنى ظل ، حتى نهاية القرن السادس ق.م ، قائماً على الحصول على أراض زراعية جيدة .

وعلى سبيل المثال ، فإنه عندما استعمر الميجاريون الشواطئ الجنوبية المتطرفة لخليج البوسفور ، وقع اختيارهم لمستعمرتهم الأولى على خلکیدونية Calchedon التي كانت تطل على الريفيرا البيثينية الممتدة على طول الشاطئ الشمالي لخليج إزميت Ismid ، ولم يقع على بيزنطة التي لم يكن من خلفها داخل القارة غير صحراوات جرداء . وقد أسست خلکیدونية عام ٦٨٥ ق.م . ، أما بيزنطة فلم تتأسس حتى عام ٦٦٧ ق.م ويروي هيرودوتس Herodotus الذي كان يكتب بعد مضي ما يزيد على مائتي عام على هذا التاريخ ، أن السياسي الفارسي ميجابازوس Megabazus ، أطلق على خلکیدونية ، عندما علم أنها قد أنشئت قبل تأسيس بيزنطة بثمانية عشر عاماً ، وكان ماراً بخلکیدونية في عام ٥١٣ ق.م أو بعد هذا التاريخ ، اسم «مدينة العميان» . فكيف سمح مؤسسوها لأنفسهم بأن يدعوا الفرصة لاحتلال موقع بيزنطة الذي كان شاغراً إذ ذاك ، تفلت من أيديهم ، مع ما له من مرفأ ليس له من نظير ، يتحكم به في حركة الملاحة بالمضايق ؟ وكان الجواب بالطبع ، هو أن ميجاريي القرن السابع لم يكونوا يسعون لتحقيق أغراض تجارية . بل كانوا يبحثون عن المزارع والحقول ، وكانوا بالفعل حقيقين بأن يوصموا بالعمى لو أنهم احتلوا أرض بيزنطة القاحلة وفضلوا إياها عن الريفيرا البيثينية الخصيبة . وسواء كانت هذه الملحة التي تنسب إلى ميجابازوس قد صدرت عنه حقيقة أم كانت من ابتداء أحد الهلنيين في

القرن الخامس ، فهي تقدم الدليل على أنه فى الوقت الذى ظهرت فيه إلى الوجود ، كان الهدف الأصلى من استيطان الهلنيين فيما وراء البحار قد أصبح نسبياً منسياً . إذ أن هذه الملحة تأخذ الأمر قضية مسلماً بها ، فى أن التجارة لا الزراعة ، كانت المصدر الرئيسى للرزق فى المدينة الدولة الهلينية . والحقيقة أن ذلك قد بات هو الحال قبل نهاية القرن السادس ق.م . نتيجة لثورة العالم الهلنى الاقتصادية التى شهداها هذا القرن . ولكنه وإن كان الهلينيون قد سلموا بالنتائج التى أسفرت عنها الثورة الاقتصادية ، إلا أنهم لم يقنعوا بتائجها السياسية .

وما إن قارب القرن السادس ق.م على الانتهاء حتى كان الهلينيون قد أوجدوا حلاً لمشكلة توفير أقوات السكان الذين كانوا فى زيادة مطردة داخل حدود زراعية غير قابلة للزيادة ، وذلك بأن حولوا البناء الاقتصادى للعالم الذى يعيشون فيه ، من مجرد كونه مجموعة من الجزئيات الصغيرة المنعزلة ، التى يمثل كل جزئ منها الأراضى التابعة لكل مدينة دولة على حدة ، إلى شركة اقتصادية ، لا تضم العالم الهلنى فحسب ، بل تشمل أيضاً معظم الأقطار الأخرى المتاخمة لشواطئ البحر المتوسط والبحر الأسود ، وهى الأقطار التى قدر لها أن تدخل ، بعد مضى ٥٠٠ سنة على هذا التاريخ ، ضمن الحدود السياسية للإمبراطورية الرومانية . وقد مكنت هذه الثورة الاقتصادية المدن الدول الهلينية من تخفيف حدة التوتر الداخلى الذى كان يولد الحروب الأهلية والثورات السياسية

والحكومات الدكتاتورية ، داخل حدود كل منها . كما استطاعت هذه المدن أن تستعيد أيضاً استقرارها الداخلى فى ظل حكومات جديدة » .
وسواء عرفت هذه الحكومات بحكومات الأقلية أو أطلق عليها اسم الحكومات الديمقراطية ، فهى قد أباحت حقوق المواطنة لجمهور كبير من سكان البلاد الذكور البالغين ، وذلك على خلاف الحكومات الأرستقراطية . بيد أن هذه الحلول التى وضعت لمشكلات العالم الهلنى الاقتصادية والمشكلة السياسية التى كانت تعانها على الصعيد الداخلى كل من المدن الدول التى تدخل فى نطاق هذا العالم ، لم تكن بكافية فى حد ذاتها لتحقيق الاستقرار الذى ينشده المجتمع الهلنى بأسره .

لقد كان من شأن الثورة الاقتصادية أن حققت التكافل الاقتصادى بين المدن الدول « على حين أنها تركت لكل منها السيادة السياسية على حظيرتها الصغيرة ، وكان فى ذلك تناقض خلىق بأن يقوض أركان البناء كله . وهكذا أصبح على المدن الدول أن تختار أحد سبيلين ، إما أن تعود إلى حالة العزلة الاقتصادية والعزلة السياسية أيضاً ، مع ما ينطوى عليه ذلك من خطر هبوط مستوى المعيشة فيها الأمر الذى سيعود بها القهقرى أيضاً إلى المجاعات والحروب الأهلية ، وإما أن تتنازل عن قسط كبير من سيادتها يكفل قيام كيان سياسى بانهلنى على نحو أو آخر ، يضارع النظام الاقتصادى البانهلنى الذى قدر له النجاح .

واعترضت طريق هذا الهدف السياسى الذى أصبح آنذاك هدفاً واجب التحقيق ، عقبة دينية ، فلقد ذهب الأمر بالمدن الدول الهلينية ، كما أسلفنا إلى أن أصبحت آلهات يتعبد لها مواطنوها . فهل كان فى وسع عبدة المدينة الدولة أن يقنعوا أنفسهم بالتحول بولائهم السياسى عن مدنهم المؤهلة إلى دولة بانهلينية ؟ لقد كان الأمر يتطلب قيام ثورة روحية ، فهل كان بوسعهم أيضاً القيام بمثل هذه الثورة ، على أن يعجلوا بها لكى يجنبوا أنفسهم مغبة الوقوع فى كارثة محققة ؟ وفى مثل هذه اللحظة الدقيقة ، أتاح الفرس للهلينيين فرصة ذهبية لكى يحلوا مشكلتهم السياسية التى تولدت عن الحلول التى أوجدوها هم أنفسهم لمشكلتهم الاقتصادية . فقد دفع الفرس الهلينيين إلى التكتل فى سبيل الدفاع عن أنفسهم بأن شرعوا فى تحقيق غرضهم فى ضم العالم الهلنى جميعه إلى إمبراطوريتهم .

الفصل السادس

مواجهة خطر العدوان الفارسي من الشرق

اصطدم الفرس على حين بغتة بالعالم الهليني ، عندما غزا إمبراطورهم الاول ، كورش Cyrus ملك أنشان Anshan ، أراضي ليديا Lydia الواقعة فيما وراء الساحل مباشرة في بلاد هيلاس الآسيوية ، وذلك في عام ٥٤٧ ق.م وكان الليديون قد فرضوا وصايتهم ، في النصف الأول من القرن السادس ، على جميع المدن الهلينية في القارة الآسيوية فيما عدا ميليتوس . ومن ثم أجبر الفرس الذين خلفوا الليديين في الحكم ، الهلنيين الآسيويين الذين كانوا من قبل من رعايا الليديين ، على الخضوع لهم بالتالى ، وتمكنوا أيضاً من فرض سيادتهم على ميليتوس . وفي عام ٥٢٥ ق.م. غزا مصر الإمبراطور الفارسي الثانى ، قمبيز ، وقرابة عام ٥١٣ عبر الإمبراطور الفارسي الثالث ، داريوس الأول ، خليج البوسفور وتمكن من ضم الجزء الجنوبى الشرقى من أوروبا حتى الضفة الجنوبية لنهر الدانوب الأدنى . وكان من جراء هذين

الانتصارين الأخيرين أن وقعت الحياة الاقتصادية للعالم الهليني جميعه تحت رحمة الفرس ، نظراً لأن مصر وأوكرانيا (والقطر الأخير لم يكن فى استطاعة الهلنيين أن يبلغوه إلا عن طريق المضائق) كانتا قد تحولتا إلى مخازن للغلال التى تحتاج إليها هيلاس ، بعد ثورتها الاقتصادية التى قامت فى القرن السادس .

وجنى الهلينيون الآسيويون بأندماجهم فى الإمبراطورية الفارسية مثل: ماجنى الفينيقيون من منافع ، فقد فتح ذلك أمامهم الأسواق التجارية الرائجة فى قلب القارة . فقد كان الهلينيون الآسيويون ، قد اکتوا كما اکتوى الفينيقيون من قبلهم -على خلاف الهلنيين الأوروبيين - بويلات عظيمة علمتهم كيف يقدرّون فضل السلام الفارسى . فعلى الرغم من أن بلادهم كانت تقع خارج مرمى الحكومة العسكرية الآشورية مباشرة، فقد تلقوا صدمة تدفق البدو الإترسكيين إلى جنوب غربى آسيا خلال القرن السابع ق.م ثم ما لبثوا أن فقدوا فى القرن السادس استقلالهم تماماً بعد غزو الليديين لبلادهم . وعلى أية حال فقد كان الليديون جيراناً فى دور التشرب بالحضارة الهلينية ، على حين كان الفرس من أنصاف البرابرة الغرباء الذين ينحدرون من هضاب جنوب إيران البعيدة القصية ، وقد أضفى هؤلاء على سيادتهم طابعاً بغيضاً ، بأن مارسوها بواسطة الطغاة المحليين ، فى الوقت الذى كانت فيه الحكومات الدكتاتورية قد أخذت فى الانهيار فى بلاد اليونان الواقعة فى

القارة الأوروبية . وفى سنة ٤٩٩ ق.م. خلع الهلينيون الآسيويون
حكامهم الدكتاتوريين ، كما رفعوا راية العصيان على سادتهم الفرس .
واعتمد لهيب الثورة إلى المدن الدول الواقعة على طول شواطئ المضائق
شمالاً ، ثم امتد صوب الجنوب الشرقى إلى قبرص أولاً ، وبلغ كاريّا
Caria فى نهاية الأمر . ولم تسحق بذور هذه الثورة حتى عام ٤٩٤ ق.م
الذى لقى فيه أسطول الشوار الهزيمة أمام الأسطول الفينيقي ، واستعادت
فيه القوات البرية الفارسية احتلالها لميليتوس المتزعمة للثورة ، ثم
كسرت شوكتها بأن نفت سكانها إلى داخل القارة . وكان الشوار خلال
المرحلة الأولى من الحرب يلقون العون من جانب مدينتي يونانيّتين من
مدن القارة الأوروبية ، هما أثينا وإرتريا Eretria . ورأى داريوس ألا
ضمان لاستباب الأمر له بعد سيطرته من جديد على رعاياه الهلنيين
الآسيويين المتمردين ، حتى تدين بقية أجزاء العالم الهليني لحكم
الفرس . وكان داريوس قد أرسل بالفعل قبل نشوب ثورة الهلنيين
الآسيويين حملة استطلاعية اتجهت شرقاً حتى بلغت «أصبع» إيطاليا
بإرشاد طبيب بلاطه الخاص ديموكيديس Dèmocèdes الذى اتفق أن
كان مواطناً لكروتون Croton المدينة الدولة الهلينية فى إيطاليا . وعلى
ذلك فإنه ما إن تمكن من قمع الثورة الآسيوية حتى أكد من جديد سلطانه
على ممتلكاته عام ٤٩٠ ق.م كان داريوس قد أخذ أهبة للانتقام من
إرتريا وأثينا .

ولاشك أنه قد تبين لداريوس أن المسرح السياسى المعاصر فى هيلاس الأوروية يهين له فرصاً سانحة للانقضاض على ضحاياه المنتظرين من المدن الدول الواحدة تلو الأخرى ، لأن هيلاس كانت إلى ذلك الحين أشبه فى حياتها السياسية ببيت منقسم على ذاته . فإن أقوى دولتين بها وهما إسبرطة وأثينا لم تكونا على وفاق مع بعضهما البعض . إذ كانت إسبرطة ماتزال تشعر بالاستياء إزاء ما أبدته أثينا مؤخراً من روح العصيان والتمرد ، على حين لم تبدت شكوك أثينا بعد فى نوايا إسبرطة بالنظر إلى رغبة إسبرطة فى إثبات حقها فى الزعامة . كما أن كلا منهما أثارت عداء أقرب جاراتها . فكان بين إسبرطة وأرجوس Argos ما صنع الحداد كما كان هذا هو الحال بين أثينا وبين كل من أيجينا Aegina وطيبة وخالكس Chalcis . ففى نحو عام ٦٦٩ ق.م ، وفى بداية عهد تطبيق نظام القتال فى صورة فيالق ، أنزلت أرجوس بإسبرطة هزيمة منكرة ، أتاحت فيما يبدو الفرصة للمسيين للقيام بأول ثورة من سلسلة ثوراتهم الكبيرة . وبعد أن تمكنت إسبرطة من إخضاع مسينا من جديد بأن أحالت نفسها إلى معسكر مسلح ، انقلب الميزان العسكرى بينها وبين أرجوس فى صالحها . وفى القرن السادس اقتطعت إسبرطة من أرجوس مدينة كاينوريا Cynuria الواقعة على الحدود ، فى نقطة من الساحل الشرقى تشبه جزيرة البيليبونيز ، ثم عالجها كليومينيز الأول Cleomenes ملك إسبرطة فى عام ٤٩٤ ق.م . (٩) بضربة قاصمة ، شلت حركتها إلى حين وإن لم تمنح مشاعر السخط والعداء بين أهلها .

وكان شعب أرجوس يؤثر أن يرسف فى أغلال العبودية تحت حكم
الفرس على أن يدافع عن استقلاله بالقتال جنبا إلى جنب مع الد أعدائه
ألا وهم الإمبرطيون . أما عن خالكس وطيبة فقد لقتهم أثينا درسا
قاسيا لاشتراكهما فى مهاجمتها وقت أن شرعت فى تطبيق دستورها
الديمقراطى . إذ انتزعت من خالكس بعد أن أوقعت الهزيمة بقواتهما
المشتركة ، سهل ليلانتين Lelantine الذى كان فى وقت ما موضع نزاع
بين خالكس وإوتريا ، وفرضت حمايتها على تلك المدينة المتمردة
الساخطة التى كانت تتبع طيبة فيما سبق ، وهى مدينة بلاتايا Plataea
الصغيرة فى بيوتيا Baetia ، وكانت هذه المدينة تتحكم فى أقصى
الممرات الغربية المفضية من بيوتيا إلى أتيكا . أما النزاع بين إيجينا
وأثينا فقد نشأ لأسباب تجارية . فقد بدأت إيجينا نهضتها مثل أثينا فى
وقت متأخر بيد أنها لم تلبث أن حققت تقدما مذهلا . وكان لنشاطها
التجارى مع مصر أثر كبير فى دعم نشاطها وأزدهار اقتصادها . وعلة ما
كانت تكنه هاتان الدولتان حديثا الثراء الواحدة للأخرى من كراهية هى
أنهما كانتا تشعران بأن العالم الهلينى لم يعد يتسع لكليهما معاً .

ولم تكن عدوى هذه المنازعات التى نشبت بين المدن اليونانية
التابعة للقارة الأوروبية قد سرت بعد إلى المجتمعات الهلينية الغربية فيما
وراء البحار ، ففى ذلك المجتمع الاستعمارى الحديث الذى لم يمحض
عليه من الوقت ما يسمح للميول المحلية فيه بأن تتبلور ، كان العمل

يجرى من أجل إقامة إمارتين تضم كل منهما عدداً من المدن الدول تحت زعامة كل من سرقوسة وأكراجاس . وكانت العلاقات بين الأسرتين المالكتين الاستبداديتين اللتين كانتا تقومان بهذا العمل الإنشائي علاقات طيبة بوجه عام . وكان من الممكن أن يؤلفا بتضافرهما قوة يخشى بأسها . ولكن داريوس كان يضع في حسابه أن يشل حركتهما بالتهديد بشن هجوم من جانب قرطاجة على وطنهما الأصلي .

بيد أن داريوس وخليفته أكسر كسيس ، قد وقعا عند وضعهما لخطة غزو ذلك الجزء من العالم الهليني الذى ظل إلى ذلك الوقت محتفظاً باستقلاله ، فى الخطأين الحربيين الجسيمين اللذين جرا إلى الكارثة المروعة التى حاققت بالبريطانيين عندما شرعوا فى غزو أفغانستان سنة ١٨٣٩ ، إذ استهان الفرس بالقوة المعنوية التى كانت لدى خصومهم الجدد ، وأساءوا تقدير مدى استعداد هؤلاء لأن يتغاضوا عن خلافاتهم الأسرية فى سبيل توحيد الصفوف ضد الدخيل المعتدى .

وحتى هذه اللحظة كان العمل فى بناء الإمبراطورية الفارسية فى جنوب غرب آسيا ومصر يجرى ، كما كان الحال فى الإمبراطورية البريطانية فى الهند ، وفى سرعة ويسر ، ذلك لأن بناء الإمبراطورية الفارسية كانوا إلى ذلك الحين يواجهون شعوباً تحطمت روحها المعنوية من جراء التجارب المريرة التى مرت بها ، وقد كان الفرس حتى هذا الحين يقتفون أثر الآشوريين والبدو الإترسكيين ، كما كان ضحايا هذه

الهرمات على استعداد لتقبل دواء السكينة والراحة الذى قدمه لهم نظام الحكم الفارسى غير الصارم . وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان بناء هذه الإمبراطورية الحديثة العهد أن يتحطم وينهار خلال الفترة التى خلا فيها للعرش ، بموت قمبيز فى ظروف غامضة ، كما أنه لم يزايل المصريين والبابليين قط طوال عهد الإمبراطورية الفارسية الشعور بأمجادهم الغابرة ، حتى إنهم لم يكونوا يملكون مقاومة الدافع إلى الثورة ضد الفرس كلما منحت لهم الفرصة لذلك ، وكان الفرس فى مهاجمتهم للهلينيين الأوروبيين يتحدون شعباً لم يقع تحت نير الاحتلال الآشورى أو الآسكى ولم يعان ويلاتهما . ولذا فقد كانت خطتهم عرضة لخطر لم يشهدوا مثيلها فى فتوحاتهم الماضية التى كانت تعد هينة سهلة بالقياس إلى هذه . ولكنهم عجزوا عن تبين الخطر الكامن قبل وقوعه ، ولذا فقد ساروا إلى كارثة محققة معصوبى الأعين .

وعند التعرض لقصة مشهورة ينبغى علينا أن نتوخى الإيجاز فى سردھا . ففي سنة ٤٩٠ ق.م. جرد داريوس Darius حملة بحرية احتلت إرتريا ونفت شعبها إلى داخل القارة ولكنها لم تلبث أن ارتدت مخذولة يجللها العار عند نقطة بعيدة عن شواطئ أثينا على ساحل الماراثون Marathon بعد أن منيت بالهزيمة ، أمام حملة الدروع الآثينيين تحت قيادة ميلتياديس Miltiades الدكتاتور السابق لشبه جزيرة غاليبولى Gallipoli (أو خرسونيس Chersonese الطراقية) الذى كان قد

انضم من قبل إلى الثورة الآسيوية ومن ثم كان عليه أن يفر إلى وطنه
أثينا . وقد أحرز الفيلق الآثيني هذا النصر دون أى عون خارجى إلا من
جانب سكان بلاتايا ، غير أنه من الجدير بالذكر أن إسبرطة أرسلت
قوات للمساعدة ، ولكن هذه القوات وصلت بعد فوات الأوان وانتهاء
المعركة . ثم أرجأ قيام ثورة مصرية أعقبها ثورة بابلية موعد المحاولة
الفارسية التالية لمهاجمة هيلاس الأوروبية مدة عشرة أعوام أخرى ،
وعندما خرج أكسركسيس Xerxes للقتال فى عام ٤٨٠ ق.م. رحف
بكامل قوته ، وتقدم بطريق البر ، وعبر الدردنيل وسار حول الشاطئ
الشمالى لبحر إيجه ، يصاحبه أسطوله فى كل تحركاته هذه . واتسمت
الاستعدادات الفارسية فى هذه المرة بالإحكام ، بيد أن تأخر الحملة على
هذا النحو كان وخيم العاقبة ، وذلك لأن عرقاً جديداً من الفضة كان قد
اكتشف فى المناجم الآتيكية فى لاوريوم Laurium ، كما استطاع
السياسى الآثينى ثيمستوكليس Themistocles أن يقنع مواطنيه عام ٤٨٢
ق.م بأن يتفوقوا هذه الثروة التى هبطت عليهم من السماء فى بناء أسطول
من السفن الحديثة ذات الطبقات الثلاث من المجاديف ، بدلاً من تفتيتها
على صورة مكافآت توزع على المواطنين . وكان هذا الأسطول لحظة أن
لاحت لأكسركسيس قمة جبل أوليمبوس ، قد أخذ أهيته للمعركة ، وقد
ثبت أيضاً أنه كان العامل الحاسم فى تقرير نتيجة الحرب .

ولم تحاول القوات الهلينية البرية التى كانت تخضع للقيادة
الإسبرطية أن توقف الغزاة عند ممر تيمبي Tempe كما عجزت عن

صدهم عند ممر ثرموبولاي Thermopylae ، إذ كانوا قد اخترقوا هذا الممر الآخر بالفعل ، قبل أن يضحي الملك الإسبرطى ليونيداس -Leoni das وقواته التي كانت تتألف من ثلاثمائة جندي ، بأنفسهم في المعركة . وهكذا دانت للفرس من بلاد اليونان الأوروبية رقعة تمتد إلى بيوتيا وتشملها . ورحب سكان طيبة بأكرسركسيس انتقاماً من أثينا . أما سكان أرجوس الذين استنفدت معركتهم الأخيرة مع الإسبرطيين ، قواهم تماماً ، والذين كانت تحاصرهم أيضاً قوات إسبرطة وحلفائها ، فلم يأخذوا أهبتهم للقتال ، في انتظار أن يرحبوا بدورهم أيضاً بمقدم أكرسركسيس ، وذلك انتقاماً من إسبرطة . وهكذا خرج ما لا يكاد يبلغ النصف فقط من قوات بلاد اليونان التابعة للقارة الأوروبية ، سواء البرية أو البحرية ، للقاء العدو المشترك . بيد أن هذا الثغر القليل استطاع التذرع بقسط وافر من التصميم والصبر والتضامن أتاح له إيقاع الهزيمة بالعدو .

ولم تحاول القوات البرية التابعة للحلفاء الهلنيين ، تحت قيادة إسبرطة أن تدافع عن أتيكا بل تقهقرت إلى خليج كورنثوس ، بيد أن تعرض أتيكا للغزو على هذا النحو لم يدفع الأثينيين إلى التسليم . إذ قاموا بإجلاء جميع سكان أراضيهم الأصلية إلى جزيرة سالاميس Salamis ، ولم يرتاعوا للروية الدمار الذي حل بريف أتيكا ، كما لم يجزعوا عندما شاهدوا أثينا وقد استبيحت للسلب والنهب . (وقد أشعل

الفرس أيضاً النار فى المعابد المقامة على الاكروبول (Acropolis) . واستطاع الاسطول الاثينى أن يحمى سلاميس بأن اتخذ مواقعه فى الممرات المائية الضيقة بين الجزيرة وأراضى القارة المواجهة لها ، واشتدت وطأة القتال وبلغت المعركة ذروتها عندما أشار قائد الاسطول الكورنثى ، بضرورة انسحاب الاسطول إلى خليج كورنثوس . وكان معنى ذلك إجبار الاثينيين على التسليم أمام أكسركسيس ، ولما كان الاسطول الاثينى هو عصب أساطيل الحلفاء ، فإنه كان مقلداً للفرس أن يحرزوا من وراء ذلك تفوقاً بحرياً حاسماً على سكان البليونيز ، وأن يطوقوا جناح العدو فى خليج كورنثوس بحراً ، كما طوقوه براً عند ممر ثومبولاي . وكان بوسعهم أن ينزلوا قواتهم على شاطئ أرجوس Argos . ويهاجموا خليج كورنثوس من الخلف . وقد تبين ثيمستوكليس الخطر المحدق ، كما تمكن من أن يحول دون وقوعه . فعمد إلى حيلة إرسال معلومات إلى أكسركسيس تزعم أن الاسطول الهلينى فى مأزق ، وتزين له سد المضائق عليه وخوض المعركة بها حيث لا قيمة للتفوق العددي . وانطلت هذه الحيلة على أكسركسيس ، فأحرر الحلفاء نصراً بحرياً ساحقاً ، وتأت لهم السيادة على البحر . وباتت خطوط مواصلات الجيش الفارسى عبر الدردنيل فى خطر من أن تقطع وشيكاً ، فانسحب أكسركسيس إلى الجانب الآسيوى ، تاركاً بعض قوات جيشه لتقضى الشتاء فى شمال اليونان رغبة منه فى القيام بهجوم آخر فى العام التالى . وفى هذه الأثناء شن القرطاجيون هجوماً

على الهلنيين الصقليين ، ومنوا أيضاً بهزيمة نكراء فى معركة بحرية دارت على نهر هيميرا Himera . كالتى منى بها الفرس فى المعركة البحرية التى دارت رحاها أمام شواطئ جزيرة سلاميس .

وكانت معركة هيميرا من المعارك الحاسمة . فقد أنهت الحرب فى الغرب فى صالح الهلنيين . وبلغ عدد الأسرى القرطاجنيين حداً كبيراً من الضخامة بحيث استطاع أهل أكراجاس أن يحولوا نظام الزراعة فى ريفهم الرطب من نظام الزراعة القائم على الاكتفاء الذاتى إلى الإنتاج الزراعى على نطاق واسع بأن جعلوا من أسراهم رقيقاً زراعيين ، وبذلك مهدوا السبيل فى الغرب لقيام ثورة اقتصادية وبيلة أخرى قدر لها أن تبلغ عنفوانها بعد مضى ما يقرب من ثلاثمائة أو أربعمئة سنة على هذا التاريخ . وقد جردت حملة أخرى على بحر إيجه عام ٤٧٩ ق.م . فى ربيع عام ٤٧٩ ق.م . عرض قائد الجيش الفارسى الذى تخلف فى شمال اليونان ، ويدعى ماردونيوس Mardonius ، شروطاً مغرية على الآثينيين كي ينضموا إليه . ورفض الآثينيون هذه العروض وناشدوا البليونيزيين العون بقواتهم البرية ، للحيلولة دون وقوع أراضي أتيكا الأصلية فريسة للاحتلال للمرة الثانية . بيد أن البليونيزيين لم يحركوا ساكناً ، وتمكن الجيش الفارسى من احتلال أتيكا من جديد . وقيل إن الآثينيين اضطروا إلى التهديد بالتسليم مالم يشترك حلفاؤهم معهم فى القتال . وما إن تقدمت قوات الحلفاء البرية المؤتلفة حتى انسحب

ماردونئوس إلى بيوتيا ، ووقعت المعركة البرية الحاسمة في هذه الحرب على أراضي بلاتايا ، وانتهت باندحار جيش مردونئوس غير أنه في اليوم ذاته حطم أسطول الحلفاء الأسطول الفارسي أيضاً عند كيب ميكالى Cape Mycalè على ساحل هيلاس التابعة للقارة الآسيوية . وسرعان ما هب الهلينيون الآسيويون للثورة ، وقضت قوات الهلنيين البرية والبحرية بقية موسم هذه الحملة في طرد الفرس من شواطئ خليج كورنثوس . وبانصرام عام ٤٧٩ ق.م كان الفرس قد فقدوا كل ممتلكاتهم الأوروبية فيما عدا بيزنطة وقلعة دوروسكوس Doriscus على شاطئ تراقيا الغربى ، كما فقدوا سيادتهم على الدردنيل ودالت دولتهم في هيلاس الآسيوية . وعادت حدودهم الشمالية الغربية إلى ما كانت عليه قبل أن يجبر كورث الهلنيين الآسيويين على التسليم له في عام ٥٤٧ ق.م وما تلاه .

ولم يثبت الفرس عجزهم عن غزو العالم الهليني فحسب ، بل إنهم أصبحوا الآن معرضين لخطر وقوع الإمبراطورية الفارسية في قبضة الهلنيين . ولم يكن فقدان الفرس لسيادتهم البحرية على شرقى البحر المتوسط نتيجة لمعركتى سلاميس وميكالى ، يبلغ من الخطر فى نظرهم ، ما للحقيقة التى أثبتتها معركتا الماراثون وثرموبولاي ، وهى تفوق الجندى الهليني حامل الفرع على رامي السهام الفارسي . وكان من المقروض أن يكون هذا القواس ، الذى كان يطلق سيلاً من السهام من خلف درج مستطيل خفيف الوزن مصنوع من الأغصان المجذولة يستر بدنه

لشقيقه فى آن واحد عند تثبيته على الأرض ، أكثر من ند للجندى حامل
الترس الدائرى الثقيل ، وسيف الطعن القصير ذى الحد الواحد . وكانت
أمرونة حامل الترس البدنية هى التى مكنته من النصر بأن جعلت فى
وسعه ، رغم الحمل الثقيل المعوق المتعلق بذراعه الأيسر ، أن يقطع
الأرض الحرام بأقصى سرعة وأن يشتبك مع رامى السهام فى قتال متلاحم
قبل أن يتاح للأول الوقت الكافى لإطلاق عدد كبير من نباله القاتلة .
والحقيقة أنه فى خلال ما لا يزيد عن مائة وخمسين سنة من تاريخ معركة
بلاتايا ، أطاحت بالفعل ، حملة تتألف من قوات هليينية ، بالامبراطورية
الفارسية ، وعلى الرغم من أنه من الواضح كل الوضوح أن حملتى ٤٨٠ ،
٤٧٩ ق.م كانتا بمثابة تجربة فاشلة بالنسبة للفرس ، إلا أنه لا يمكننا أن
نقطع بأنهما لم يكونا كذلك أيضاً بالنسبة للهليينيين . ففى الوقت الذى
منى فيه الفرس بهزيمة نكراء وتكبدوا خسارة فادحة فى الأراضى الواقعة
على حدودهم ، فقد عجز الهليينيون عن الإفادة من هذه الحرب باهتبال
الفرصة لتحقيق الوحدة السياسية التى كانت ضرورة لازمة مكملة للوحدة
الاقتصادية التى كانت قد تحققت بالفعل للعالم الهلينى . وبوجه عام
كان تعاونهم المؤقت هذا تعاوناً مشهوداً . فقد وافق الآثينيون على أن
تكون القيادة العليا للكورنثيين فى البحر ، والقيادة العليا للإسبرطيين فى
البر . واشترك حملة التروس الآثينيون والإسبرطيون كما اشترك البحارة
المجدفون الإيجينيون فى القتال جنباً إلى جنب . بيد أن هذه الأخوة فى

السلاح خلقت ظروفأ كان من شأنها أن تثير ارتياب كل طرف فى نوايا الطرف الآخر وتبعث على نفوره منه ، ولم تمض خمسون سنة حتى أدى هذا الشقاق إلى نشوب حرب آثنية بليبونيزية قوضت أركان الحضارة الهلينية . وكان من دواعى سرور الفرس أن يشهدوا كيف جلب الهلينيون على أنفسهم الخراب والدمار وذلك قبل مائة سنة من التاريخ الذى لقى فيه الفرس حتفهم على أيدي الهلنيين أنفسهم .

وفى هذه الأثناء ، كانت فترة نصف القرن (٤٧٨ - ٤٣٢ ق.م) التى شهدت تردى العالم الهلنى فى مهوى الانقسام الداخلى الذى انتهى به إلى الدمار والخراب ، هى ذاتها الفترة التى شهدت ازدهار الفنون فى هيلاس . وقد كانت هذه الفنون فى طور النماء منذ العصر المظلم الذى حل ببحر إيجة بعد أن انقضت غمة حركة الهجرة الجماعية Völkerwanderung بانبلاج عصر التوسع . بيد أن هذه الفنون ما لبثت أن تفتحت أكامها على حين بغتة ، نتيجة لموجة الابتهاج التى أعقبت ذلك الانتصار الذى بدا عجيباً مشهوداً والذى انتشل الهلنيين من براثن أفدح الأخطار التى كانوا قد شهدوها حتى ذلك التاريخ . ولكن أجل هذا التفجر المباغت للعبقرية الخلاقة ، كان قصيراً قصر حياة نبات «النجوم» الذى ينمو فى حوض البحر المتوسط فى موسم الربيع ، بيد أن ثماره باتت تراثاً خالداً للهلنيين أنفسهم ولل بشرية أيضاً من بعدهم .

وقد اتبع هذا الحافز على الخلق والإبداع فى جميع الشعوب الهلينية التى اشتركت فى الدفاع عن حياتها ضد الفرس . وكان لاصطدام

هَيْلاس الآسيوية التى كانت قد حصلت على استقلالها لفترة من الزمن «
 بالإمبراطورية الفارسية المترامية الأطراف وبقبائل البدو المنتشرة فى آسيا
 الوسطى فيما وراء الإمبراطورية الفارسية ، أن اتسع أفقها الجغرافى ومن
 ثم قوى بهذا القدر أيضاً الحافز فى نفوس بنيتها على الإبداع والخلق .
 وقد قام المؤرخ الكارى هيرودوتس الذى ولد رعية فارسية وعاش ليكتب
 تاريخاً عن بواذر ونتائج الحرب الفارسية الهلينية فى عامى ٤٨٠ - ٤٧٩
 ق.م . بزيارة الجانب الأعظم من العالم القديم ، مبتدئاً بمضايق جبل
 طارق ومنابع النيل ومتنهياً بالصين - التى أطلق أحد المستكشفين
 الهلنيين ، وكان قد بلغ نهاية رحلته فى أقصى الشرق ، إلا أنه ضل
 علامات الطريق عند عودته - أطلق على سكانها المتحضرين اسم
 «الشماليين فى الجانب الآخر» . وشهدت فترة ما بعد الحرب نفسها نشأة
 مدرسة تجريبية للطب فى جزيرة كوس Cos تقترب باسم أبقرات Eippo-
 crates . أما فى بلاد اليونان الأوروبية المعاصرة فلم تكن المآثر التى
 استوحيت من هذا الحافز المشترك ، تخصص الميدان العلمى ، بل تدخل
 فى مجال الأعمال الفنية الجمالية . وقد أحيا البليبونيزيون ذكرى موجة
 الابتهاج البانهلينى التى عمت الجميع ، بنحت مجموعة التماثيل التى
 أقيمت فى معبد الإله زيوس Zeus بأوليمبيا Olympia . ولكن الآثينيين
 بزوا البليبونيزيين وتفوقوا عليهم ، إذ كان الآثينيون هم الذين قدموا أعظم
 التضحيات فى سبيل القضية المشتركة كما أسهموا بالنصيب الأوفر فى

تحقيق النصر المشترك . وبلغت فنون الدراما والمعمار والنحت جميعها فى أتيكا غاية ازدهارها فترة السبعة والأربعين عاماً هذه .

وكانت الدراما (ومعناها الفعل الخاص بالطقوس الدينية) التى ظهرت فى أتيكا فى القرن الخامس بمثابة تغيير من حيث الشكل للأناسيد والرقصات الدينية التقليدية التى كانت ترتبط بعبادة الإله ديونيسوس Dionysus الطراقى الأصل الذى استوطن البلاد ، ولم يكن الهدف منها تثقيف النظارة أو تسليتهم . بل استدراج خصب الطبيعة بطريق السحر والإيهاء . وكان الموضوع الأسمى «للكوميديا» (التمثيل التكرى) هو زواج الإله . أما موضوع «التراجيديا» (تمثيل الماعز) فهو موته . وكانت هذه عبارة عن استعراضات جماعية تقوم بها فرق راقصة من الممثلين الذين يلبسون الأقنعة كما فى مسرحيات «النو» اليابانية ، يتنكرون فى صورة حيوانات شهوانية بغية استثارة القوى التناسلية فى الطبيعة . ومثل هذا الفحش الذى كان يحاط بالتقديس كان كذلك من السمات الشائعة المعروفة للكوميديا وللمسرحية الرابعة (التى يطلق عليها اسم المسرحية الساتورية Satyros) فى مجموعة من أربع تراجيديات .

ولم تقطع الدراما الآتيكية صلتها قط بأصولها الدينية . فكانت تعرض دائماً فى مسرح ديونيسوس فى أثينا تحت رعاية الكاهن الآثينى التابع لهذا الإله ، بيد أنها قد تغيرت وتبدلت خلال ثلاثة أجيال ، بفعل عبقرية شعراء مبدعين ، كان فى طليعتهم أيسخيلوس Aeschylus

(٥٢٥ - ٤٥٦ ق.م) ، وسوفوكليس Sophocles (٤٩٥ - ٤٠٦ ق.م). وقد قام هذان المبدعان الملهمان فى أول الأمر بفصل ممثل واحد ثم اثنين أو ثلاثة فى النهاية من بين أفراد الجوقة ، وبشا بذلك ، فى خلال رقصات الجوقة ، الحوار الدرامى ، كما لم يتقيدا بالموضوعين التقليديين المتعلقين بالإله ديونيسوس . فقد كانا يستمدان موضوعاتهما من كافة الأساطير الهلينية ، ولم يقدمتا للمسرح أبطال الملاحم فحسب ، بل قدما بطلاته أيضاً . وهكذا فإنه إبان العصر الذى قام فيه السياسى الأثينى بركليس Pericles بمناشدة النسوة الأحياء فى أثينا ألا يظهرن فى المجتمعات ، كانت النسوة الأسطوريات اللاتى يتتسبن إلى عصر الهجرة الجماعية - وكان يقوم بأدوارهن ممثلون من الرجال - يسيطرون على المسرح الأتيكى . وهكذا حول الكتاب المسرحيون أحد الطقوس الدينية القديمة إلى فن دنيوى جديد . وبلغت أعمالهم ذروة الازدهار فى أثناء هذا التغير والتحول .

أما المثالون الأتيكيون فقد وجدوا فى القرن الخامس فرصتهم المواتية فى مشروع إعادة بناء المعابد وتمائيل الآلهة على معبد الاكروبول بأثينا الذى دمره الفرس عام ٤٨٠ ق.م ، ولا زالت الآثار الباقية ؛ البرويلايا Propylaea (البوابة الأمامية) ، ومعبد إلهة النصر غير المجنحة (وقد مزق عنها جناحها حتى لا تستطيع قط أن تطير بعيداً عنهم) ، والإرخثيوم Erechtheum (معبد الزلزال) والبانثيون (معبد

العذراء) تقوم شاهداً على عبقرية المهندس المعماري إكتينوس Ictinus وزملائه ، التى ظهرت فى نقلهم فن صناعة الخشب إلى هندسة البناء . ولنا أن نسلم بعبقرية المثال فيدياس Pheidias ، لأنه ليس لدينا سوى نسخ رخامية رديئة مهوشة لتمثال أثينا Athènè الذى صنعة من الذهب المطعم بالعاج والذى أقيم فى القدس الداخلى لمعبد البارثينون ، كما أنه يتحتم علينا أيضاً أن نستند إلى قرائن أقل قوة من القرائن السابقة إذا ما حاولنا أن نرسم فى أذهاننا صورة التمثال الهائل الذى نحتة للإلهة أثينا بروماخوس Athènè Promachos (سيدتنا المقاتلة فى الصفوف الأولى). ويرجح أن نحت الإفريز والمياطيب البديعة التى كانت بمعبد البارثينون (وتشاهد فى الوقت الحاضر بالمتحف البريطانى) قد جرى تحت إشراف فيدياس أيضاً .

بيد أن أروع رمز على أثينا كما بدت خلال فترة «نصف القرن» لم يكن تمثالاً أو مبنى أو مسرحية بل كان نفساً إنسانية . كان سقراط بناء عملاقاً ينتسب إلى فئة الدخيل الخاصة بالجنود حملة التروس ، له وجه يشبه قناع الممثل المسرحى كما يبدو فى المسرحيات الساتورية ، ولكنك إن التقيت به فلن تلاحظ قسّمات وجهه ولن تفكر فى المهنة التى يحترفها . فستأمرك الشخصية التى تختفى وراء هذا الوجه وستجد نفسك مضطراً إلى أن تطيل النظر والتأمل فى الأفكار التى استخلصها من ذهنك بأن حملك على الدخول فى حوار معه ، خاصة وإن ركز عليك نظرتة الشهيرة التى تشبه «تحديق الثور» . وكان له أصدقاء من جميع الطبقات

فى أثينا وفى كثير من الدول الأخرى أيضاً . بما فى ذلك طيبة «على سبيل المثال» التى كانت فى المجال الدولى على علاقات غير طيبة مع أثينا خلال الفترة التى عاشها سقراط . بيد أن سقراط كان يتجاهل الخصومات الدولية عندما كان يختار أصدقاءه الشخصيين ، رغم أنه كان يحرص أشد الحرص على أداء الواجبات العسكرية وغيرها من الواجبات التى تفرضها عليه حقوق المواطنة الأثينية ، فى ظل القانون الأتيكى . بيد أنه كان يشوب مشاعر الود والإعجاب التى كان يبعثها فى الأشخاص الذين يعرفونه عن كثب ، شعور آخر بالرغبة والخوف . لأن الروح التى كانت تعمل فى هذه الشخصية الغربية لم تكن بروح إنسان عادى . أعلن وحى دلفى ذات مرة أنه أحكم بنى البشر جميعاً ، وكان سقراط يعمل بوحي نداء داخلى يصدر من أعماقه اعتاد أن يسميه «روحه الأليفة» . ودائماً ما كان هذا الإلهام يأخذ أسلوباً سلبياً فى الإشارة عليه مثلاً بالآ يفعل كذا . ولم يكن سقراط يعصى هذا الإلهام قط . وما إن حل عام ٤٢٣ ق.م. حتى كان صيته قد أصاب ذبوعاً كبيراً مما حدا بالكاتب المسرحى أرسطوفانيس Aristophanes أن يتخذه بطلاً هزلياً لإحدى مسرحياته الكوميديية . فصور سقراط فى مسرحية «السحاب» على أنه أستاذ لعلم الظواهر الجوية والسفسطة (وهو فن التلاعب بالالفاظ الذى ابتدع فى صقلية فى أواخر فترة «نصف القرن») . بيد أن هذه الصورة الهزلية كانت تقف على النقيض تماماً من الأصل الذى نقلت عنه . وكان سقراط ، فى مرحلة مبكرة من تاريخ تطوره الذهنى ، قد تحول عن دراسة

العلوم الطبيعية التى استحدثها الفلاسفة الهلينيون الآسيويون فى القرن السادس ق.م والثى كانت تمثلها أصدق تمثيل ، خلال حياة سقراط ، مدرسة أبقراط التجريبية فى الطب التى تقع فى جزيرة كوس الآسيوية . وكان سقراط قد أذهلته الاكتشافات التى توصل إليها أحد الفلاسفة الآسيويين المعاصرين ، ألا وهو أنا كساجوراس من كلازوميناى Anaxagoras of Clazomenae ، العالم الطبيعى الشهير الذى انتهى إلى الرأى القائل بأن الحقيقة المطلقة ليست هى المادة بل هى العقل . فوجه سقراط اهتمامه منذ ذلك التاريخ إلى دراسة عقول البشر وتأمل سلوكهم ، واستخدم فى ذلك فن الجدل ، لا لكى يتغلب على غيره من الناس بل كى يجعل منهم شركاء له فى البحث عن الحقيقة .

وكان من بين افتراضات سقراط أن ارتكاب الجرم لا يرجع إلى روح الشر بل إلى الجهل . فلو أن مرتكب الجرم كان يدرك أنه يرتكب جرماً ، لما أقدم عليه ، فالمرء يحاول دائماً أن يفعل الخير كما يبدو لناظريه . وهذه النظرة التى تعد صفة مميزة لسقراط كانت أيضاً صفة مميزة للخلق الهلنى ، ذلك لأنه كان من نقاط الضعف الثابتة لدى الهلنيين ، نزوعهم إلى ترجمة المسائل المعنوية الأدبية إلى عبارات غير أدبية . فقد اتسع استعمال لفظة «كالوس» Kalos بمعنى «جميل» ، فى مصطلحات اللغة اليونانية السائدة فى عصر سقراط ، بحيث أصبحت تعنى أيضاً «طيب» بمعناها الأدبى الخلقى ومعناها الجمالى . بيد أن هذه

المحاولة الرامية إلى الحط من المسائل الأدبية الخلقية بالقول بأنها مسائل تتعلق بالإحساس والذوق أو بالمعرفة ، ما لبثت أن عصفت بها الأدلة والقرائن . فلم تنكرها حقائق الحياة التى تمس معيشة الفرد فحسب ، بل وحضتها أيضاً بعض الأحداث العامة الشهيرة التى وقعت خلال ذلك العصر . وعلى سبيل المثال ، فإنه وإن كان من الواضح الجلى أن أعمال فيدياس وإكتينوس الفنية بقلعة أثينا كانت غاية فى الجمال ، إلا أنه كان من الواضح الجلى كذلك أن الإجراء الذى جعل بالوسع تحقيق هذه الروائع كان إجراء غير طيب من الناحية الأدبية ، فضلاً عن أن مثل هذا الإجراء الأثيم لم يتخذ عن جهل بحقيقته . ففى سنة ٤٤٣ ق.م ، وعندما كان سقراط فى نحو السابعة والعشرين من عمره ، أدلى الشعب الأثينى ، بإيعاز من بركليس بأصواته مؤيداً مشروعاً يقضى بتمويل عملية استبدال المعابد والتماثيل التى دمرها الفرس فى أثينا عام ٤٨٠ ق.م بغيرها ، من الاعتماد الذى كانت قد جمعت حصيلته من حلفاء أثينا . وكان هذا العمل أبعد ما يكون عن الأمانة والشرف ، لأن الغرض الذى من أجله وافق الحلفاء فى الأصل على المساهمة بالمال ، كان يختلف عن ذلك كل الاختلاف . فقد كان الهدف هو تديير الأموال اللازمة لتهيئة أسباب الدفاع المشترك ضد الإمبراطورية الفارسية . ولم يكن الشعب الأثينى فى إجراءاته أيضاً يتوخى جانب العدل ، لأنه كان من قبل ، يحصل الأنصبه قسراً من الحلفاء ، وإذا به الآن يوجهها وجهة غير

صحيحة دون إذن منهم . وفى الوقت ذاته ، أحبط الأثينيون علماً بحقيقة القضايا الخلقية المشينة التى ينطوى عليها هذا العمل ، لأن المشروع الذى أقروه بإيعاز من بركليس لقي اعتراضاً من جانب خصم بركليس السياسى ألا وهو ثوكيديديس Thucydides بن ميليسياس Melesias . فقد أهاب ثوكيديديس بإخوانه المواطنين أن يستجيبوا لنداء الأمانة والشرف فى نفوسهم ، ولكنهم أيدوا رغم ذلك مشروع بركليس ، لأن الموافقة عليه كان فيها الضمان لأن ينفق هذا الاعتماد المخصص للدفاع على صورة أجور تؤول إلى المواطنين الأثينيين ، إذا ما اشتغلوا عمالاً فى قطع الأحجار وسائقين لعربات النقل وبنائين ، لأسلحة وأن إبرام الصلح مع الفرس قد أنهى عملهم السابق كبجارة مجدفين فى الأسطول . وحسبنا هذا الإجراء الشائن ، دليلاً قاطعاً على أن سقراط كان ممعناً فى التفاؤل إذ تصدى لتحليل الطبيعة البشرية على هذا النحو

الفصل السابع

فشل إسبرطة وأثينا في تحقيق الوفاق السياسي

اختتمت فترة نصف القرن التي ازدهرت فيها الحضارة الهلينية إثر الانتصار المشترك الذي أحرز على الفرس في ٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م ، وذلك بنشوب حرب شعواء مدمرة بين الآثينيين والبليبونيزيين في سنة ٤٣١ ق.م وقد اضطرت بقية أجزاء العالم الهليني إلى الدخول في هذا الصراع ، كما لم يقدر للحضارة الهلينية أن تشفى من هذه الإصابة التي جلبتها على نفسها إلا بمقدار محدود ، وإلى حين أيضاً . وكانت لهذه الكارثة جذورها في التاريخ السياسي والعسكري الذي مر خلال الخمسين سنة الماضية ، لأن هذه الفترة لم تكن تمثل عصراً ذهبياً إلا في حدود ميداني الفنون البصرية والشعر . وكانت الحرب الآثينية البليبونيزية بين عامي ٤٥٩ ، ٤٤٥ ق.م نذيراً بما سيتكشف عنه المستقبل ، أما فيما قبل هذا التاريخ فقد كانت بذور الشقاق قد بثت خلال الفترة ذاتها التي كان

البليونيون والآثينيون يقاتلون فيها جنباً إلى جنب ضد الفرس عند غزوهم لبلاد اليونان الأوروبية .

وكانت جميع الدول التى تطوعت فى عام ٤٨٠ ق.م للاشتراك فى حركة المقاومة الهلينية ، بما فيها أثينا ، قد قبلت القيادة اللاكيدايمونية . أما حق إسبرطة فى قيادة العالم الهلنى ، فكان يستند إلى قوة فيلقها من حملة الدروع وبسالته أيضاً وإلى علاقة «حسن الجوار» التى أقامتها مع المدن اللاكيدايمونية التابعة لها (Perioeci) ومع حليفاتها فى خليج كورنثوس . بيد أن جيش إسبرطة النظامى العامل الذى يتألف من «نظراء» إسبرطيين إنما كان يعتمد على سخرة رقيق الأرض الميسينيين ، ولم تكن مهمة إخضاع هؤلاء العبيد حتى بالنسبة لذلك المجتمع الإسبرطى الذى اصطبغ بصبغة عسكرية تامة ، تسمح له بفائض من القوة يمكنه من العمل فيما وراء حدود إسبرطة ذاتها . ثم إن اضطبار الإسبرطيين على انكسارهم المخزى الذى لحق بهم فى عام ٥٠٨ ق.م عند تدخلهم العسكرى الثانى فى شئون أثينا الداخلية ، إنما يدل على أن الإسبرطيين كانوا يدركون بالفعل ، قبل أن يواجهوا خطر العدوان الفارسى على هيلاس ، أنهم قد استنفدوا كل طاقاتهم ، ثم إنه عندما اقتضت الظروف أن يقوموا على الرغم منهم بدور الزعامة على صعيد بانهلينى ، قبلوا ذلك دون شغف أو حماس . ولاشك فى أن واقعة تضحية الملك ليونيداس وجنوده الثلاثمائة بأنفسهم فى ثرموبولاي »

كلفت أروع وقائع الحرب الهلينية البليونيزية قاطبة وأشدّها استشارة
للخيال، ولكنها لم تسهم بشيء فى الانتصار الذى حققه الحلفاء فيما
بعد. وعلى النقيض تماماً من تاريخ الجندي الإسبرطى فى ميدان القتال
فقد كان تاريخ الدولة الإسبرطية هزيراً بائساً. فبعد أن فشلت إسبرطة
فى مد يد العون لاثينا فى اللحظة الحاسمة عام ٤٩٠ ق.م، كادت تمنى
بالفشل مرة أخرى فى عام ٤٧٩، وكانت السياسة التى تسير عليها طوال
هذه الحقبة هى التملص من التزاماتها كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.
كما أنه فى اللحظة الدقيقة من حملة سنة ٤٨٠ ق.م بذلت قصارى الجهد
كى تتسبب فى خسارة الحلفاء للحرب إذ أشارت بانسحاب أسطول الحلفاء
من سلاميس إلى خليج كورنثة. كما اقترحت إثر الانتصار المشترك فى
عام ٤٧٩ الذى حرر بلاد هيلاس فى كل من القارتين الآسيوية
والأوروبية، أن يجرى نقل الهلنيين الآسيويين من أوطانهم التى تحررت
واستقلت إلى موانئ المدن الدول الهلينية الأوروبية التى كانت قد
انحازت إلى جانب الفرس، وأشارت أيضاً بأن تبقى الحصون الأثينية
عارية من وسائل الدفاع لضمان عجز الفرس عن استخدام أثينا قاعدة لهم،
فى حالة إذا ما قاموا بغزو بلاد اليونان الأوروبية مرة أخرى.

وفضلاً عن ذلك فإن ذلك المجد الذى أضفاه على إسبرطة مصرع
الملك ليونيداس البطولى عام ٤٨٠ لم يلبث أن ذهب أدراج الرياح من
جاء المسلك الشائن الذى سلكه بوسانياس Pausanias خليفته المؤقت
والوصى على العرش. وكان بوسانياس يتولى القيادة العليا لقوات

الحلفاء فى بلاتايا عام ٤٧٩ ، وكان من سوء حظ إسبرطة ، أنه لم يلق مصرعه فى ساحة الشرف مثل ماردونيوس ، بل عاش ليتولى قيادة قوات الحلفاء التى حاصرت الحامية الفارسية فى بيزنطة . وعند ذلك شرع الوصى على العرش الإسبرطى فى محاكاة عظماء الفرس فى مسلكهم واقتضى الأمر استدعاءه إلى إسبرطة ، مجللاً بالعار ، بناء على طلب الحلفاء العاجل . وقد برهن سقوط بوسانياس عن العرش على أن «النظير» الإسبرطى الذى ينشأ فى ظل نظام وطنى غريب من شأنه أن يكبت النمو العادى المألوف للطبيعة البشرية ، عرضة للتردى فى مهوى الفساد الخلقى إذا ما أتيحت له الفرصة لكى يتذوق طعم الحرية ويمارس قدراً من السلطة عن طريق إرساله للخدمة العسكرية خارج بلاده . لقد كان فى ذلك خطر يهدد نظام الحكم نفسه ، فضلاً عن إساءته إلى سمعة إسبرطة فى هيلاس وإضراره بهيبتها . وقد قررت إسبرطة ، خشية أن تتعرض مرة أخرى لمثل ما تعرضت له من جراء نزق بوسانياس ، كما تبعتها فى ذلك حليفاتها فى خليج كورنثوس ، الكف عن الحرب ضد الفرس ، كما لم تبد أية معارضة عندما وضع الهلينيون الآسيويون الذين نالوا حریتهم ، أنفسهم تحت قيادة أثينا بدلاً منها .

ولو كان قدر للحلف الهلنى الذى أوقع الهزيمة بالفرس فى ٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م أن يظل متماسكاً ، لكان قد توفر لهذه الكتلة من الدول - بمساندة الهلنيين الآسيويين الذين تم تحريرهم - قدراً من القوة يتيح لها

أن تتحول إلى اتحاد بانهلينى عام . بيد أن تحول الهلنيين الآسيويين بولائهم من إسبرطة إلى أثينا عام ٤٧٨ ق.م أدى إلى انقسام العالم الهلينى إلى كتل ثلاث. كانت هناك الكتلة البليسونيزية التى تكونت قبل الحرب تحت زعامة إسبرطة. وكان هناك اتفاق ما قبل الحرب، فى صقلية ، بين إمارتى سرقوسة وأكراجاس. ثم تألفت الكتلة الجديدة تحت زعامة أثينا . وضم الحلف الجديد الدول الهلينية الآسيوية ، سواء التى كانت تقع منها داخل القارة أم تقع فى جزر الأرخيبيل الإيغى وتخضع لحكم الفرس (وتشمل هذه جميع دول جزر بحر إيجه فيما عدا جزيرتى ميلوس Melos وثيرا Thera ، ودول جزيرة كريت) ، كما ضم الدول الواقعة بجزيرة أيوبويا Euboea ، التى لم تخضع للحكم الفارسى إلا فى عامى ٤٨٠ و ٤٧٩ ق.م فحسب ، وإن كانت أثينا قد احتلت بعض أجزائها عام ٥٠٦ ق.م

وتقلد الأثينيون زعامة أحدث الكتل الثلاث وأضخمها بفضل ما أسهموا به من نصيب كبير فى خدمة القضية المشتركة فى ٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م فقد بذل أسطولهم ، فى سبيل كسب الحرب ، من الجهود ما لم يبذله الفيلق اللاكيدايمونى بأكمله ، كما أن ما أبدته نساؤهم وأطفالهم من جلد وصبر وأناة إبان محنة إخلاء دورهم فى أراضى اليونان الأصلية ، يكاد لا يقل بطولة عما قام به الثلاثمائة جندى بقيادة ليونيداس من تضحياتهم بأنفسهم فى ميدان القتال ، كما أنه كان ذا أثر أكبر من أثر

هذه التضحية فى إحباط خطط الغزاة الفرس . لقد ضحى الآثينيون بدولتهم من أجل إنقاذ هيلاس . وكان البذل والتضحية والسفءاء من جانبهم لا من جانب الإسبرطيين . وقد قام الآثينيون بهذا الدور مستلهمين نظام حكمهم الديمقراطى ، كما أدى انتصار أثينا إلى ازدهار هذا النظام السياسى الذى اتخذته شعاراً لها . وشهدت فترة «نصف القرن» النظام الديمقراطى يتشرب فى جميع أنحاء العالم الهلينى . إذ سعت أرجوس إلى أن تبعث فى كيائها روحاً جديدة فأتجهت إلى الأخذ بالنظام الديمقراطى وذلك قرابة عام ٤٧٠ ق.م كما أن مدينة إليس Elis حليفة إسبرطة المتخلفة أخذت بالنظام الديمقراطى فى ٤٧١ - ٤٧٠ ق.م . وحدثت سرقوسة حذوها عام ٤٦٦ ق.م ، وكان من نتائج ذلك التعديل ، غير المباشرة ، أن انقسمت الإمارة السرقوسية من جديد ، إلى قسم يشتمل على المدن اليونانية وقسم يضم المدن الصقلية الوطنية .

كانت هذه هى العوامل التى كان من شأنها أن تثير النزاع بين أثينا وإسبرطة فضلاً عن أن السياسى الآتيكى الداهية ثيميستوكليس Themistocles قد اتهم بأنه يتحين الفرص لتحطيم قوة إسبرطة ، رغبة منه فى أن يجنب نفسه المتاعب فى المستقبل . غير أنه لم يكن من السهل إقناع الآثينيين بأن يقلبوا ، بين عشية وضحاها ، على حليفتهم السابقة لكى يمزقوها إرباً . وعندما شكى البليونيزيون ثيميستوكليس إلى مواطنيه ، اضطر إلى الفرار نجاة بنفسه وقضى بقية حياته فى خدمة

إمبراطور فارس ، واعتبر ذلك نصراً سياسياً لكيمنون Cimon بن ميلتياديس Miltiades الذى كانت سياسته التى رسمها لأثينا ترمى إلى الإبقاء على العلاقات الطيبة مع إسبرطة مع تركيز الجهود لمواصلة الحرب ضد بلاد فارس . وكان الفضل فى الشهرة والمكانة اللتين نالهما كيمنون فى أثينا يرجع إلى تمكنه من سحق هجوم فارسى مضاد فى معركة حاسمة وقعت فى عام ٤٦٦ ق. . تقريباً على شواطئ نهر أوريميدون Eurymedon فى بمفيليا Pamphilia ، التى تتوسط ساحل آسيا الصغرى . بيد أن الحياة السياسية التى عاشها هذا الرجل الذى كان أعظم أصدقاء إسبرطة فى أثينا ، ما لبثت أن تحطمت على صخرة الحقد المتزايد الذى كان يكنه الشعبان الإسبرطى والآثينى لبعضهما البعض .

وفى عام ٤٦٤ ق.م أتاح زلزال مدمر وقع فى إسبرطة ، الفرصة لعبيد الأرض للقيام بثورة أخرى من سلسلة ثوراتهم وحوادث تمردهم المتكررة . وقد دعا الإسبرطيون حلفاءهم إلى مدهم بالمساعدات العسكرية ، كما أقنع كيمنون الآثينيين بإرسال فرقة من الجنود . وكان هؤلاء الجنود يقومون بعملهم فى غير حماس أو إقبال ، لأنهم لم يكونوا ليروا ثمة ما يدعو لأن يكلفوا أنفسهم عبء مساعدة الدول المنافسة لهم فى هيلاس ، لكى تستعيد قوتها . كما كانوا ينفرون من أمر تقديم العون فى سبيل فرض النير الإسبرطى من جديد على رقباء رقيق الأرض . وعلمت الحكومة اللاكيدايمونية بمشاعرهم ، فطلبت إليهم الانسحاب ،

وعجلت هذه الإساءة من وقوع ثورة فى أثينا . وما لبث الشعب الأثينى أن انقاد إلى سياسيين متطرفين هما إفيالتيس Ephialtes وبركليس Pericles . وفى الجبهة الداخلية ، أسفر استفتاء أجرى على قطع الفخار ، إلى الحكم على كيمون بالنفى مدة عشر سنوات وذلك فى عام ٤٦١ ق.م ، كما ألغيت بعض القيود الدستورية المتخلفة التى كانت تقيد من حرية النظام الديمقراطى فى أثينا . وفى الوقت ذاته عقدت أثينا اتفاقات ودية مع جارة إسبرطة وعدوتها اللدود فى البليسونيز ، ألا وهى أرجوس ومع شعب تساليا أيضاً . وكان هذان الشعبان من الشعوب الهلينية الأوروبية الرئيسية الثلاثة التى انحازت إلى جانب الغزاة الفرس من ٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م . ولم تحاول أثينا أن تنشئ علاقة صداقة مع الدولة الثالثة وهى جارتها وعدوتها اللدود طيبة ، ولكنه كان من المنطقى أن تعقد صلحاً من جانبها مع الإمبراطورية الفارسية خاصة وأن رأيها قد استقر على أن إسبرطة هى «العدو رقم واحد» بالنسبة لها . ولعل ثيمستوكليس كان بسبيل أن يقدم على محاولة إقناع الأثينيين بأن يقطعوا كل هذا الشوط ما لم يكن قد حكم عليه بالنفى فى واقع الأمر ، ولكنهم ساروا تحت زعامة بركليس (وكان إفيالتيس ، زميل هذا السياسى الشاب ، الذى كان يكبره سناً ويفوقه تطرفاً ، قد اغتيل) ، الذى كان يسير فى سياسته على نهج سياسة كيمون التى تقضى بمواصلة الحرب ضد الإمبراطورية الفارسية على نطاق بالغ الجرأة والطموح بعد أن نقض الأثينيون سياسة «حسن الجوار» تجاه إسبرطة وهى السياسة التى أنقذت أثينا من خطر

القتال فى جبهتين فى وقت واحد . وفى عام ٤٦٠ ق.م انشقت المدينة الدولة الواقعة على خليج كورنثوس ألا وهى ميجارا Megara ، عن الاتحاد البليونيلى ، وانضمت إلى الاتحاد الأثينى ، ومادامت ميجارا قد وقفت إلى جانب أثينا فلم يكن ثمة خوف من وقوع غزو بليونىلى على أتيكا من ناحية البر .

وفى عام ٤٦٢ ق.م قام المصريون بثورة من ثوراتهم المستمرة ضد الحكم الفارسى ، وفى ٤٦٠ - ٤٥٩ ق.م جرد الأثينيون بناء على متاشدة المصريون عونهم ، حملة بحرية كبيرة إلى أعالى النيل وبذلك أوردوا أنفسهم فى عمليات حربية طويلة الأمد ، واسعة النطاق ، فى ذلك الميدان القصى البعيد . ولم يمض وقت طويل على وفاء الأثينيون بهذا الالتزام المجحف القاصم للظهور ، حتى هاجموا البليونىلى وسدوا الطريق على أيجينا ؛ غريمتهم فى الميدان التجارى ، ورد الإسبرطيون وحلفاؤهم البليونىلىون على ذلك فى عام ٤٥٧ ق.م ، بأن عبروا خليج كورنثوس إلى بويوتيا وقاموا بتحسين طيبة من جديد ، وكانت أسوارها (كما يمكننا أن نستنتج) قد جردت من وسائل الدفاع ، عقاباً لها على موقفها من الغزو الفارسى . فانتقم الأثينيون لذلك بأن احتلوا منطقة وسط اليونان جميعها ، فيما عدا طيبة والأراضى التابعة لها حتى ممر ثرموبولاي غرباً ، وأجبروا أيجينا على التسليم ، بيد أن هذا الانتصار الذى أحرزته أثينا فى جبهة مخالفة لم يكن لينقذها من كارثة محققة

بمصر . فإن هجوماً فارسياً مضاداً ما لبث أن شل حركة الحملة الآثينية في أول الأمر ثم أبادها عن بكرة أبيها في ٤٥٥ - ٤٥٤ ق.م. وبعد عودة كيمنون من المنفى عام ٤٥١ نصبته أثينا قائداً لجيشها ضد الفرس ثم نفضت يدها من اليونان بأن عقدت هدنة مع البليونيزيين مدتها خمس سنوات ، مقابل التخلي عن تحالفها مع أرجوس . بيد أنه بعد وفاة كيمنون ، دون أن يفلح في تحويل دفة الحرب الآثينية الفارسية لصالح أثينا ، عقدت أثينا صلحاً مع الإمبراطورية الفارسية في ٤٥٠ - ٥٤٩ ق.م. وقد أراح ذلك عن كاهلها عبء حرب ما فتئت تخوضها بين الحين والحين منذ خمسين عاماً . ولكن ذلك لم يحل في سنة ٤٤٧ ق.م. دون ضياع جميع الفتوحات التي كانت قد أحرزتها في اليونان الوسطى قبل عشر سنوات ، كما أنه عندما نفذت مدة هدنتها مع البليونيزيين في عام ٤٤٦ ق.م. كادت أن تخسر أيوبويا Euboea ، ولكنها خسرت ميجارا بالفعل ، التي كانت قد انشقت عن الاتحاد البليونيزي وانضمت إليها عام ٤٦٠ (؟) ق.م. ومهدت ثورة ميجارا السيل لهجوم بليونيزي وشيك على أتيكا ، واضطرت أثينا عام ٤٤٥ إلى عقد صلح مع الاتحاد البليونيزي تم الاتفاق بموجبه على صون السلام مدة ثلاثين عاماً .

والحقيقة أن أثينا قد أثقلت في طيش كواهل بنيتها ، خلال الفترة التي دانت فيها لزعامة بركليس وتبلغ ستة عشر عاماً بين ٤٦٠ و ٤٥٥ ق.م. ، بأعباء تتجاوز حدود طاقتهم . ويسجل نقش آل إلينا ، أنه في

خلال موسم حربي واحد وهو موسم ٤٥٩ - ٤٥٨ ق.م، خسرت إحدى «الأمم» العشر التي قسم إليها الشعب الأثيني بموجب دستور عام ٥٠٧ ق.م، ما يقرب من ١٧٠ جندياً قتلوا في ميادين القتال بقبرص ومصر وفينيقياً وذلك خلال المعارك التي نشبت مع الفرس ، وفي هاليس Halieis وأيجينا وميجارا حيث دارت المعارك مع البليبونيزيين . ومن المرجح أن خسارة «الأمم» الأثينية التسع الباقية وخسارة المستوطنين الأجانب في العام ذاته ، بلغت الدرجة نفسها من حيث ضخامة العدد ، وتعتبر هذه نسبة فادحة من الخسارة في الأرواح ، حتى وإن قدر المجموع الكلي لسكان أثينا الذكور الذين كانوا في سن التجنيد إبان هذه الحقبة ، سواء من المقيمين الأجانب أم من المواطنين بأربعة آلاف أو خمسة آلاف نسمة . غير أن بروكليرس كان قد وعى الدروس التي لقتها إياه السياسة الخارجية ، ومن ثم فإنه خلال الخمس عشرة سنة التي انتهت بسقوطه عام ٤٣٠ ق.م. لم يجر بلاده إلى أية حرب كان يعتقد في قرارة نفسه أن من الممكن تجنبها ، ولكنه قطع بأثينا أشواطاً أخرى في سبيل تحويل الاتحاد الهليني المعادي للفرس إلى إمبراطورية آثينية ، وكانت هذه الخطوة التي جرت إلى إفساد العلاقات أكثر فأكثر بين أثينا وحلفائها السابقين هي السبب الأساسي في الحرب الثانية التي نشبت بين أثينا وبين الاتحاد البليبونيزي والتي انتهت بتفكك الإمبراطورية الأثينية وانهيار الحضارة الهلينية .

وقد استهل الاتحاد الذى عقد فى عام ٤٧٨ ق.م، من أجل الدفاع المشترك ، بين أثينا والدول الهلينية التى تحررت من الحكم الفارسى ، حياته ، استهلالاً طيباً . وكانت المهمة الأولى المدرجة فى جدول أعمال الحلفاء الجدد هى تقرير الأنصبة التى ينبغى على الدول الأعضاء أن تسهم بها من أجل القضية المشتركة ثم الصورة التى ستكون عليها هذه الأنصبة . وقد أنيطت مهمة التفاوض فى هذا الشأن إلى السياسى الأثينى أرسطايديس Aristides ، فقام بمهمته مستوخياً جانب القسط والعدل وظهر فى صورة وضاعة كريمة تقف على النقيض تماماً من المسلك الشائن الذى سلكه أخيراً بوسانياس الرصى على العرش الإمبرطى .

وثمة قانونان فارسىان اهتمدى أرسطايديس بهما فى وضع الأسس التى سار عليها فى هذا الصدد . فقد كان أرتافرينيس Artaphrenes شقيق داريوس الأول قد أعاد تقدير الجزية التى كانت تؤديها المدن الهلينية الآسيوية ، وذلك بعد قمعه لثورتها عام ٤٩٤ ق.م ، كما حملها على أن تعقد معاهدات تجارية فيما بينها حتى يتسنى الفصل بالطريق القانونى فى المنازعات التى تنشأ بين مواطنى الدول المختلفة حول المسائل التجارية ، بدلاً من السير على العادة البربرية القديمة التى كانت تقضى باحتجاز أية ممتلكات خاصة بمواطنى دولة الطرف الآخر فى النزاع ، بطريق القوة ، حتى يوفىوا بديونهم . كانت هذه أسساً كاملة تصلح للتطبيق عند إقامة اتحاد اختياري بين أثينا والدول التى كانت قد حررتها هى بالفعل

من الحكم الفارسي . أما العبء الرئيسى الذى كان ينبغي أن تواجهه إجماعات الاتحاد الجديد فقد تمثل فى تكاليف إنشاء أسطول مشترك ، وكان من الواضح أن أثينا يتمضى فى الإسهام بالنصيب الأكبر من السفن والبحارة ، نظراً لأنه كان لديها بالفعل أسطول عظيم . وفى وسع للدول الأخرى التى ليست على قدر كبير من الثراء أن تقدم فرقاً بحرية . بيد أن تكاليف بناء أو تأثيث أو صيانة سفينة حربية واحدة من الطراز الجديد الباهظ الثمن ، الذى بدأت أثينا فى صنعه منذ ٤٨٢ ق.م ، كان يتجاوز حدود إمكانيات كثير ، بل غالبية ، الدول الأعضاء فى الاتحاد . وعلى ذلك فقد تم الاتفاق توخياً للعدل ومحافظة على مستوى الكفاءة لدى الأسطول ، على أنه بوسع أية دولة ، بدلاً من أن تقدم سفينة أو عدة سفن ، أن تدفع نصيباً سنوياً من المال ، يقدره أرسطايديس ويودع فى خزانة تابعة للاتحاد تقام على جزيرة ديلوس Delos المقدسة . وينظر إلى هذا الدخل على اعتبار أنه معونة مالية للأسطول الأثينى ، بالنظر إلى أن أثينا كانت تقوم بتوفير الجانب الأعظم من السفن .

وحازت هذه التدابير القبول من جانب جميع الأطراف المعنية التى تقبلت الأمر بصدر رحب . ونال أرسطايديس على تقديراته المقسطة الحكيمة ، لقب «العادل» . بيد أن المتاعب ما لبثت أن ثارت فى وجه الاتحاد الجديد . فعندما حاولت الدول الأعضاء - وبخاصة تلك الدول التى لم تعد حدودها بعد ، مثل الدول الأيونية وناكسوس Naxos

وثاسوس Thasos ، تتاخم حدود الإمبراطورية الفارسية مباشرة - أن تنشق عن الحلف ، نظرت أثينا إلى هذا الانشقاق على أنه خيانة عظيمة ، وقامت بإخضاع المنشقين بحد السيف ، ورغبة منها في ضمان عدم تمكنهم من القيام بمحاولة أخرى ، حرمتهم من سفنهم الحربية وفرضت عليهم أنصبة مالية سنوية باهظة ، وفى عام ٤٥٤ ق.م نقلت خزانة الاتحاد من ديلوس إلى أثينا (بحجة أن ديلوس أصبحت معرضة لهجوم الفرس بعد كارثة الأسطول الآثيني فى مصر ، الأمر الذى لم يكن يدعمه أى دليل). وحين عقدت أثينا الصلح مع بلاد فارس فى ٤٥٠ - ٤٤٩ ق.م ، كان عدد دول الاتحاد التى مازالت تقدم السفن ، بغض النظر عن أثينا ، لا يتجاوز السبع دول ، وهذه هى ساموس Samos وخبوس Chi-os وخمس دول تقع فى جزيرة ليوس Lesbos . أما بقية الدول فقد كانت تؤدى جميعها الجزية .

وكان على الدول الواقعة على الشاطئ الغربى للقارة الآسيوية وعلى الجزر المجاورة للشاطئ أن تتكبد فى سبيل تحريرها السياسى (كما كان الحال مع تريستا فى عام ١٩١٨ وما تلاه) خسارة اقتصادية فادحة . إذ قطع ذلك الصلة بينها وبين أسواقها التجارية فيما وراء الساحل داخل الإمبراطورية الفارسية ، وذلك لقيام ستار عسكرى فيما بينهما . وقد وضعت معاهدة الصلح الآثينية الفارسية لعام ٤٥٠ - ٤٤٩ ق.م، هذه الدول ، من الناحية العسكرية ، تحت رحمة الطرفين المتعاقدين ، إذ

نصت على تجريد حصونها من وسائل الدفاع . ويبدو أنه لم يتفق ضمن
نصوص هذه المعاهدة على أن تستأنف هذه الدول نشاطها التجارى الضائع
مع الاقطار الفارسية الواقعة فيما وراء الساحل ، أما وقد وضعت الحرب
أوزارها ، فإن جميع الدول التى كانت تسهم بأنصبة مالية فى اتحاد
ديلوس أصبحت تنتظر على أية حال أن يزاح عن كاهلها هذا العبء
المالى .

ولكن هذا الأمل الذى لم يكن فى الواقع ينطوى على مغالاة أو
شطط ، أدى إلى أزمة سياسية داخلية فى أثينا . فمن بين الآثار التى
ترتبت على تكوين اتحاد ديلوس ، على النمط الذى اتخذته خلال الثلاثين
سنة الماضية ، أن أصبح العمل فى وظائف البحارة المجدفين فى
الأسطول الأثينى من بين المصادر الرئيسية للورق بالنسبة لسكان المدن
الذين لا يملكون أرضاً وهم الغالبية العظمى من شعب أتيكا ، وكانت
هذه الأجور تدفع من الاعتماد المالى المتجمع من أنصبة حلفاء أثينا .
وكان لابد أن تنتشر البطالة على نطاق واسع فى أثينا ، ما لم توجد
السبل إلى استمرار الموارد المالية اللازمة لدفع الأجور نفسها للعدد ذاته
من المواطنين الأثينيين فى مقابل وظائف أخرى غير الخدمة فى
الأسطول . فهل كان من الممكن إيجاد وظائف جديدة تدفع من أجلها هذه
الأجور إلى بحارة الأسطول الأثينيين المسرحيين ؟ ثم إنه ، إذا لم يكن
فى وسع ميزانية أثينا الوطنية الخاصة أن تتحمل هذا العبء المالى
الرهيب بصفة دائمة ، فهل من العدل أن يجرى تمويله من الأنصبة التى

تجبي من الدول الحليفة ، وقت السلم ؟ لقد كان بركليس سياسياً نبيلاً (فقد كان سليل أسرة أرستقراطية من ناحية أمه) وكان الفضل في انصياح الشعب الآثيني له وخضوعه لزعامته يرجع إلى تقدير هذا الشعب لما يتمتع به بركليس من صفات طيبة . بيد أن رعامته لم يكن يقدر لها ، في مثل ذلك النظام الديمقراطي الذي كانت تسير عليه أثينا آنذاك ، أن تصمد أمام كارثة التعطل الشامل . وعلى ذلك فقد أخذ بركليس بالرأى القائل بأن أنصبة الحلفاء المالية التي تؤدي للخزانة المشتركة إن هي إلا أقساط تدفع لأثينا للتأمين ضد خطر قيام الفرس بعدوان جديد ، وأنه طالما واصلت أثينا أداء رسالتها ، سواء بالحروب البحرية أم بالمعاهدات في كف يد الإمبراطورية الفارسية عن إيذاء رعايا الإمبراطورية الهلنيتين السابقين ، فإن من حق أثينا بعد ذلك إنفاق المال على الوجه الذي تشاء . واقترح بركليس أن ينفق المال في هذه المرة على إعادة بناء المعابد الهلينية التي دمرها الغزاة الفرس في ٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م ، والحقيقة أن هذه لم تكن في الواقع غير المعابد المقامة على قلعة أثينا . ولقد أخذ ثوكيديديس بن ميليسياس على عاتقه القيام بدور أرسطايديس في الجمعية الوطنية الآثينية ، بيد أنه عندما أصبح على الجمعية أن تختار بين إنصاف الحلفاء وبين العمل على بقاء الوظائف العامة المجزية على ما هي عليه ليشغلها أفراد من بين أعضائها ، ما لبثت أن طغت المصلحة الذاتية على حكمها . وكان من نتائج هذا القرار الذي اتخذ عام ٤٤٣ ق.م ، خلق أعمال فنية آثينية غاية في الإبداع والكمال ، أعقبه تحليل

وانهيار وسقوط الحضارة الهلينية التى كانت هذه الأعمال من إنتاجها البارز الرائع ، ومن آثارها المجيدة الدالة عليها .

وكان العمل كمحلف ، من الوظائف العامة المجزية الأخرى فى أثينا وكانت هيئة المحلفين تضم عدداً كبيراً من الأعضاء ، وتوسع فى حالة الفصل فى قضايا معينة بحيث تستوعب المجموع الكلى للمواطنين الذين يتمتعون بحق التصويت فى الجمعية الوطنية ، وقد أصبح هؤلاء بفضل مساعى بركليس ، ينقدون على خدماتهم ابتداء من سنة ٤٥١ - ٤٥٠ ق.م فصاعداً . وقد أخذت أثينا منذ عام ٤٧٨ ق.م تستأثر ، شيئاً فشيئاً بالنشاط التجارى للعالم الهلنى على حساب حلفائها الهلنيين الآسيويين وحلفاء إسبرطة على خليج كورنثوس . وكان معنى ذلك أن نسبة متزايدة من الدعاوى القضائية التى كان يرفعها المتخاصمون من مواطنى دول مختلفة تعمل بموجب معاهدات ثنائية ، باتت ترد إلى المحاكم الأثينية للفصل فيها . وفى هذا الصدد ، أساءت أثينا استخدام سلطتها لدى حليفاتها ، بأن أجبرتها على أن ترسل قضاياها إلى أثينا لحسمها هناك ، حتى ولو لم تكن هذه القضايا تختص بمسائل تجارية فى نظر الأثينيين على ميزتين ، ميزة اقتصادية تتمثل فى توفير مزيد من الأجور التى تثول إلى المحلفين الأثينيين ، وميزة سياسية تتمثل فى إتاحة الفرصة للضرب على أيدي المواطنين الأثرياء فى الدول الحليفة ، الذين هم أقرب إلى أن يكونوا من المعادين لأثينا ، نظراً لأن الجزية كانت

تحصل من خزائنتهم ، ثم لاسترضاء شعوب هذه الدول التى لا يحتمل أن تكن غير الولاء لاثينا ، لأنها لم تكن تخسر شيئاً بل تجنى الكثير من وراء تحالف بلادها مع الديمقراطية الاثينية .

وما إن حل عام ٤٥١ - ٤٥٠ ق.م ، حتى كانت حقوق المواطنة الاثينية قد عظمت قيمتها إلى الدرجة التى أدت بالجمعية العامة إلى أن تصدر ، بناء على طلب بروكليس ، قراراً يقضى بالاعتصار فى منح حقوق المواطنة على من بوسعهم إثبات أن كلاً من أبويهما كان مواطناً أثينياً . وقد اتسمت حركة التطهير التى أجريت لجمهور المواطنين بناء على هذا القرار بعد مضى خمس سنوات على تاريخ صدوره ، بالعنف والشدة البالغين .

وهكذا لقيت الديمقراطية الاثينية ، فى غضون ثلاثين سنة ، المصير ذاته الذى لقيته الديمقراطية الإمبرطية من قبلها . فقد تحولت إلى «زعامة» عسكرية طفيلية تحتفظ بريقق للأرض (وهم «الحلفاء» الذين يؤدون الجزية) وتابعين Perioeci (وهم الحلفاء الذين ظلوا يتمتعون بامتياز الإسهام بالفرق البحرية) . لقد أعلن كليون Cleon الذى خلف بروكليس فى زعامته السياسية للشعب الاثينى ، وذلك خلال المرحلة الأولى من الحرب الاثينية البليونيزية ، والذى لم يكن من النبلاء مثل بروكليس وإن خلت نفسه من كل نفاق ، أعلن لمواطنيه فى صراحة قاتلة أن أثينا ، قد أصبحت «دولة دكتاتورية» وأنه لا أمل لها فى الاحتفاظ بسلطتها الاستبدادية إلا بانتهاج سياسة تقوم على الإرهاب .

ولقد كان لانحلال اتحاد ديلوس وتحوله إلى إمبراطورية آثينية وقعا مؤسفاً اليماً . ذلك لأن العالم الهليني لم يكن فى حاجة إلى شىء بقدر ما كان فى حاجة إلى ذلك الاتحاد السياسى الوثيق بذاته ، لا من أجل الدفاع عن نفسه ضد الإمبراطورية الفارسية فحسب ، بل من أجل إقامة الإطار السياسى - كما أوضحنا من قبل - اللازم لنظام التكافل الاقتصادى الذى أصبح حقيقة ملموسة . ولو أن الأثينيين استطاعوا أن يكبحوا جماح أنفسهم ومن ثم أمسكوا عن سوء استغلال تلك الثقة التى نالوها ، على اعتبار أنهم المتزعمون للاتحاد ، دون أن يسعوا لتحقيق مصالح وطنهم الخاصة المحدودة ، لكان من المحتمل أن تؤدى الحركة الاقتصادية الداعية إلى الوحدة السياسية الوثيقة إلى أن يظل اتحاد ديلوس قائماً على أساس اختيارى غير إجبارى ، كما قد يتحول بمضى الزمن إلى شكل من أشكال الوحدة السياسية الاختيارية التى تضم العالم الهليني بأسره . غير أن الوجهة التى اتخذتها سياسة أثينا تحت زعامة بركليس لم يكن من شأنها إلا أن تؤدى إلى تجدد معارك التقتيل والإبادة بين الإخوة الهلينيين وإلى انهيار الحضارة الهلينية ، ثم توحيد العالم الهليني سياسياً فى النهاية على يد الجيوش الرومانية الجبارة .

وقد نشبت الحرب بين أثينا والاتحاد البليونيزى ، مرة أخرى عندما اختل ميزان القوى الضعيف الذى أقيم عام ٤٤٥ ق.م ، وذلك من جراء النزاع الذى نشب بين المستعمرة الكورنثية كوركيرا Corcyra (كورفو

(Corfù) وابنتها إبيدامنوس Epidamnus (دورازو Durazzo) ، وهما المدينتان اللتان تتحكما في الطريق البحرى الموازى للشاطئ الذى يتجه من بلاد اليونان التابعة للقارة الأوروبية إلى الغرب ، وقد استنجدت إبيداموس بكورنثة واستغاثت كوركيرا بأثينا ؛ ولم تكن أى من كورنثة أو أثينا تشعر بأن فى مقدورها التخلّى عن المدينة التى طلبت حمايتها استجابة لملتبس الدولة الأخرى ، كما قررت إسبرطة كارهة تأييد حليفها كورنثة ، خشية أن تنشق كورنثة عن الاتحاد البليونيزى من ناحية . ومن ناحية أخرى فلإن تحول اتحاد ديلوس فى اطراد إلى إمبراطورية آثينية كان من شأنه دعم قوة أثينا بصورة تبدو كما لو كانت تهدد بالخطر حرية العالم الهلنى بأسره . ومما هول من هذه المخاوف ما أقدمت عليه أثينا عندما ضربت حصاراً اقتصادياً على عضو انضم من جديد إلى الاتحاد البليونيزى ، وهى مدينة ميجارا التى تجاور أثينا على خليج كورنثوس ، وذلك عقاباً لها على رفضها التحول من جانب إلى آخر للمرة الثانية . وتقع أراضى ميجارا على ضفتى خليج كورنثوس فى الناحية المواجهة لأثينا من كورنثة . وكان هدف بركليس هو سد الطريق البرى حتى لا يتمكن الجيش البليونيزى من أن يزحف منه على ريف أثينا مرة أخرى ، كما فعل عام ٤٤٦ ق.م. ولما كانت أثينا لا تقوى على الوقوف فى وجه الاتحاد البليونيزى برأ ، فقد كانت تلك أضعف نقطة فى بنيانها ، كما أنه عندما ثار النزاع حول ميجارا وباتت مغنماً لمن

تكون له الغلبة على خصمه ، لم تكن طائفة ملاك الاراضى فى أتيكا يقتل من مواطنى إسبرطة زهداً فى الحرب . بيد أن الكلمة العليا فى الجمعية الوطنية الآثينية ، كانت لسكان المدينة الذين لا يملكون أرضاً وهم يمثلون الغالبية العظمى من الناحبيين الآثينيين ، وقد استطاع بركليس أن يقنع هؤلاء بمواصلة تأييدهم لكوكيرا حتى ولو أدى ذلك إلى الدخول فى حرب مع البليونيزيين ، على أساس أن أثينا سوف لا تدافع براً إلا عن نطاق أسوارها الضخمة الهائلة - مع ما قد يودى إليه ذلك من تخريب الغزاة لريف أتيكا - فى الوقت الذى تشن فيه غارات بحرية انتقامية ، أملاً فى إنهاك قوى الجيوش البرية كما أنهكت ميليتوس قوات ليديا من قبل .

وفى الجولة الأولى من جولات الحرب التالية - وقد استغرقت هذه عشر سنوات (٤٣١ - ٤٢١ ق.م) رجحت كفة بركليس أمام الكورثيين ، رغم أن القوات البرية التى كان يمتلكها الحلف المعادى لأثينا قد تعززت بانضمام قوات طيبة إليها . ولم يكن بركليس يقدر عظم الخسارة فى الأرواح التى قد يسفر عنها وباء من الأوبئة ينتشر بين اللاجئين الوافدين من ريف أتيكا الذين تكدسوا ، طلباً للأمن ، فى الفراغ القائم بين الأسوار التى تصل أثينا بموانئها (وقد مات هو نفسه متأثراً بهذا الوباء فى عام ٤٢٩ ق.م بعد أن امتدت به الحياة حتى طرد من منصبه عام ٤٣٠) كما لم يكن يتوقع أن يتمكن البليونيزيون لا من غزو ريف أتيكا براً

فحسب ، بل غزو الدول الخاضعة لاثينا على طول شاطئ بحر إيجه الشمالى البعيد . وعلى أية حال فقد لقي القائد الإسبرطى براسيداس Brasidas ، كما لقي كليون خليفة بركليس ، مصرعهما عام ٤٢ ق.م . عند أمفيبوليس Amphipolis ، قبل أن يصل براسيداس إلى الدردنيل ، ويقطع بذلك شريان الحياة بالنسبة لاثينا ، وهو الذى تأتىها عن طريقه مواردها من قمح أكرانيا . وفى عام ٤٢١ ق.م أبرم الصلح على أساس المبدأ القائل : « لكل ما يملك uti possidetis » . وفيما عدا دول خلكيديكى Chalcidice التى حررها براسيداس ، والتى كانت تخضع لاثينا من قبل ، ظل بنيان الإمبراطورية الاثينية سليماً ؛ كما أن حلفاء إسبرطة فى خليج كورنثوس انشقوا عنها إلى حين نفوراً وسخطاً . بيد أنه بالرغم من هذا الدليل الجديد على أن الحرب لا تفيد ، لم تستقر الأحوال ببلاد هيلاس .

أما الجولة الثانية من الحرب التى استغرقت تسعة أعوام (٤١٣ - ٤٠٤ ق.م) فقد نجمت عن اعتداء أثينى طائش وقع فى عام ٤١٥ على سرقوسة التى كانت تعتبر أقوى دولة هلينية فى صقلية . وانتهت هذه المغامرة عام ٤١٣ ق.م بإبادة قوات الحملة الاثينية . ثم شنت إسبرطة الحرب على أثينا من جديد ، وفى هذه المرة أقامت قاعدة دائمة للعمليات على أرض آتيكية هى ديكيليا Decelea ، وأنشأت أسطولا ، بلغ من القوة ، استناداً إلى مساعدة فرقة بحرية سرقوسية ومعونة مالية فارسية

أثينا ، ما مكنه من تحدى سيادة أثينا في بحر إيجه . واستطاعت أثينا
أن تخرج هزيمتها المحتمومة بجهود جبارة ، تكاد تتجاوز حدود الطاقة
البشرية . ولكنه عندما دمر آخر أسطول لها عام ٤٠٥ ق.م في مياه
الدردنيل ، لم تجد بداً من التسليم . وعند ذاك حررت بقية الدول التي
كانت خاضعة لها ، وهدمت الأسوار التي كانت تربط أثينا بموانئها ،
كما اقتلعت أيضاً الأسوار التي كانت تحيط بهذه الموانئ ذاتها .

والنتيجة الوحيدة التي أسفرت عنها هذه الحرب ، هي أن إسبرطة قد
ورثت الإمبراطورية البحرية التي خسرتها أثينا ، كما أسست إمبراطورية
برية خاصة بها تكونت من الاتحاد السابق لبلاد اليونان التابعة للقارة
الأوروبية ، وهو الاتحاد الذي كانت تقف منه موقف الزعيمة الدستورية ،
منذ زمن بعيد ، وسرعان ما ظهر أن الحكام العسكريين الإسبرطيين
(الذين كانوا يدعون رسمياً باسم «الضباط») يفوقون أسلافهم جباة
الضرائب الآثينيين تعسفاً وشدة . وبعد ذلك عندما نشبت الحرب بين
إسبرطة وبلاد فارس عام ٤٠٠ ق.م حول مسألة الوضع القانوني الذي
سيناله رعايا الإمبراطورية الفارسية السابقين من الهلنيين في المستقبل ،
تدخلت أثينا عام ٣٩٣ ق.م بأسطول جديد أنشأته بمعونة مالية فارسية .
وفيما بين عامي ٣٨٧-٣٨٦ أبرم صلح آخر لم يكن فيه حسم للأمور -
بناء على شروط أملتتها حكومة الإمبراطورية الفارسية - تنازلت إسبرطة
بمقتضاه للإمبراطورية الفارسية عن الدول الهلينية الواقعة في القارة

الآسيوية (بما فيها كلازوميناى Clazomenae وهى دولة تقع على جزيرة فى مواجهة الساحل) . وفى مقابل ذلك قررت حكومة الإمبراطورية الفارسية اعتبار جميع الدول الهلينية الأخرى دولاً مستقلة ذات سيادة (وكان معنى ذلك أن إسبرطة قد أصبحت طليقة اليد فى تحطيم أية اتحادات أو ائتلافات معادية) . وقد حل الإسبرطيون بالفعل الاتحاد البويوتى لتقليم أظافر طيبة التى لم تعد تلزم جانب الهدوء والسكينة كسابق عهدها ، وفى عام ٣٨٢ ق.م تمكنوا من احتلال قلعة طيبة ذاتها بضربة واحدة . بيد أن هذا الإجراء الإسبرطى غير المشروع ، انتهى بخذلان الحامية الإسبرطية وانسحابها عام ٣٧٩ ثم بهزيمة منكرة للجيش الإسبرطى أمام الطيبين عند لوكترا Leuctra فى بويوتيا ، وذلك عام ٣٧١ . وتابع الطيبون انتصارهم بغزو لاكونيا Laconia (وكانت هذه أول مرة فى التاريخ يقع فيها بصر النسوة الإسبرطيات السليطات على قوات عدو مغير ، فاستبد بهن الذعر والهلع ، وجلبن بذلك العار على وطنهم) . ولم تسقط مدينة إسبرطة أمام جيش طيبة ، ولكن قوة إسبرطة كانت هى التى تحطمت على صخرة الدهاء السياسى الطيبى . ففى عام ٣٧٠ ق.م رد القائد الطيبى إياماينونداس Epameinondas إلى رقيق الأرض الميسينيين حريتهم ، وهى التى لم يقطعوا الأمل قط فى نيلها ، كما أنه رغبة منه فى توفير الضمان لاحتفاظهم بها ، عاونهم على تنظيم أنفسهم فى مدينة دولة مستقلة تتمتع بمركز بلدى محصن منيع . يقوم

حول مركز مقاومتهم التاريخى ، ألا وهو جبل إيثومى Ithomè . وفى عام ٣٦٩ ق.م سعى إلى غلق حدود إسبرطة الشمالية بأن جمع شتات الاقاليم الصغيرة التى كانت تقع فى جنوب غرب أركاديا Arcadia فى مدينة دولة جديدة مزودة بمركز بلدى منيع حصين ، وهى ميجالوبوليس Megalopolis . وهكذا قدر لإياماينونداس أن يدخل التاريخ من أوسع أبوابه ، قبل أن يلقى مصرعه عام ٣٦٢ ق.م فى معركة غير حاسمة وقعت فى مانتينيا Mantinea ، حصل فيها الإسبرطيون على عون أعداء طيبة القدامى ، ألا وهم الآثينيون .

ولم يكن هناك أدنى أمل فى أن تفلح طيبة فى فرض الوحدة السياسية على العالم الهلنى بعد أن فشلت أثينا ومن بعدها إسبرطة فى تحقيق هذا الهدف . وكان الد خصوم طيبة هى الدول البويوتية الشقيقة ، التى حاولت طيبة أن تضمها فى بنائها السياسى دون جدوى ، كما باءت بالفشل أيضاً محاولات طيبة فى سبيل فرض سيطرتها على جيران بويوتيا فى الغرب ، وهم الفوكايون الذين اكتسبوا قوة رهيبة فى عام ٢٥٥ ق.م باستيلائهم على الثروات الطائلة التى تكدست بخزانة معبد دلفى البانهلنى ، واستخدامهم لها فى اكتراء قوات من الجنود المرتزقة (وقد كانت موارد هؤلاء إذ ذاك وفيرة تتمثل فى «اللاجئين» الذين شردوا من أوطانهم بفعل الحروب المتصلة والثورات الوطنية) . ولم تطل محاولات الفوكايين كما طالت محاولات الطيبين . ففى عام ٣٤٦ ق.م منوا

بهزيمة ساحقة على يد فيليب الثانى ملك مقدونيا الذى كان يعمل بموجب تفويض حصل عليه من مجلس كهانة دلفى . وبهزيمة فوكيس Phocis فتح الطريق أمام الجيش المقدونى للزحف إلى قلب اليونان الوسطى . وفى عام ٣٣٨ ق.م أحرز فيليب انتصاراً حاسماً على القوات الطيبية والأثينية المتحدة ، وذلك قرب خيرونيا Chaeronea فى بويوتيا . ثم قام فى كورنثة فى العام ذاته بتكوين اتحاد تحت رعاية مقدونيا ، ضم جميع دول اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية فيما عدا إسبرطة . وشملت هذه الوحدة السياسية بين الدول الهلينية تحت رعاية مقدونيا جزءاً من العالم الهلنى أعظم مساحة مما شمله أى من الاتحادات السابقة، بيد أنها قد شاركتها جميعاً فى قصر أجلها .

ولا ينبغى أن يكون تقديرنا للأضرار التى نجمت عن تلك الحروب التى اجتاحت قلب العالم الهلنى مدة ثلاثة وتسعين عاماً قائماً على الناحية المادية وحدها . فقد كانت الأضرار الروحية أجل وأعظم ، وهذا هو ما أوضحه ثوكيديديس بن أولوروس Thucydides son of Olorus الذى كان قائداً بحرياً أثينياً خانه التوفيق والذى لم يكذب يشرع وهو فى المنفى فى التاريخ للحرب التى بدأت عام ٤٣١ ، حتى عاجله الموت قبل أن يبلغ من قصته عام ٤٠٤ ذاته . وقد أخذت هذه الحرب صورة حرب أهلية دارت رحاها داخل كل دولة بين أنصار المذاهب السياسية المختلفة، فضلاً عن كونها حرباً دولية قامت بين كتلتين مختلفتين من الدول . أما

عن الحرب الدولية فقد وصمت بكثير من الفظائع ، مثل ما لحق بمدينة بلاتايا البويوتية حليفة أثينا من تخريب وتدمير على يد الطيبين وحلفائهم البليبونيزيين عام ٤٢٧ ق.م ، ثم عدوان أثينا الغاشم سنة ٤١٦ ق.م على ميلوس Melos التى لم تكن غير دويلة مسالمة محايدة ، وكذلك المعاملة البشعة التى لقيها أسرى الحرب الآثينيون الذين اعتقلوا فى محاجر سرقوسة إثر الكارثة التى لحقت بالحملة الآثينية فى صقلية عام ٤١٣ ق.م ثم المذبحة التى أقامها الإسبرطيون لأسرى الحرب الآثينيين عام ٤٠٥ ق.م فى أعقاب معركة أيجوسبوتامى Aegospotami . كما ارتكبت خلال الحروب الأهلية والثورات الداخلية ، جرائم أخرى تفوق هذه فظاعة ويشاعة ، مثال ذلك المذابح التى تعرض لها المحافظون فى كوركيра من جانب المتطرفين عام ٤٢٥ ق.م ، وحوادث القتل والاغتيال التى ارتكبت فى أثينا بتفويض من لجنة الثلاثين (وهم الثلاثين دكتاتورا) التى تولت الحكم مدة التسعة أشهر ، التى احتجبت خلالها النظام الديمقراطي ، إثر انهيار سيادة أثينا البحرية .

وعندما كان أنصار الجانب الخاسر فى هذه المنازعات الداخلية يلوذون بالفرار من البلاد ، نجاة بحياتهم ، فإنهم كانوا يتحولون إلى «لاجئين مشردين» . وقد ازداد عدد هؤلاء المشردين المبعدين عن أوطانهم زيادة كبيرة حتى أصبحوا فى النهاية يؤلفون عنصراً ثابتاً من عناصر الحياة الهلينية ويمثلون طبقة بعينها لا تدخل فى إطار المدينة

الدولة وإن كانت قد اكتسبت نفوذاً لا يستهان به بأن جعلت من نفسها حقلاً لانتقاء الجند المرتزقة .

وقد ظهرت فى أثينا بوجه خاص ، منذ سنة ٤٣١ ق.م فصاعداً ، أعراض واضحة متزايدة على حالة من التوتر العصبى كانت تكشف عن نفسها فى صورة نوبات هستيرية ، كما كثرت عبادات الآلهة الاجنبية ، ولم يقتصر الأمر على عبادة إله الطب الهلنى إسكليبيوس Asklepios الذى انحدر من إبيداوروس Epidaurus وكوس Cos ، بل أضيفت إليها عبادة الإلهة الطراكية بنديس Bendis و «الأم الكبرى» كيبيلى Cybele التى كانت إلهة أناضولية . وقد قامت فى أثينا حركة اعتقالات سياسية واسعة عام ٤١٥ ق.م ، إثر حادثة تحطيم التماثيل النصفية للإله هرميس Hermes التى كانت تتوج الأعمدة المقامة بأركان الشوارع فى إحدى الأمسيات ، وبفعل أشخاص مجهولين ، وذلك عشية رحيل قوات الحملة الآثينية العظيمة إلى صقلية . كما وقعت أيضاً حوادث تعذيب لبعض «المفكرين» بتهمة «الإلحاد» . وكانت أثينا حتى ذلك العصر تعد من الناحية الفكرية بلداً محافظاً إذا ما قورنت بأى من هيلاس الآسيوية أو هيلاس الاستعمارية فى إيطاليا وصقلية ، وكان من السهل استثارة الرأى العام الأثينى بالقول بأن الدين والخلق قد أصبحا فى خطر ، وكان ثمة دافع سياسى لاستثارة الرأى العام ضد «المفكرين» لاسيما وإن كانوا من الصنائع أو المقربين إلى سياسيين يوشكون على السقوط ، وقد شاء

أناكساجوراس من كلازوميناى ؛ الصنيعة الأجنبية لذلك السياسى الأثينى الموصوم بركليس أن يفر خفية من أثينا فى الوقت المناسب ، أما سقراط « المواطن الأثينى المتمسك بأهداب القانون والذى كان فى وقت ما من شركاء كالياس Callias زعيم عصابة «الثلاثين دكتاتوراً» فقد صمد حتى النهاية وواجه مصيره المحتوم ، وكان الحكم بالإعدام على أعظم مواطن على الإطلاق أنجبته أثينا من بين الإجراءات التى رمزت بها الديمقراطية الأثينية على استردادها المدينة من أيدي «الثلاثين دكتاتوراً» فى عام ٣٩٩ ق.م.

الفصل الثامن

تقبل مقدونيا للحضارة الهلينية وغزو الشرق

كان المقدونيون ، الذين فرضوا الوحدة والسلام على بلاد اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية عام ٣٣٨ ق.م. شعباً من الشعوب التى تتكلم اليونانية ، وإن لم تكن قد أخذت بعد بالحضارة الهلينية ، يحتل الأراضى القارية الواقعة إلى الغرب وإلى الشمال من دلفى وثرموبولاي . وعلى حين أن حضارة المدينة الدولة التى قامت إلى الشرق والجنوب من هذه الحدود الحضارية ، كانت قد بلغت ذروة ازدهارها ، ثم أخذت طريقها إلى الانهيار ، فقد ظلت مقدونيا أثراً من آثار العصر «البطولى» - أو البربرى - الذى حل بجميع أنحاء منطقة بحر إيجه ، إثر سقوط الحضارة الميناوية الموكينية .

وكانت مقدونيا مازالت تخضع فى نظام حكمها - إذا ما جاز لنا أن نسمى ما كان قائماً نظاماً للحكم - للملكية الوراثية ، وهو من الأنظمة

التي كانت قد أخذت مكانها فى العالم الهلينى منذ أمد بعيد لنظم الحكم الجمهورية والدكتاتورية . ولقد كانت تحد من سلطة ملك مقدونيا « من الناحية القانونية النظرية » بعض القيود الدستورية العرفية ، ولكن هذه كانت تتوقف من الناحية العملية على مدى ما كان يتمتع به الملك الجالس على العرش من مقدرة شخصية على أن يتزعزع الولاء الذى لم يكن يؤمن له ، من جانب النبلاء ، وعامة الشعب فى البلاد الواقعة تحت حكمه المباشر ، ومن جانب رؤساء العشائر فى الإمارات الواقعة فى المناطق الجبلية الممتدة جنوباً وغرباً وشمالاً . ولم تكن هذه الإمارات تعترف بسلطانه إلا من الناحية الشكلية الاسمية . فإذا ما قدر أن يتبوأ العرش ملك وهب حنكة سياسية وسعة حيلة ، وإرادة حازمة ، أولاً وقبل كل شيء ، ففى وسع مقدونيا أن تثبت وجودها برغم تخلفها الاجتماعى والحضارى . أما إذا نصب عليها ملك ضعيف الجانب ، مسلوب الإرادة، فإنها قد تتردى فى مهوى الحكم الفوضوى وتقترب بذلك من شفا الفناء السياسى . وهكذا كانت مصائر مقدونيا تتوقف إلى حد بعيد على ما تهيئه الظروف لها ، وكانت المقادير تكرمها دائماً بأن تقيض لها رجالاً ذوى شخصيات قوية ليتولوا العرش فى اللحظات الدقيقة من تاريخها . فقد كان الإسكندر الأول ، الذى كان يجلس على عرش مقدونيا إبان الغزو الفارسى لأراضى اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية عام ٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م . ، كما كان برديكاس perdiccas (وحكم بين ٤٤٠ - ٤١٣

ق.م.) وابنه أرخيلاوس Archelaus (وحكم بين ٤١٣ - ٣٩٩ ق.م.) اللذان استغرق عهديهما المتتاليان فترة الحرب الآثينية البليسونيزية بأكملها، يتمتعون جميعاً بقسط كبير من المقدرة والكفاية . أما فيليب الثانى (وحكم بين ٣٥٩ - ٣٣٦ ق.م.) وابنه الإسكندر الأكبر (وحكم بين ٣٣٦ - ٣٢٣ ق.م.) فإنهما يدخلان فى عداد العباقرة وإن اختلفا فى نوع عبقريتهما ، ومما لاشك فيه أيضاً أنه كان من السهل عليهما أن ينبغا فى أى ميدان من ميادين الحياة ، وفى أى مكان وزمان . بيد أنه كان من حسن حظ فيليب أنه تبرأ عرش مقدونيا بعد أن كانت سيادة طيبة على العالم الهلنى قد اختتمت حياتها القصيرة ، كما كان من حسن طالع الإسكندر الأكبر أيضاً أنه ورث السؤدد الذى كان أبوه قد بناه .

وكانت مصائر مقدونيا قد ارتبطت بالفعل بالسياسات الدولية السائدة فى العالم الهلنى . فقد تم إنقاذ مقدونيا مرتين ، كانت قد أوشكت فيهما على الفناء السياسى ، بفضل ما اتخذته الدول الهلنية من إجراءات فى سبيل تحقيق مصالحها الذاتية الخاصة ، وذلك خلال القرن ونصف القرن الذى انقضى بين شروع الإمبراطورية الفارسية فى محاولتها ضم بلاد اليونان الأوروبية إليها ، وبين تولى فيليب الثانى العرش عام ٣٥٩ ق.م. فقد كان من المحتمل ، مهما بلغ الجهد الذى كان فى طاقة الملك الإسكندر الأول أن يبذله بمفرده ، أن تدمج مقدونيا إلى الأبد فى ولاية فارسية ، لو لم تضطر الإمبراطورية الفارسية ، إزاء هزيمة أكسر كسيس

فى ٤٨٠ - ٤٧٩ أمام الحلف الهلىنى تحت زعامتى كل من إسبرطة وأثينا ، إلى التخلى عن جميع ممتلكاتها على الجانب الأوروبى من الدردنيل فيما عدا قلعة واحدة هى قلعة دورسكوس Doriscus التى تقع على شاطئ تراقيا . ومرة أخرى فى الفترة ما بين ٣٨٢ - ٣٧٩ ق.م . عندما كانت مقدونيا تعانى من الفوضى والضعف ، وذلك فيما بين نهاية عهد أرخيلائوس وبداية عهد فيليب الثانى ، أنقذها تدخل إسبرطة العسكرى من مغبة اندماجها نهائياً فى اتحاد فيدرالى كانت تسعى إلى تكوينه المدينة الدولة والمستعمرة الخلكيدونية أولينثوس Olynthus ويتألف من المدن الدول الواقعة على امتداد الساحل الشمالى لبحر إيجه .

وكان أعظم ما لدى المملكة المقدونية هو ذلك الميدان الرحب للتوسع الإقليمى الذى كان مفتوحاً على مصراعيه أمام أى شاغل للعرش يتمتع بالقسط الواجب من القوة المادية والبصيرة السياسية . أما المحور الذى كانت ترتكز حوله الأراضى الخاضعة لحكم الملك المباشر ، فقد كان المنطقة الجبلية التى تطل على الطرف الغربى من ذلك السهل الذى يقطعه المجرى الأدنى من نهر أكسيوس Axios (فاردار Vardar) وهو فى طريقه إلى خليج سلانيك . وفى ثلاثة جوانب من هذه الرقعة كانت تقوم إمارات مقدونية متمردة تتمتع بالحكم الذاتى ، ولا تخضع لغير شيوخها الذين كان الحكم فيما بينهم وراثياً . بيد أن نطاق الحكم الملكى كان قابلاً للامتداد ، بل إنه امتد فعلاً صوب الشرق ، وذلك حتى السهول

المنبسة التي كانت تقطنها قبائل تتكلم اليونانية ، وهى قبائل البايونيين Paeonians الذين لم يكن يخلو منهم مكان . ولم يكن هؤلاء يقيمون على الوقوف فى وجه المقدونيين ، لأنهم كانوا بدورهم أقل تمدناً من المقدونيين أنفسهم . وبعد أن كان مقرر الحكومة الملكية قد اتخذ فى الأصل عند أيجاي Aegae (فودهينا Vodhenà) فوق منحدر يطل على سهل نهر فاردار ، نقل إلى Pella (يتيجى فاردار Yenjë Vardar) فى قلب السهول إلى مسافة لا تبعد كثيراً عن بلدة سكايدرا Scydra ، حيث كان بناء الإمبراطورية الفارسية قد أرسوا قواعد مركز إدارى لإحدى الولايات الأوروبية التى لم تعش طويلاً . وبعد أن انحسرت موجة الغزو الفارسى مد الإسكندر الأول حدود مقدونيا الشرقية إلى الضفة الغربية لنهر سترایمون Strymon (شتروما Struma) على طول المجرى الأدنى للنهر . بيد أن المدن الهلينية الاستعمارية الواقعة على طول الساحل المقدونى وفى خلکیديكي Chalcidicè استطاعت أن تحتفظ ؛ فى سر ، باستقلالها ، على حين أن الآثينيين قد دخلوا فى نزاع مع القبائل البايونية المحلية فى البلاد الواقعة شرق نهر سترایمون الأدنى مباشرة . فى سبيل الاستيلاء على مناجم الذهب بجبل بانجايوس Pangaeus . وكان فيليب الثانى هو أول من تمكن من ملوك مقدونيا من الاستحواذ على هذه القطعة النادرة من الأرض . ورغبة ضمان بقائها فى قبضته ، أسس بها مدينة أطلق عليها اسم «فيليبى» Philippi المشتق من اسمه .

واستخدم فيليب الذهب المستخرج من بانجايوس ، مثلما استخدم ثيمستوكليس فضة لاوريوم Laureum فى تكوين القوة العسكرية التى تكفل له اغتنام الفرص السياسية السانحة فى المستقبل . وفى غضون إحدى وعشرين سنة من ارتقائه العرش عام ٣٥٩ ق.م. كان فيليب الثانى قد ضم إلى المملكة المقدونية ، جميع المدن الدول الهلينية الواقعة على امتداد الساحل (وقد عمد إلى سحق أقوى هذه المدن وهى أوليثوس Olynthus لكى يلقى الرعب فى شعوب بقية المدن) ، ثم وضع تحت حكمه المباشر الإمارات المقدونية الجبلية التى كانت تتمتع من قبل بالحكم الذاتى ، وأخضع معظم القبائل التى كانت تتكلم اليونانية والقبائل التى كانت تتكلم التراقية فى المنطقة الممتدة من شرقى نهر سترايمون حتى المضائق والبحر الأسود والمجرى الأدنى لنهر الدانوب ، كما دانت له جميع المدن الدول ببلاد اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية فيما عدا إسبرطة .

فما سر هذا النجاح المؤزر الذى ناله فيليب ؟ إنه يرجع أساساً إلى شخصيته التى نالت أعظم التقدير وأزكى الشناء من جانب عدوه الآثينى اللدود ديموستينيز Demosthenes . فقد كان فى نشاطه ودهائه ومثابرته وصبره نداءً لأوغسطس ، الذى قدم فى النهاية للعالم الهلينى خدمة مماثلة وإن تميزت باتساع نطاقها ودوام نتائجها . ويقال إن المؤرخ المعاصر ثيوبومبوس Theopompus من جزيرة خيوس قد دعا فيليب أعظم رجل أنجبته أوروبا حتى ذلك التاريخ ، ولعله كان كذلك حقيقة فى مضمار

الدهاء السياسى . كما تبين ديموسثينيز أيضاً ، كيف استغل فيليب الذهب الذى تحصل عليه من بانجايوس فى براعة فائقة . فقد اشترى به بعض الساسة المبرزين فى المدن الدول الهلينية الكبرى ، كما ضرب به عدداً هائلاً من قطع النقود ، حتى أن بعض قطع العملة التى كانت تحمل صوراً غير دقيقة له ونقوش تماثل نقوش عملته ، ظلت تسك بعد مضى ثلاثمائة أو أربعمائة سنة على هذا التاريخ ، فى بلد ناءٍ مثل بريطانيا ، لا يقطنه أيضاً غير البرابرة . بيد أن ثمة سبباً آخر لنجاح فيليب لم يكتشفه ديموسثينيز أو لم يشأ الاعتراف به ، وهو حرص ذلك الملك المقدونى على التشبع بحضارة العالم الهلنى الذى استطاع أن يخضعه لإرادته .

وقد تفاخر بركليس فى خطبة تأبين له ألقاها عام ٤٣٠ ق.م. فى ذكرى المواطنين الآثينيين الذين لقوا مصرعهم فى ميدان القتال ، إبان الحملة الأولى من حملات الحرب الآثينية البليبونيزية الكبرى ، بأن أثينا إنما هى «مدرسة هيلاس» . وقد أخذ جبابرة ملوك مقدونيا البربرية قول بركليس مأخذ الجد ، وطبقوه بحذافيره لا كما قصد بركليس فحسب بل بأساليب لم تكن تخطر له على بال ووسائل لم يكن يعنىها قط .

ولنا أن تصور كم كان سيبلغ امتنان بركليس ، وكم كانت ستبلغ دهشته أيضاً لو قيض له أن يعيش حتى يرى الملك أرخيلائوس يدعو إلى بلاطه فى بيلا الكاتب المسرحى الآثينى يوريبديدس Euripides ، برغم أن هذا كان فى طليعة «التقدميين» من بين «المفكرين» الآثينيين فى

عصره . وكان سيثلج صدره ، دون شك أن يرى الملك فيليب الثانى يتخذ ، بدلاً من لهجته المقدونية الوطنية ، اللهجة الآتيكية للغة اليونانية ، لتكون لغة رسمية لمحكمته العليا (ولعل المرسوم المقدونى الذى صدر بهذا الشأن كان أعظم أثراً من عبقرية يوريبيديس وغيره من أئمة رجال الأدب الآثينيين فى رواج اللغة اليونانية الآتيكية وذيوها فى كل مكان من العالم الهلنى فى المرحلة التالية من تاريخه ، حين اتسعت رقعته ، بحيث بلغت الهند فى الاتجاه الجنوبى الشرقى وبريطانيا فى الاتجاه الشمالى الغربى) . ومما كان حقيقاً بأن ينال الرضى من جانب بركليس تلك الخطوة التى اتخذها فيليب عندما أفاد من خدمات أحد الآثينيين بالتبنى ، ألا وهو الفيلسوف الشهير أرسطو من ستاجيروس Stageirus ، ليقوم بتربية ابنه وولى عهده الإسكندر . ولكن بركليس ما كان يشعر بمثل هذا القسط من السعادة لو أنه قد تنهى إليه أن فيليب نفسه تلقى فى صباه ، حقيقة لا مجازاً ، تعليماً وثقيفاً هلينين ، إذ عاش رهينة داخل أسوار طيبة جارة أثينا وعدوتها اللدود . كما كان حقيقاً ببركليس أن يقشعر بدنه للأسلوب الذى انتهجه ملوك مقدونيا فى تطبيق وجهة نظره على الشئون العسكرية . بيد أن ذلك لم يكن فى الحقيقة مدعاة عجب أو دهشة ، فإن التطورات المشهودة التى طرأت على الفنون العسكرية لم تكن غير نتيجة من النتائج المنتظرة لسلسلة الحروب المتصلة التى استغرقت ثلاثة وتسعين عاماً والتى تردت إليها الدول الهلينية بعد عام ٤٣١ ق.م .

واستطاع أرخيلالوس أن يدعم قوة سلاح الفرسان المقدونى الذى كان يتألف من أفراد من النبلاء بأن زودهم بالمعدات الحربية الهلينية الحديثة ، وأتاح لهم أيضاً أسباب مرونة الحركة بمدهم بشبكة من الطرق العسكرية . كما قام فيليب الثانى بتزويد المشاة المقدونيين بآخر مستحدثات الأسلحة الآثنية وأحدث التشكيلات العسكرية الطيبية . وكان الجندى الآثنى المحترف إفيكراتيس Iphicrates قد تمكن فى أثناء الحرب التى شنتها أثينا على إسبرطة ، انتقاماً للهزيمة التى منيت بها عام ٤٠٤ ق.م . من أن يمزق صفوف إحدى الفرق اللاكيدايمونية شر ممزق ، عندما خاض المعركة أمام حملة التروس بأسلحتهم وتشكيلاتهم التى عفا عليها الزمن ، متخذاً نموذجاً جديداً من المشاة الخفيفة التسليح المزودين بالحراش ذات الطعنات النافذة ، يفوق فى قوته تشكيل «حملة التروس» بسيوفهم ذات الطعنات الواخزة . وقد كفل هذا النمط الجديد للجندى حرية استخدام رمحه بكلتا يديه ، نظراً لأن يده اليسرى قد أزيح عنها عبء ذلك الترس التقليدى الدائرى الثقيل . إذ استعاض عنه بترس صغير خفيف الوزن يتعلق بواسطة خية فى الذراع الأيسر . وقد قام فيليب بتسليح قواته من المشاة الفلاحين الرقيقى الحال بهذا السلاح الآثنى الذى كان يتميز برخص ثمنه ، فضلاً عن أثره الفعال الذى أثبتته التجربة . ولكنه لم يزحف بقواته الجديدة من حملة التروس المقدونيين فى صفوف مكشوفة . فإن القائدين الطيبيين إياماينونداس Epameinondas

وبيلوبيداس Pelopidas استطاعا إيقاع الهزيمة باللاكيدايمونيين فى عام ٣٧١ ق.م. بالاستعانة بأسلوب جديد من أساليب القتال والتكتيك الحربى ، يقف على النقيض تماماً من الأسلوب الذى ابتكره إفيكراتيس . فبدلاً من تفتيت الفيلق التقليدى إلى مجرد ستار من الجنود المناوشين ، عمداً إلى زيادة عدد صفوفه فى نقطة بعينها من الجبهة ، بعمق فرقة تصطف على شكل رأس سهم ، ثم اقتحما صفوف اللاكيدايمونيين بفتح ثغرة فيها بهذا السلاح الأدمى الذى يأخذ هيئة رأس كبش . أما فيليب فقد نظم قواته من الجنود حملة التروس فى فيلق يبلغ فى عمقه عمق الفيلق الطيبى وإن امتد بطول الجبهة جميعها ، وبذلك جمع فى حذق بين عنصرى خفة الحركة وثقل الكتلة . كما أن ذهب بانجايوس مكن فيليب أيضاً من إنشاء «سلاح الصفوة» وهو سلاح «المكتسين بالدروع» الذى يتبع النمط الهلنى التقليدى الباهظ التكاليف .

غير أن السلاح الذى حقق به كل من فيليب والإسكندر انتصاراتهما لم يكن ذلك السلاح الهلنى البائد أو فيلقهما الجديد المؤلف من الجنود المزودين بالتروس والرماح ، بل كان سلاح الفرسان الذى وضعاه تحت قيادتهما . وخلال فترة القرن ونصف القرن التى أنقضت بين انتصار المقدونيين فى خيرونيا Chaeronea عام ٣٣٨ ق.م. على الجنود حملة التروس الطيبين والآثينيين ، وبين هزيمة مقدونيا عام ١٩٧ ق.م. فى كينوسكيفالاي Cynoscephalae على يد الجنود الرومان ، تحول الفيلق

المقدونى - شأنه شأن التشكيلات التى سبقته - إلى تشكيل شديد التعقيد صعب القياد . بيد أنه كان للتنظيم الجديد الذى أدخله فيليب على قوات المشاة آثار اجتماعية وسياسية بعيدة المدى لا سييل إلى نكرانها ، فلا غرو أن أحس الفلاحون المقدونيون المجندون بعد أن أصبحوا يؤلفون قوة عسكرية فعالة ، بالعزة والكرامة ، كما بات لهم اعتبار كبير فى رسم الشئون العامة للبلاد . ولما كان هؤلاء يلقبون «برفقاء الملك الراجلين» فقد أدرجت أسماؤهم فى قوائم الشرف التى تضم «الرفقاء» ، وكانت هذه هى التسمية التقليدية للفرسان النبلاء .

وكان لفيليب ، إلى جانب خصومه اللدودين وعملائه المأجورين فى المدن الدول المؤيدون الصادقون المنزهون عن الغرض ، ثم المعجبون الحقيقيون . فقد كان أيسخينيس Aeschines ، أحد أنصاره الآثينيين مدفوعاً فى تأييده له بحماسة صادقة لا تقل قوة عن الحماسة التى كانت تدفع الآثينى ديموشينيز إلى خصومة فيليب . وقد رأى ايسقراط Isocrotis المواطن الآثينى الذى كان من المعجبين بفيليب ، والعالم الفاره أيضاً فى القانون الدولى والاداب ، أن الوحدة التى كانت قائمة آنذاك بين دول هيلاس فى ظل زعامة دولة واحدة تدين بالولاء لرجل عظيم واحد « إنما تهىء الفرصة السانحة للقيام فى النهاية بالهجوم البانهلينى المضاد على الإمبراطورية الفارسية الذى تعذر تحقيقه على كيمون بن ميلتياديس . والحقيقة أنه كان من المنتظر « بعد فشل الفرس

فى ضم بلاد اليونان الأوروبية إلى إمبراطوريتهم عام ٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م ، أن تستأنف على جناح السرعة وبصورة أقوى ، حركة التغلغل الهلنى إلى مصر وجنوب غرب آسيا ، وهى الحركة التى كانت قد بدأت فى القرن السابع قبل الميلاد فى أعقاب هزيمة الآشوريين وتقهقرهم والتى لم تلبث أن توقفت على حين بغتة نتيجة لقيام الإمبراطورية الفارسية . وكانت قد أتاحت للإمبراطورية الفارسية من قبل فترة من الهدوء والراحة نتيجة للنزاع الذى نشب بين إسبرطة وأثينا . فقد خانت إسبرطة عهد أثينا سنة ٤٥٧ ق.م . فى الوقت الذى كانت فيه أثينا تحاول انتزاع مصر من قبضة الفرس . وغدرت أثينا بإسبرطة سنة ٣٩٣ عندما كانت إسبرطة تتأهب لطرد الفرس من غربى الأناضول . ولم يكن غزو الإمبراطورية الفارسية بالمهمة العسكرية الصعبة بالنسبة لعالم هلنى موحد . وقد أثبت هذه الحقيقة بالدليل القاطع عام ٤٠١ ق.م فرقة تتألف من عشرة آلاف جندى هلنى مرتزقة استأجرهم مدع لعرش الإمبراطورية الفارسية . وقد زحفت هذه القوة المتواضعة ، دون أن تصادف أية مقاومة ، ابتداء من الشاطئ الغربى للأناضول حتى بابل ، حيث خرجت مظفرة من معركة فاصلة ضد كل ما أمكن أن تحشده حكومة الإمبراطورية الفارسية من قوات فى ذلك الوقت ولكنها لم تلبث أن وجدت نفسها حيرى معلقة بين السماء والأرض لمصرع قائدها الفارسى فى ميدان القتال ، فزحفت خارج بابل واخترقت منطقة غير مطروقة إلى أن بلغت ساحل الأناضول الشرقى المطل على البحر الأسود ، على الرغم مما بذله جيش الإمبراطور من

جهود فى سبيل قطع الطريق عليها فى أثناء تفهقرها . وما علينا إلا أن نزيد عدد قوات الحملة البانهلينية إلى ثلاثة أو أربعة أضعاف الحملة السابقة ، مع ضمان تأييد العالم الهليني الموحد لها ، حتى نشهد هذا العمل الرائع وقد أصبح حقيقة واقعة .

وكانت هذه الخطة الكبرى تعد فى نظر الهلنيين ، خطة صائبة سديدة . فما الذى يدعو الهلنيين لمواصلة حرب مدمرة ضد بعضهم البعض ، إذا ما كان فى استطاعتهم جمع كلمتهم لإخضاع واستغلال «المجال الحيوى» الشاسع الهائل الذى يقع إلى الشرق وإلى الجنوب منهم؟ فقد ظلت هيلاس تعاني إبان القرن الرابع ق.م. من المشكلة ذاتها التى كانت تعانيها فى القرن الثامن ألا وهى زيادة عدد السكان . إذ أن حركة استعمار سواحل شرقى البحر المتوسط والبحر الأسود والثورة الاقتصادية التى أعقبتها لم تكونا بكافيتين لتوفير الأقوات ، بصفة دائمة ، للعدد الكبير من البطون الهلينية السغبة التى ينبغى إشباعها والتى ما فتئت تزداد زيادة مطردة ، وسوف يفتح غزو الإمبراطورية الفارسية دون شك آفاقاً جديدة أمام مستعمرين هلنيين جدد ، كما أن من الممكن استخدام هؤلاء المستعمرين فى السيطرة على الدولة المغلوبة . كانت هذه خطة عملية . ولكن ، هل كان لها ما يبررها ، بغض النظر عن دعوى الانتقام التى لا يمكن القطع بشرعيتها ؟ لقد ظهر هناك فى عصر أرسطو فريق من العلماء النظريين الذين كانوا ينادون بأن للهلنيين حقاً فطرياً فى الغزو

والفتح لأن الهلنيين ولدوا أحراراً على حين أن غير الهلنيين ولدوا عبيداً . وقبل هذا التاريخ بمائة سنة ، كان أحد الكتاب قد أشار فى صدق بالغ وبصيرة نافذة، وذلك فى مقال له عن أثر البيئة الطبيعية على نمو الشخصية (وعشر على هذا المقال بين وثائق مدرسة أبقراط للطب فى جزيرة كوس) ، أشار إلى أن الشعوب غير الهلنية التى تقطن البلاد المتخلفة لا تقل سمواً فى الروح أو تعشفاً للحرية عن الهلنيين أنفسهم ، وقد دلت نتائج الغزو الهلنى للإمبراطورية الفارسية على صحة هذا القول . والحقيقة أن مبدأ حق الهلنيين الطبيعى فى السيادة على «الأجناس الأخرى» لم يكن إلا ذريعة للعودة إلى مثل حالة اضطهاد إسبرطة لعبيد الأرض، وإلى إرهاب أثينا للدول التى كانت تؤدى لها الجزية ، وذلك على نطاق أوسع وأضخم .

وفى عام ٣٣٦ جرد فيليب حملة صغيرة عبرت الدردنيل ، فهل كان المقصود بهذه الحملة أن تكون طليعة جيش كبير ؟ وما مدى ما كان يتتوى فيليب أن يبلغه ؟ لقد كان على خليفته الشاب أن ينفق عاماً كاملاً فى إرهاب البرابرة على طول الحدود الشمالية لمقدونيا ، وفى قمع طيبة التى اغتنمت هذه الفرصة لإشعال نار الثورة . وعبر الإسكندر مضيق الدردنيل عام ٣٣٤ ق.م. بجيش يتألف من خمسة وثلاثين ألف جندى . وقام باحتلال جميع شواطئ الإمبراطورية الفارسية المطلة على البحر المتوسط ، الواحد بعد الآخر ، حتى صحراء مصر الغربية ، وذلك لكى

يضمن عدم اشتراك الأسطول الفارسي مع الأسطول الآثيني في الانقضاء على مؤخرته ، كما حدث للملك الإسبرطى أجيسيلوس Agesilaus من قبل في ٣٩٤ - ٣٩٣ ق.م. وفي عام ٣٣١ اتجه إلى الداخل وهزم عند جوجاميللا Guagamela آخر الجيوش الفارسية المنظمة ، وقد كان هذا الجيش يقف في انتظاره في السهول الواقعة بين الضفة الشرقية لنهر دجلة ومدينة كربلاء Arbela الآشورية . وما إن حل عام ٣٢٣ ق.م. ، حتى كان قد أخضع بقية أجزاء الإمبراطورية الفارسية إلى حدود نهر ياكسرتيس Jaxartes (سيردارية Sir Darya) وأخضع الممتلكات الفارسية السابقة في وادي نهر هندوس حتى حدود نهر بياس Beas ، ثم عاد إلى بابل لكي ينظم فتوحاته ويرسم الخطط لمتابعتها .

وهكذا تجاوزت الانتصارات الحربية للجيوش الهلينية تحت قيادة مقدونيا ، كل ما كان يراود إيسوقراط من أحلام . وكان شعور الهلنيين إذ ذاك أشبه بالشعور الذي غمر أبناء الغرب في العصر الحديث عندما اكتشفوا الأمريكتين أو الطريق البحري الذي يصل إلى الهند بالالتفاف حول رأس الرجاء الصالح . أما بالنسبة للفرس ورعاياهم فقد كان شعورهم أقرب إلى ذلك الشعور الذي استولى على قبائل الإنكا Incas والشعوب الخاضعة لهم عندما انقض عليهم الفاتحون الكاستيليون من البحر حاملين أسلحة قل أن تقوى أسلحتهم على صدها . بيد أن ثمة ظاهرة واحدة قد برزت في أثناء سلسلة الحملات المظفرة التي خاضها

الإسكندر ، كان من شأنها أن تثير قلق الهلنيين . فعلى الرغم من أن المعركة التى نشبت بالقرب من كربلاء قد أسفرت عن انتصار حاسم بالنسبة للإسكندر ، إلا أنها انتهت بنكبة سلاح الفرسان الذى كان الإسكندر يعلق عليه أملاً كبيراً . فقد ثبت أن أسلحة الفرسان الهلنيين لا تدانى بحال دروع السلاسل الحديدية (وكانت هذه تستر كل من الجواد والفارس) التى كان يتخذها فرسان الراحل داريوس ، الذين كانوا من مواطنى باكتيريا Bactria ومن الهنود ، ولقى الإسكندر خلال المرحلة التالية من الحرب من المقاومة ما أثار دهشته ، وذلك عندما غزا وطن هؤلاء الفرسان المخوفين على حدود الإمبراطورية الفارسية المواجهة لمنطقة آسيا الوسطى ، التى يقطنها البدو . وقد أثبت حماة هذه الحدود أنهم لم يولدوا عبيداً . كما برهن الإسكندر على إعجابه بهم بأن تزوج بابنة ذلك الحاكم الإيرانى الذى أسهم بالنصيب الأكبر فى إثارة المتاعب فى وجه الإسكندر .

وكتبت للإسكندر الحياة ليسمو عن ذلك المبدأ الحقير الذى كان ينادى بأن للهلنيين السيادة على غيرهم من بنى البشر ، ويأخذ بالمثل الأعلى الكريم الذى يقول بأخوة الإنسانية جمعاء . فإنه عندما التقى بالفرس ، لمس فيهم تلك الفضائل التى مكنتهم من أن يحكموا ذلك الجزء الكبير من العالم إلى ما يزيد على مائتى سنة فاستهوته هذه الخلال وملكته عليه أقطار نفسه ، فداعب خياله ، بدوره ، حلم إنشاء

إمبراطورية عالمية يحكمها الفرس والهلينيون متضامنين . بيد أن ذلك الرجل المثالى ، والنابعة الذى سبق عصره ، كان لا يتورع أيضاً عن اغتيال أصدقائه ورفقائه فى نوبات غضبه وحين تلعب الخمر برأسه ، شأنه شأن البطل الهومرى الذى كان الجانب المراهق من طبيعة الإسكندر يتوق إلى التمثل به . ولاشك فى أنه كان لإفراطه الدائم وتطرفه الاثر الأكبر فى موته المبكر المفاجئ إثر مرض أصابه فى بابل عام ٣٢٣ ق.م . لقد أمهله الزمن لكى يقوض أركان إمبراطورية عظمى ، ولكنه ما كاد يشرع فى تنفيذ خطط البناء التى كانت تراود خياله ، حتى عاجله الموت .

لقد برهنت كارثة عام ٣٢٣ ق.م ، كما برهنت نتائجها الوخيمة المروعة ، على أن تمثل مقدونيا للحضارة الهلينية لم يكن فيه الشفاء لعلتها الكامنة المتأصلة . فقد جر نظامها الملكى إلى تعرضها لأخطار ، كانت المدن الدول بمنأى عنها ، بغض النظر عما كانت تعانيه هذه المدن من ضعف فى نواح أخرى . لقد جعل هذا النظام الملكى مصائر مقدونيا ومقدراتها معلقة بنزوات وحياة أفراد لم يكونوا معصومين من الخطأ كما لم يكونوا مخلصين . فإنه إثر وفاة الإسكندر وإثر وفاة أرخيلاوس أيضاً ، لم تلبث الأمجاد التى تبلورت فيها جهود عهدين زاهرين متتاليين أن انحلت إلى فساد وفوضى . بيد أن وقع هذا الانهيار لم يظهر فى مقدونيا وحدها ، بل فى هيلاس جميعها وفى نصف الجزء الباقي من العالم .

الفصل التاسع

تحرير الأفراد من عبودية المدينة الدولة

كان من نتيجة قضاء المقدونيين على سيادة المدينة الدولة أن شعر الأفراد بأن عبثاً ثقيلاً قد أزيح عن كواهلهم ، فى عصر أصبحت فيه حقوق المواطنة فرضاً ممقوتاً ، بدلاً من أن تكون حافزاً وروحاً خلافاً .

وغنى عن البيان أن الحرب التى نشبت بين خلفاء الإسكندر من أجل اقتسام ميراثه أتاحت الفرصة لعدد من المدن الدول كي تستعيد سيادتها ، مثل مدن إسبرطة ورودس ثم كيزيكوس Cyzicus وهيراكليا Heraclea اللتين تقعان على ساحل آسيا الصغرى المطل على البحر الأسود . ويرجع الفضل على نحو ما فى ظهور جزيرة رودس على المسرح ، إلى ما قامت به من تدابير خاصة . ففي عام ٤٠٧ ق.م اندمجت الدويلات الثلاث التى كانت تنقسم إليها الجزيرة من قبل ، مكونة وحدة سياسية ، وقد مكنت القوة الجديدة التى تأتت لسكان رودس نتيجة لهذا الاتحاد ، من استفادتهم من المركز الممتاز الذى نالته

جزيرتهم على حين فجأة بفضل توسع العالم الهليني إلى ما حول شواطئ
حوض البحر المتوسط الشرقي حتى مصر نتيجة لإطاحة الإسكندر
بالإمبراطورية الفارسية . وكانت رودس تحكم فى الطريقين البحريين
اللذين يصلان ما بين الدردنيل ومقدونيا وما بين كورنثوس والإسكندرية .
وقد عمدت رودس شأن غيرها من المدن الدول التى استطاعت أن تلعب
بالفعل دوراً مستقلاً فى العالم الجديد العظيم الذى تألف من الممالك
التي نشأت عن تقسيم الإمبراطورية الفارسية ، إلى أن تشيع نهمها
بتحقيق الأطماع السياسية التى كانت تصبو إليها ، على الرغم مما كان
ينطوى عليه ذلك من خطر إخضاع مواطنيها من جديد لعبوديتها
التقليدية، بيد أن قلة من المدن الدول هى التى استطاعت أن تمضى فى
هذا السباق حتى النهاية . فقد انسحبت أثينا قبل نهاية الشوط ، انسحاباً
لا رجعة فيه بعد أن فشلت فى محاولتها من أجل تحدى سيادة مقدونيا
فى حرب ٢٦٧ - ٢٦٢ ق.م كما أنها عندما تمكن عام ٢٢٩ - ٢٢٨
ق.م من تحقيق هدفها ألا وهو جلاء الحامية المقدونية ، مقابل مبلغ من
المال ، قنعت بعد ذلك بأن تحيا حياة وادعة مستقرة فى حمد وشكر .
وفضلاً عن ذلك فإنه كان بوسع مواطنى المدن الدول التى ظلت تكافح
من أجل الاحتفاظ بسيادتها ، إذا ما شعروا بأن المطالب التى تفرضها
دولهم عليهم باتت تتجاوز حدود الطاقة ، أن يهاجروا إلى الإسكندرية أو
إلى أية مدينة هلينية أخرى غير مستقلة من بين تلك المدن التى كانت

تنبثق بأعداد كبيرة فى الأراضى التابعة للممالك التى قامت على أنقاض الإمبراطوريتين الفارسية والمقدونية . وكان للفرد أن ينعم فى هذه المدن بكل مباحج الحياة التى كان يتمتع بها فى ظل المدينة الدولة دون أن يعانى شيئاً من نقصها . ولقد كان هناك عدد وافر ممن هاجروا عن طواعية ، من المدن الدول الفادحة المطالب ، بالإضافة إلى الفائض من «اللاجئين المشردين» الذين اضطروا إلى هجر أوطانهم بحثاً عن أوطان جديدة

ولقد كان الطريق ممهداً لقيام هذه الحركة - وهى تقوم على أساس نفسى مثلما تقوم على أساس «ديمغرافى» - نظراً للنكبة الأدبية التى لحقت بالمدن الدول خلال الفترة المندسة بالعار التى تمتد بين عامى ٤٣١ - ٣٣٨ ق.م ، إذ أن ذلك كان قد أثار بالفعل نفور طائفة من صفوة مواطنيها .

وقد أخذ هذا الحادث الجلل صورة صراع أدبى خلقى نشب بين كل من سقراط وأثينا . فقد كان سقراط فى الحق أول شهيد هلىنى . فإنه إذ تحدى باسم إله أعلى ، ومن حيث المبدأ ، المدينة الدولة التى زعمت أنها «مدرسة هىلاس» على حين أنها لم تكن أهلاً لأى وجه من أوجه التكريم أو التقديس . وكان لهذا التحدى وقعه العميق ، لأن سقراط لم يكن على شاكلة أرخيلوخوس ، فقد أدى الخدمة العسكرية فى إخلاص وبسالة . وكما أن ضميره قد تحرك ونهره عن القيام بما طالبته الدولة به ،

فقد أبى عليه أيضاً أن يروغ من توقيع حكم الإعدام عليه أو يتحاشى تنفيذه بالفرار من السجن ومغادرة البلاد . ولم يكن هدف سقراط « على خلاف مرمى أرخيلوخوس ، هو النجاة بحياته » بل لقد أصر على فقدانها . كما كبد أثينا فى إجباره إياها على أن تختار أحد أمرين ، إما احترام ضميره وإما إزهاق روحه ، هزيمة أدبية أشد بلاء من الهزيمة التى منيت بها على يد إسبرطة منذ خمس سنوات . لم تكن تلك الهزائم التى لقيتها أثينا على يد القاهر الإسبرطى ليساندر Lysander أو الفاتحين المقدونيين فيليب الثانى وانتيجونوس جوناتيس Antigonus Gonates تعدو الجانب العسكرى . بيد أن هزيمتها على يد سقراط كانت هزيمة أدبية خلقية . لقد جلبت الإلهة أثينا على نفسها العار ، فى واقع الحياة ، عندما أدلت بصوتها ضد سقراط عام ٣٩٩ ق.م ، بقدر ما نالت ، على خشبة المسرح ، من مجد باقتراعها فى صالح أورستيس Orestes عام ٤٥٨ ق.م وما من شئ أثار حفيظة الهلنيين على المدن الدول جمعاء كإعدام سقراط بعد مثوله أمام القضاء . ذلك لأن أثينا قد أقامت من نفسها مثلاً أعلى لما ينبغى أن تكون عليه سائر المدن الدول الهلينية . وكان لسقراط أصدقاء ومعجبون ومريدون فى كثير من الدول إلى جانب ما كانوا فى وطنه ومسقط رأسه .

وكان من بين من أسهموا أيضاً فى تحرير الأفراد من ربة المدن الدول الكاتب المسرحى الأثينى يوريبيديس Euripides الذى كان مواطناً أثينياً كسقراط ومن معاصريه أيضاً . إذ كان يوريبيديس فى تنديده علانية

بالسمات التقليدية للآلهة الأوليمبية، إنما يجرى معول الهدم فى عقيدة التعبد للمدن الدول، نظراً لأن هذه المدن كانت تأخذ فى ظل هذه العبادة، كما أسلفنا، صورة بعض الإلهات اللاتى ينتسبن إلى مجموعة الآلهة الأوليمبية. أما فى بلاد هيلاس بالقارة الآسيوية، وقد كانت هذه على الدوام أسبق لعصرها من أثينا، فإن أكسينوفانيس من كلوفون Xe-nophanes of Clophon فيلسوف القرن الماضى أى القرن السادس، كان أول من قاد هذه الحملة، قبل يوريبيديس بمدة لا تقل عن جيلي. بيد أن سهام يوريبيديس كانت أشد من سهامه فتكاً، لأن الجمهور الهلنى فى عصره كان مهتماً من الناحية النفسية، للاستجابة إلى أبعد حد لهذا النقد، كما يعد يوريبيديس، بالنظر إلى ميوله الفكرية وإلى تأييده أيضاً لحقوق المرأة واستنكاره لفظائع الحرب بوجه عام بشيراً بعهد جديد.

أنجبت أثينا، خلال الجيلين التاليين، اثنين من العباقرة: هما أفلاطون (قرابة ٣٤٧ - ٤٣٠ ق.م) وأرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) اللذان كانا أعظم مفكرين هلىنيين، لا بالنسبة لعصرهما فحسب، بل بالنظر للتاريخ الهلىنى جميعه.

وكان السخط قد استبد بأفلاطون، ذلك المواطن الآئنى الذى ولد بعد نشوب الحرب فى سنة ٤٣١ ق.م مباشرة، إزاء ما شهده فى أثناء حياته من انحراف الديمقراطية الآئنية، عن جادة الصواب، فضلاً عن علة أخرى أشد خطورة من هذه ألا وهى استشهاد سقراط، الذى كان

أفلاطون من تلامذته المخلصين . وكما أنه لم يكن فى استطاعة أفلاطون قط أن يغفر لأثينا هذه الزلة ، فلم يكن فى مقدوره أيضاً أن يشفى من الصدمة التى أصابته بعد أن تبددت الآمال التى كان يعلقها عليها . غير أن أفلاطون ، فى حملته على النظام الديمقراطي ، لم يكن يرى ثمة نظاماً آخر للحياة السياسية أفضل من نظام المدينة الدولة . فإنه لم يزد على استعاضته عن المبادئ السياسية الأثينية ، بترجمة علمية للمبادئ السياسية الإسبرطية ، تخيل فيها إحلال «سيادة النظراء» الإسبرطيين ، ذات الشهرة التاريخية ، محل «سيادة» الفلاسفة التى كان يدعو إليها فيثاغورس وأتباعه . وكم كان يتوق أفلاطون إلى ترجمة تلك الصورة الخيالية التى ارتسمت فى ذهنه إلى واقع ملموس ، بل لقد راوده أمل باطل فى أن يختصر الطريق إلى هذا الهدف البعيد بإغراء ديونيسيوس الثانى ، الطاغية المعاصر فى سرقوسة بأن يخلع نفسه عن العرش وذلك بفرضه خطة أفلاطون الدستورية على رعاياه . كان أفلاطون ، فى كل من طريقة تفكيره ونشاطه السياسى ، ابن عصره . بيد أن أفلاطون الذى يرتفع شامخاً عن كل زمان ومكان هو أيضاً أفلاطون الشاعر وأفلاطون النبى .

أما أرسطو فلم يكابد ما كابده أفلاطون من آلام روحية لأنه كان ، من ناحية ، أقرب إلى السواد الأعظم من بنى البشر ممن لا يحلقون فوق أجنحة الخيال ولأنه كان ، من ناحية أخرى ، من أبناء جيل قطع شوطاً

أبعد مما قطعه جيل أفلاطون في مضمار التأقلم بظروف الحياة غير
المتمدينة. وكان في استطاعة أرسطو أن ينسل كسرطان البحر من قوقعة
اجتماعية إلى أخرى دون ما حرج . كان وطنه هو تلك المدينة الدولة
والمستعمرة المغمورة التي تعرف باسم ستاجيروس Stageirus والتي تقع
في مواجهة الساحل الغربى من شبه جزيرة خلكيديكى . وقد ضمت هذه
الجزيرة إلى مقدونيا على يد الملك فيليب الثانى فى أثناء حياة أرسطو
رحل أرسطو عن ستاجيروس ولم يزل شاباً يافعاً ، وقسم حياته العامة
بين أثينا وبلاط هرمياس Hermeias ، طاغية تلك الإمارة الهلينية
المغمورة التي كانت تتألف من أتانىوس Atarneus وآسوس Assos فى
الأراضى الطروادية، وبين بلاط الملك فيليب فى بيلا Pella ، وعلى
الرغم من أن أرسطو قد عاش فى كل من مقدونيا والإمبراطورية الفارسية
(إذ أن إمارة هرمياس تقع فى الأراضى الفارسية) فلم يكن يرى ، شأنه
شأن أفلاطون ، خيراً من نظام المدينة الدولة ، كما أنه وضع بدوره
مشروع دستور للمدينة الدولة لم يكن يختلف فى جوهره عن خطة
أفلاطون . وفى الوقت ذاته نشر أرسطو مجموعة من البحوث تناول فيها
بالشرح والتحليل الدساتير القائمة بالفعل فى المدن الدول ذات التاريخ
العريق ، وقد قام بدراسة هذه الدساتير دراسة موضوعية بحثة باعتبارها
أنماطاً للحكم وليس باعتبارها آلهات ومعبودات . وبالإضافة إلى ذلك فإنه
على الرغم من أن أرسطو كان غافلاً على هذا النحو المزرى عن الدلائل
السياسية السائدة فى عصره ، إلا أنه من الممكن النظر إليه باعتباره

الرسول الفكرى فى واقع الامر للعصر اللاحق على عصره المدينة الدولة .
فى التاريخ الهلنى . كانت مبادئه السياسية قصيرة الأجل مثل مبادئ
أفلاطون . أما سر عظمته فيكمن فى الجهود الضخمة التى بذلها من أجل
تنسيق مختلف العلوم ، سواء المنطق أو علم الأحياء ، فى تصنيف مترابط
موحد يسهل نقله - على اعتبار أنه جانب من محصول الثقافة الهلنية
الجامع - إلى غير الهلنيين ممن هم فى سبيل التشبع بالحضارة الهلنية .

ولقد كانت الفلسفة الارسطالية بمثابة أداة فكرية على جانب كبير
من الأصالة والقوة ، مما قيض لها الحياة بعد انحلال المجتمع الهلنى ،
وأتاح لها أن تطبع بطابعها العالم الإسلامى والعالم المسيحى الغربى .
ومما يذكر أن الغرب لم يستطع أن يتحرر من سحر أرسطو حتى القرن
السابع عشر المسيحى ، أى بعد مضى ما يقرب من ألفى سنة من التاريخ
الذى تألق فيه نجم أرسطو . بيد أن عبقرية أرسطو فى العلوم الطبيعية ،
وكذا فى دراسته للأحوال الإنسانية ، لم تكن عبقرية قائمة على الإلهام
فلم يتابع أرسطو ما اهتدى إليه لوكيپوس Leucippus بإلهامه من أن
المادة تتألف من ذرات ، ولكن الذى تابع هذا الإلهام هو معاصره الذى
كان أكبر منه سناً وهو ديموكرىتوس الأبدى Democritus Of
Abdera (وأبديرا مدينة مستعمرة هلنية أخرى تقع على الساحل الشمالى
لبحر إيجه) . كما لم يهتد أرسطو بحدسه إلى ما اهتدى إليه الشاب
هيراكلىديس البنطى Heracleides Ponticus كما أن أرسطوخوس

Aristarchus من ساموس (نحو ٣١٠ - ٢٣٠ ق.م) هو الذى تابع الفكرة التى تقول بأن المحور الذى تدور حوله الكواكب هو الشمس وليس الأرض.

وقد خلق نظام الحياة الهلينية الجديد ، الذى أسفرت عنه الإصلاحات الثورية التى قام بها كل من فيليب والإسكندر ، تلك المجالات الشهيرة لحرف الأفراد التى لم تكن معروفة فى ظل أنظمة المدينة الدولة الصارمة . فلم يكن فى وسع المهاجر الهليني أن يشتغل فى الدولتين الهلنيتين اللتين خلفتا الإمبراطورية الفارسية - وهما مملكة مصر المقدونية التى أسسها بطلميوس « المنقذ » أحد قواد الإسكندر ، ومملكة آسيا المقدونية التى أسسها قائد آخر هو سلوكوس Seleucus « القاهر » - بالتجارة فحسب ، بل بالسمن والفنون الحرة . كان أمامه فى الإسكندرية ، عاصمة مصر البحرية ، التى حلت محل أثينا باعتبارها المركز التجارى والفكرى للعالم الهليني ، أن يعمل مهندساً أو طبيباً أو أن يشتغل أديباً ، أو عالماً ملحقاً « بالمتحف » (وهو معهد للبحوث تقوم الدولة بتمويله) . ولم يكن هناك ما يحول دون تعاون العالم الفلكى المقيم فى مدينة سلوكية Celeucia على نهر دجلة ، التى كانت بمثابة العاصمة الداخلية للمملكة السلوكية ، مع زملائه الفلكيين البابليين . كما كان بوسع النازح إلى مملكة من هذه الممالك أن يطمئن إلى أن حريته الفردية ستكون له حتى وإن دخل فى خدمة التاج ، فى وظيفة مدنية ، أو

انخرط فى سلك الجندية . ولقد تمخضت حرب السنوات المائة التى
نشبت بين المدن الدول (٤٣١ - ٣٣٨ ق.م) عن ظهور فريق من الجنود
المحترفين - مثل القائد الاثينى إفيكراتيس « والملك الإسبرطى
أجيسيلاس - استهلوا حياتهم بالانخراط فى سلك الجندية فى بلادهم »
وانتهى بهم الأمر إلى أن تحولوا فى الواقع إلى دول مستقلة ، تحتفظ
بجيوشها المحترفة الخاصة بها ، شأن القواد الذين ظهوروا فى إيطاليا فى
أواخر العصور الوسطى ، والذين عرفوا باسم كوندوتيريى - Condottie-
ti . ولا شك فى أن عبء مثل هؤلاء الجنود المرتزقة على المجتمع
وخطرهم على أمنه كانا يتضاءلان بعض الشيء بدخولهم فى خدمة هذه
الممالك الجديدة ، وكان بوسعهم أن يدخلوا فى خدمتها دون أن تمس
حريتهم ، ذلك لأنه برغم أن الإسكندر وخلفاءه كانوا يدخلون فى عداد
الآلهة من الوجهة الرسمية ، إلا أنه كان بوسع الفرد أن يعمل فى
خدمتهم على أساس مادى دون أن ينتظر منه القيام بفروض العبادة
وواجبات البذل والتضحية التى كانت تطالب بها إلهات المدن الدول .

وانعكس الاهتمام الجديد بحياة الأفراد الخاصة على المسرحيات التى
قدمتها تلك « المدرسة الجديدة» فى الكوميديا الآتيكية ، التى تألق نجمها
خلال فترة الانتقال بين العهد القديم والعهد الجديد . كانت «المدرسة
القديمة» وأشهر أساتذها أرسطوفانيس Aristophanes الذى كان من
المعاصرين لسقراط ويوريبيديس ، تنزع إلى السخرية اللاذعة بمن هم
على قيد الحياة ممن نالوا فى نظر الجماهير شهرة ومجداً . وكان رجال

السياسة هم الهدف المفضل ، وإن لم يكونوا هدف أرسطوفانيس الوحيد ، ذلك لأنه كان يؤلف مسرحياته خلال الحرب التى دارت بين عامى ٤٣١- ٤٠٤ ق.م ، أى فى الوقت الذى كانت فيه الحياة السياسية الآثينية تعاني اضطراباً غير معهود (وقد كان أرسطوفانيس نفسه متحدثاً جريئاً باسم حزب السلام) . أما المدرسة الجديدة - التى ظهرت مقوماتها بالفعل فى مسرحيات أرسطوفانيس فى فترة ما بعد الحرب ، وإن كانت مسرحيات الكاتب المتأخر ميناندر Menander (٣٤٢/١ - ٢٩٢ ق.م) تمثلها أصدق تمثيل - فقد كان اهتمامها منصباً على نوع من كوميديا السلوك التى تضم شخصيات مسرحية من وحي الخيال فى مثل الأحوال الاجتماعية التى كانت تحيط بالطبقة الوسطى فى ذلك العصر . وكانت الشخصية المسرحية البارزة فى الرجال هى شخصية صاحب العقار والإيراد الثابت - أو وريثه المرتقب - الذى يحصل على دخله من استثمارات ممتلكاته العقارية . وكان هذا هو أسلوب الحياة الذى تطمح إليه الغالبية العظمى من النظارة ، أما الأقلية المجدودة التى تمكنت من بلوغه ، فقد أخذت تكافح كفاحاً مريراً من أجل الاحتفاظ به ، وذلك من خلال المراحل الباقية من التاريخ الهلنى . وكان الأساس فى النظام السياسى الذى اصطنعتة أثينا بعد جلاء الحامية المقدونية عنها عام ٢٢٩- ٢٢٨ ق.م ، هو مساندة أصحاب الدخول الثابتة وحماية حقوقهم فى الملكية . وعلى هذا الأساس أيضاً سار النظام السياسى الذى أرسى أوغسطس قواعده فى جميع أنحاء العالم الهلنى بعد انتصاره فى معركة أكتيوم عام ٣١ ق.م .

وعلى حين أنه قد لوحظ فى «الكوميديا الجديدة» اختفاء جانب الاهتمام بالأحوال السياسية الجارية فى المدينة الدولة ، وهو الجانب الذى كانت تعنى به «الكوميديا القديمة» فإن الشخصيات النسائية التى عرضها أرسطوفانيس وجعلها هدفاً للتندر والفكاهة ، لعبت فى كوميديا السلوك دوراً أشبه بالدور الذى كانت تلعبه المرأة فى الحياة ، مما يدل على أن وضع المرأة قد طرأ عليه تحسن ملحوس . كما أن الدور الذى لعبه الرقيق الخدم فى الكوميديا الجديدة كان أقوى أيضاً من دور المرأة . ودائماً ما كانت عقدة المسرحية تتوقف على الغيرة والمهارة اللتين يديهما عبد مخلص فى سبيل تحقيق مآرب سيده ، ونستدل من ذلك أيضاً على أن هذا الموقف المؤلف لدى كاتب المسرحية كان انعكاساً لواقع الحياة فى زمنه . كانت المدن الدول ، زمن سؤدها ، بمثابة أندية يؤمها الرجال الأحرار ، ولا يسمح قط بدخولها للنساء أو العبيد . أما فى ظل نظام ما بعد المدينة الدولة ، فإن هذه الطبقات التى ظلت محرومة من حقوق المواطنة طوال هذا الزمن ما لبثت أن استعادت جانباً من المركز الاجتماعى الذى كانت تتمتع به خلال «عصر البطولة» أو «عصر البربرية» ، وذلك قبل أن يظهر نظام المدينة الدولة ويلقى بها فى عرض الطريق .

وكان فى وضع العبيد الخدم فى أثينا قد أخذ فى التحسن منذ زمن مبكر يرجع إلى القرن الخامس ق.م ، ويعود الفضل فى ذلك إلى ما كانت تقضى به سياسة الحكم الديمقراطى من وجوب تحمل الأغنياء

تكاليف صيانة الأسطول الآثني . فقد كانت التكاليف التي تزيد على مجموع الأنصبة التي تسهم بها الدول التابعة الحليفة ، يتم تدبيرها عن طريق تكليف الأثرياء من بين المواطنين الآثنيين بتحمل نفقات تجهيز السفن الحربية . وقد بلغت هذه الضرائب الإجبارية المفروضة على رأس المال (التي سميت «بالخدمات العامة» توخياً للرقعة في التعبير) ، غاية في الفداحة حتى إن ضحاياها اضطروا إلى الهبوط بمستوى معيشتهم . وكان من بين ألوان التدبير والاقتصاد الشهيرة ، أن يتنازل الثرى عن ترف الاحتفاظ بالعبيد من أجل القيام بالخدمة الخاصة في منزله ، في سبيل إلحاقهم بعمل مجز ، وبذلك يتحولون إلى مصدر ربح له بعد أن كانوا عبئاً ثقيلاً على ميزانيته . ولكنه لما كان قد طلب إلى هذا المتاع البشري أن يلتحق بعمل معين ، وأن يجنى ربحاً من وراء هذا العمل ، فقد كان في ذلك ، أولاً وقبل كل شيء ، اعتراف صريح بآدميته . والآدمي لن يخلص في توفير الربح لشخص آخر مالم يسمح له بأن يقطع نصيباً طيباً مما يجنيه . ولقد تبين لملاك العبيد في أثينا الذين كانوا يعانون ضائقات مالية ، أنه مما يعود عليهم بأوفر الربح أن يثيروا في العبد - وهم بسبيل عقد الصفقة مع العبيد الذين ينتوون إعفاءهم من الخدمة الخاصة بقصد إلحاقهم بحرف معينة - أشد الحوافز التي تكفل نجاح مشروعهم المشترك ؛ وكان أقوى هذه الحوافز على الإطلاق أن يسمح للعبد الملحق بعمل ما أن يستاع حريته على أقساط . وقد جاء في مقال يتناول بالنقد اللاذع الديمقراطية الآثنية ، ظهر خلال الحرب التي دارت بين ٤٣١ -

٤٠٤ ق.م ، بقلم مراقب آئينى مجهول ، أنه كان يتعذر على المرء ، وقت كتابة هذا المقال ، أن يميز فى أثينا بين العبد والحر سواء من حيث الملبس أو من حيث المظهر العام ، كما أن إيذاء العبد لشخص ما لم يكن ليسفر إلا عن إثارة المتاعب فى وجه المعتدى ، لأن إصابة العبد الذى يؤدى عملاً مربحاً بعاهة بدنية تجر بدورها إلى خسارة مادية لصاحب هذا العبد .

ومع ذلك ، فإن فئات ثلاث على أقل تقدير من بين فئات المجتمع ، لم يعد عليها بنفع انهيار هذا النظام الاجتماعى الذى بات عبثاً تنوء به الكواهل . فعلى حين أن الغنم كان من نصيب العبيد الخصوصيين ، فقد كان الغرم من نصيب العبيد الزراعيين والصناعيين . والرق - وهو شرعية معاملة الأدميين على أنهم متاع - يعتبر فى كافة الظروف والأحوال نظاماً غير إنسانى ، والشئ الوحيد الذى يخفف من بشاعته المتأصلة هو تلك العلاقة الشخصية التى تنشأ عادة بين العبد وسيده ، نظراً لأنه ليس من السهل أن يعامل المرء آدمياً على اعتبار أنه ليس بآدمى ، حين يتعامل معه وجهاً لوجه . وهذا هو السبب فى أن حال العبيد الخصوصيين كان فى الغالب خيراً من حال العبيد الزراعيين والعبيد الصناعيين ، كما تفاقمت بلوى العبيد الزراعيين والصناعيين فى العالم الهلنى ، نتيجة لاتساع نطاق المعاملات التجارية ، وتقدم العلوم التطبيقية ، بحيث باتت علاقاتهم بسادتهم علاقات غير شخصية تتسم بالقطيعة والجفاء . والفئة

الثانية من فئات المجتمع التى وقع عليها الغرم أيضاً كانت ذلك العدد الهائل من الأيدى العاملة الزراعية فى مصر وجنوب غرب آسيا الذى ضم برمته إلى مجتمع العالم الهلنى نتيجة لفتوحات الإسكندر الأكبر . ومما يذكر أن أحوال هؤلاء العمال - الذين كانوا أحراراً من الوجهة القانونية ، عبيداً من الوجهة العملية - لم تكن فى ظل الحكم الفارسى المعروف بمرونته ، بأحوال سيئة . كما لم يكن السادة الذين اضطلع هؤلاء العمال بعبء إعالتهم يتجاوزون آنذاك نقرأ قليلاً من النبلاء والكهنة . بيد أنه كان من بين الأهداف التى قصد إليها وحققها أيضاً الغزو الهلنى لأراضى الإمبراطورية الفارسية ، هو بث مجموعة أخرى من المدن الهلنية الاستعمارية . ولقد كان الإسكندر نفسه وخلفاؤه من بعده - وبخاصة أسرة سلوكوس المالكة فى آسيا - يتمتعون ببصيرة نافذة فى اختيار مواقع المدن ، كما كان يبرع المستوطنون أنفسهم فى العمل على ازدهار مستعمراتهم . لقد تمكنت كل من سلوكية على نهر دجلة ودوراً أوروبوس Dura Europus على نهر الفرات أن تصمد لعوادى الزمن زهاء خمسمائة سنة . أما إنطاكية على نهر العاصى والإسكندرية على نهر النيل فلا تزالان قائمتين حتى اليوم ، ولقد قدر للإسكندرية أن تزدهر مرة أخرى ، وأن تتحول إلى مدينة كبيرة تضم بين سكانها نسبة كبيرة من اليونانيين . ولم يحدث فى التاريخ أن شيدت مدن بهذه الكثرة كما لم تصب أى من المدن الجديدة التى أنشئت فى مختلف العصور وفى شتى

البقاء ، هذا القدر من النجاح الذى نالته المدن الدول الهلينية فيما عدا المدن التى تأسست فيما يبدو بعد غزو الكاستيليين الإسبان للمكسيك وبيرو . ويعد استعمار الهلنيين لمنطقة جنوب غرب آسيا ومصر نصراً كبيراً فى نظرهم ، بيد أن وقعه كان أشبه بالكارثة بالنسبة للسكان الوطنيين ، ذلك لأن عبء الملاك الهلنيين كان أشد وطأة على كواهلهم من عبء سادتهم السابقين . أما حال العمال الزراعيين المصريين فقد كان أشد من ذلك بلاء ، لأنهم كانوا يخضعون فى مصر لسيد واحد مطلق السلطة ومطلق الوجود أيضاً ألا هو الملك البطلمي . لقد أراد سقراط أن يبرر الناحية العدوانية لخطته الاستعمارية الكبرى بقوله إن البلاد المغلوبة ستفيد من «الإشراف الهليني» . ولقد وضع البطالمة بالفعل نظم الإشراف وأساليبه ولكنهم استخلصوا لأنفسهم الأرباح كلها . وفى عهودهم قصت جزء عمال الأرض المصريين حقيقة لا مجازاً . أما العنصر الثالث من عناصر المجتمع ، الذى أصابه الغرم من جراء تطبيق النظام الجديد ، فهم الفلاحون الأحرار الذين كانوا يقطنون الأقاليم القديمة من العالم الهليني . وفى صقلية ، بات هؤلاء الفلاحون الأحرار يشعرون ، قرب نهاية القرن الثانى ، بأنهم قد أصبحوا أسوأ حالاً من الرقيق أنفسهم الذين يعملون فى المستعمرات الزراعية والذين دفعهم ما يسامونه من سوء المعاملة إلى القيام بثورة مسلحة .

وهكذا كان المستفيدون من انهيار نظام المدينة الدولة السائد لا يمثلون سوى أقلية ضئيلة فى عالم هلىنى بلغ غاية من الاتساع . ومع ذلك فقد كانت هذه الأقلية هى العنصر المفوه الناطق ، فى حين كانت الجماهير المضطهدة خرساء بكماء ، كالأغنام أمام جزاريها ، أما بالنسبة لهذه الأقلية المفصحة فقد بدت تجربة التحرر هذه ، حقيقة ملموسة . غير أنه كان على هؤلاء أن يؤدوا - كما هى الحال مع كافة المكاسب - ثمن مكاسبهم هذه غالباً . فثلث كانت المطالب الفادحة التى فرضتها المدن الدول على الأفراد قد زادت من حدة التوتر فى الحياة الهلينية بصورة تجاوزت فى النهاية حدود الطاقة ، إلا أن التخفف من هذا التوتر قد سلب الحياة بعض لذتها وقيمتها . فقد وجد الأفراد أنهم قد تحرروا بالفعل من قيود المدن الدول ، إلا أنهم لم يكونوا قد أنشئوا بعد علاقة ولاء جديدة تجاه شئ آخر . وهكذا كان ثمن التحرر من طغيان المدينة الدولة هو الفتور الاليم فى الإحساس بالغيرة والولاء . والآن وبعد أن تحطمت الأصنام القديمة ، فماذا تكون آلهة الهلنيين الجديدة ؟

أكان من الميسور بعد عصر الإسكندر أن يجد الهلينيون آلهة حقيقة بالعبادة ، فى الملوك الذين برهنوا على سطوتهم بأن غيروا وجه العالم ، ودللوا على كرمهم وسخائهم بأن وضعوا فى اعتبارهم فى أثناء ذلك فتح آفاق جديدة أمام الطبقة الوسطى الهلينية ؟ كان كاهن وحى الإله المصرى آمون الذى يقوم فى واحة بالصحراء الليبية قد دعا الإسكندر بأنه ابن الإله

ومن ثم فهو فى ذاته إله . وقبل عهد الإسكندر بما لا يقل عن ألفى وخمسمائة عام ، كان فراعنة مصر يعتبرون آلهة بحكم وظائفهم ، وخلال ما لا يقل عن ألفى عام من هذه الحقبة كان الفرعون يعد أيضاً ابناً للإله رع . أنجبه رع من أم الملك الإلهة الآدمية . كما كان الهليون ينظرون إلى آمون رع باعتبار ندا للإله زيوس زعيم المجموعة الأوليمبية المقاتلة . ويقال أن زيوس قد أنجب من بعض النسوة الفاتنات عدداً كبيراً من الأبناء - من بينهم هيراكليس Hèraklès - بيد أن هؤلاء الأبناء الآدميين الذين أنجبهم زيوس فى القديم لم يكونوا سوى أبطال خرافيين . أما أن ينبج زيوس ابناً آدمياً بين حين وآخر فمسألة مخالفة . وكان الآدميون الوحيدون الثابت ذكرهم الذين قام الهليون حتى هذا التاريخ بتأليههم ، هم مؤسسو المستعمرات ، ولم يكن هؤلاء يرفعون إلى مصاف الآلهة إلا بعد موتهم ، كما لم تكن عبادتهم تتجاوز نطاق المدينة التى كانت من صنعهم . لقد كان أمر اتخاذ الإسكندر صفة الألوهية التى ألصقها به الكاهن المصرى ، يبدو فى نظر المحيطين بالإسكندر من المقدونيين أو من مواطنى المدن الدول حماقة تبعث على الرثاء . وإذا كان قد أصبح من العار منذ أمد طويل أن تصور الآلهة الأوليمبية بصورة البرابرة الخارجين عن القانون الذين ينتسبون إلى العصر السابق للعصر الهلينى وهو عصر الهجرة الجماعية ، فقد كان من الغريب حقاً أن يرى أحد هؤلاء الآلهة البرابرة يهبط من جبل أولمبيوس متجسداً

فى شخص ملك مقدونى . ولم يحدث أن زعم أباطرة الفرس أنفسهم
 الذين كان الإسكندر حريصاً على ترسم خطاهم ، أنهم آلهة ، بل إنهم
 عمدوا أيضاً إلى أن يبرثوا ساحتهم من هذا الادعاء بأن نادوا بأنهم
 مصطفون من الله ونواب عنه . أيرى إله أولمبيا متجسداً ، ومزوداً
 بالسلطات الاستبدادية التى كان يتمتع بها الإمبراطور الفارسى ! أجارنا
 الله من مثل هذا المنقذ للمجتمع الإنسانى ! إن فى ذلك كبرياء من نفس
 إنسانية يندر بسقوطها . وما كان حال المواطنين إزاء السماح بانتقال
 ألوهية المدينة الدولة المستبدة إلى الملوك إلا كحال المستجير من
 الرمضاء بالنار . لقد تخرج الأمير المقدونى على يد مربيه ومعلمه
 العلىنى أرسطو ، ولم يزل بربرياً ناقص التهذيب ، وإن اكتسى فى
 ظاهره بغشاء رقيق من الحضارة الهلينية ، كان عرضة لأن تسقطه عنه
 عواطفه الجامحة ، مع ما قد يسفر عنه ذلك من عواقب وخيمة . أما عن
 خلفاء الإسكندر العظام ، فما كانوا إلا صوراً مصغرة له ، كما لم يكن
 للبصيرة السياسية أو المثالية اللتين كان يتحلى بهما نموذجهم العظيم أن
 تعوضهم عن بربريتهم المتأصلة . لقد كانوا فى واقع الحال سلالة فئة
 البرابرة المراهقين الذين رسمت الآلهة الأولمبية على صورتهم . وقد
 بلغت هذه الفئة أقصى حدود التطرف والهوس فى نسخها النسوية . وكان
 أولى تلكم النسوة السليطات اللاتى أثبتن وجودهن هى أم الإسكندر
 المولوسية التى تدعى أولمبياس Olympias وقد شعر العالم الهلنى فى
 عصر ما بعد الإسكندر ، بوطأة «حكم النساء الرهيب» ، متمثلاً »

ليوديكى « Laodice وفى ما لا يقل عن ثلاث من بين عدد لا يحصى من شبيهات كليوباترا .

وحقق الإسكندر النجاح فى مطالبته بإصرار وإلحاح أن يكون إلهاً ، وما إن أرسى الإسكندر قواعد هذه المسابقة التاريخية ، حتى أصبح خلفاؤه يتخذون لأنفسهم لقب إله كجزء متمم لمراسيم ارتقائهم العرش . واستغلت صفة الألوهية الرسمية هذه ، التى خلعت على الإسكندر وخلفائه ، فى خدمة غرض سياسى عاد بأعظم الفائدة . إذ كان فى وسع ذلك الإله الذى يحظى بمثل هذا الاعتراف الرسمى أن يملأ إرادته على الآلهة المتخفية التى تتقمص المدن الدول دون أن يكون فى ذلك تعد ، من الوجهة القانونية ، على سيادة هذه المدن . ومثل هذه الخرافة الدستورية ، وإن كانت قد حفظت لمواطنى هذه المدن ماء وجوهمهم ، إلا أنها لم تستهوههم أو تجد صدى فى نفوسهم . فما كان لعقيدة الآلهة الملوك الأدميين أن تملأ الفراغ الروحى الذى كانت تعانيه النفوس الهلينية ، حتى وإن كف هؤلاء الحكام المؤلهون عن القيام بدورهم كقادة عسكريين مقدونيين يعيشون فى الأرض فساداً ويشيعون بأرجاء العالم الاضطراب والشغب ، من جراء تكالبهم على أسلاب الإمبراطورية الفارسية . لقد عجز القياصرة أنفسهم ، وهم الذين أسبغوا على العالم نعمتى الوحدة والسلام ، بعد أن كان خلفاء الإسكندر قد مزقوه شراً ممزق عن أن يثيروا فى النفوس غير نظرة احترام فاترة واهنة .

وكان حق الملك المؤله فى أن تقام له شعائر العبادة يستند إلى ما
ثان يسديه للمجتمع من أياذ بيضاء بقيامه بدور المنقذ . بيد أنه ما كان
لذلك المواطن الذي كان فيما سبق يتسبب إلى مدينة دولة ، قد آل أمرها
إلى أن أصبحت موضعاً للسخرية والتهكم ، أن يطمئن إلى أنه سيجد
الملك المنقذ رهن إشارته كلما احتاج إليه . فضلاً عن أنه لم يكن
يطمئن بحال إلى أنه سيجد من هذا الملك الإله ، إذا ما تجلى له ،
العون العاجل وقت المحنة والشدة . وإذا كان الأمر قد ذهب بالفرد ،
بعد أن مر بتجربة قاليه المدينة الدولة التى خيبت آماله ، إلى أن يسعى
إلى العثور على خلاصه فى شخص آخر يحل محل القوة الجماعية
للإنسان فلعله كان من الخير له أن يعتمد فى ذلك على نفسه ، أى أن
يكون هو مخلص ذاته ، لو كان له أن يبلغ هذه الذروة . ولن تكون هذه
بالمهمة الهينة أو اليسيرة ، لأن السلطة السياسية - ولانقول « السلطة
الاستبدادية » لوقعها المنفر - التى كان يتمتع بها الملك المؤله ، لم
تكن لتجدى فتيلاً . أما القوة الروحية فهى وحدها التى تستطيع أن تساعد
النفس البشرية على الخلاص ، وإن استطاع آدمى أن يبلغ هذا الهدف عن
طريقها فلا بد أنه أقرب بنى البشر دون شك شبيها بالله .

كان الملوك الفلاسفة الوهميون الذين تخيلهم أفلاطون خلال عصر
شهد بواذر انهيار مكانة المدن الدول وهيئتها ، من الأشخاص الذين
حققوا بالفعل الخلاص لأنفسهم ، إلا أنهم لبوا مكرهين نداء الواجب

فقفلوا راجعين إلى العالم لإنقاذ المجتمع الإنسانى أيضاً . وقد امتدت الحياة بحكيمين متأخرين - هما زينون من كيتيوم Zeno Of Citium (قراءة ٣ / ٣٣٥ - ٢٦١ ق.م) مؤسس المدرسة الرواقية فى الفلسفة ، وأبيقوروس Epicurus من ساموس (١ / ٣٤٢ - ٢٧٠ ق.م) الذى أسس المدرسة المكملّة الأخرى التى عرفت باسمه - لكى يشهدا تمام الانقلاب الذى طرأ على العالم الهلنى ، ويجاهرا بإنكارهما للواجبات التى يفرضها المجتمع على الحكماء . أما الدولة الوحيدة التى كان لها أن تحظى بولائهم فهى المدينة العالمية ، وهى المدينة التى تتسع باتساع العالم كله ، أو إن شئنا الإيجاز فهى العالم المأهول بأسره (Oecumené) ، ولما كان الأمل قد تبدد فى قيام دولة عالمية هلينية ، وهو الأمر الذى كاد أن يبلغه الإسكندر الأكبر ، لو لم يحطمه موته المفاجئ وهو ما زال فى ميعة الصبا ، فإن «المواطن العالمى» المشايخ للمذهب الرواقى أو الأبيقورى شعر بأنه لم يعد بعد مطالباً بالقيام بالواجبات المدنية الدنيوية المفروضة عليه . وإلى أن توحدت جميع البلاد الهلينية والبلاد المصطبغة بالصبغة الهلينية الواقعة إلى الغرب من نهر الفرات فى ظل الإمبراطورية الرومانية وإلى أن مضى ما يقرب من مائتى سنة على قيام هذه الدولة العالمية المرتقبة ، لم يضطلع بعبء حكم العالم ، وذلك للمرة الأولى والأخيرة أيضاً ، ملك وفيلسوف رواقى ، سوى الإمبراطور ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius

(الذى امتد عهده من عام ١٦٠ إلى عام ١٨٠ بعد الميلاد) . وقد حاول كل من الدعاة الرواقيين والأبيقوريين ، بكل ما وسعهم من جهد ، تزويد هذا الآدمى الذى لا تقيده أية روابط اجتماعية ، بدرع روحى يحميه من كل قذائف القدر وسهامه ويحيله طوداً شامخاً لا تزعزعه تقلبات الحياة وصروف الدهر . وذلك فى ظل مدينة دولة عالمية كانت - على النقيض من مزاعم الحكماء القائلين بأنهم جعلوا منها وطناً روحياً له - متسعة اتساع الفضاء الخارجى بادرة برودته .

كان هؤلاء الفلاسفة المتمتعون بالاكتماء الذاتى فى حياتهم الروحية ، نماذج إنسانية للآلهة أحق بالتبجيل من الملوك أصحاب السلطة السياسية . بيد أنهم كانوا بدورهم مواضع للعبادة لا تبعث على الرضاء الكامل . إذ أن الرواقيين والأبيقوريين لم يلبشوا ، فى محاولتهم بلوغ هدفهم الأسمى والارتفاع بأنفسهم إلى ما فوق مستوى البشر ، أن جردوا أنفسهم من المشاعر الإنسانية . فلم يكن فى استطاعتهم أن يؤمنوا أنفسهم ضد كل ألوان الإيذاء دون أن يضطروا إلى أن يستأصلوا من نفوسهم مشاعر المحبة والشفقة بإخوانهم البشر « ودون أن يتحللوا من روحهم الوطنية ونزعة الخير فيهم . ثم إن هذه الفظاظة وذاك الجمود المتعمد جعلاً من المحال عليهم أن يحققوا الخلاص لجيرانهم فضلاً عن عجزهم عن تحقيق الخلاص لأنفسهم . فماذا بعد ؟ .

الفصل العاشر

فشل الملكيات والاتحادات في تحقيق الوفاق السياسي

حين قفل الإسكندر راجعاً من بابل عام ٣٢٣ ق.م ، بعد أن تم له غزو الإمبراطورية الفارسية وغزو ولاياتها السابقة في الهند ، بدا لفترة من الزمن - كما بدا عام ٤٧٩ ق.م ، عندما طرد الخلف الهليني الفرس من هيلاس الآسيوية ومن هيلاس الأوروبية أيضاً - كما لو أن العالم الهليني قد حقق بالفعل الوحدة السياسية ، وكان هذا الانتصار الظاهري يبدو في هذه المرة انتصاراً ساحقاً مؤزراً . بيد أن الأمل في السلام والوفاق لم يلبث أن تبدد عام ٣٢٣ ق.م ، كما حدث في عام ٤٧٩ ق.م. فقد ترك موت الإسكندر المباغت عام ٣٢٣ ق.م الأثر ذاته الذي تركه النزاع الذي نشب بين إسبرطة وأثينا فيما بعد عام ٤٧٩ ق.م ، فقد انقسم العالم الهليني في هذه المرة أيضاً إلى شيع متناحرة .

لم يكن خلفاء الإسكندر يتمتعون بمثل بصيرته التى حدثه إلى الإيمان بأواصر الأخوة التى تربط بين أفراد الجنس البشرى ، كما أنهم اعترضوا أشد الاعتراض على الإجراءات التى حاول بها أن ينقل رؤياه إلى عالم الواقع ، وذلك بتحقيق المشاركة الفعلية والمساواة بين المقدونيين الغالبين والفرس المغلوبين . فقد أصر الإسكندر على أن يزوج ثمانين من قواده العظام بزوجات فارسيات . ويقال إن سلوكوس المظفر كان القائد الوحيد من بين هؤلاء الذى لم يطلق ، بعد وفاة الإسكندر ، زوجه الفارسية التى أجبر على الزواج بها . أما عن النظرة العامة التى كانت لدى خلفاء الإسكندر حول الأسلوب الذى يجب أن تسير عليه العلاقات بين الهلنيين وأبناء الشرق - إن حق أن كانت لهم نظرة عامة على الإطلاق - فإنما كانت تقوم على ميلهم إلى الأخذ بالمبدأ القائل بحق الهلنيين الفطرى فى السيادة . وبغض النظر عما إذا كانت هذه نظرتهم فى واقع الأمر أم هى خلاف ذلك فقد كان مسلكهم ينم بالفعل عن اعتناقهم لهذه الفكرة . وعلى أية حال فلم يكن هؤلاء يهتمون بالتفكير النظرى . فلم يحرص أحد منهم على شئ حرصه على أن يكون عملياً ، وذلك بالسعى حثيثاً لكى يقطع لنفسه من ميراث سيده ، بحد السيف وبالدخول فى منازعات مع زملائه ، أكبر مساحة يمكنه الاستيلاء عليها والاحتفاظ بها . ولقد دارت حرب الخلافة إثر وفاة الإسكندر فى ظل كل ألوان الشغب والاضطراب التى كانت بمثابة التراث الحضارى الذى آل إلى الطبقة الأرستقراطية المقدونية عن عصر الفوضى والبربرية الذى سبق عصر المدينة الدولة ، واستناداً إلى جميع موارد الإمبراطورية

الفارسية المسلوقة المغتصبة . والحقيقة أن الحروب الطاحنة التى دارت رحاها بين الدول الشقيقة فى العالم الهلنى على مستوى المدينة الدولة طوال ثلاثة وتسعين عاماً (٤٣١ - ٣٣٨ ق.م) لم تلبث ، بعد أن قمعت مدة خمسة عشر عاماً (٣٣٨ - ٣٢٣ ق.م) ، أن عادت إلى الظهور مرة أخرى وعلى أوسع نطاق ، إثر وفاة الإسكندر . وهذا عين ما شهده تاريخ العالم الغربى المسيحى ، عندما انطلقت شرارة الحرب فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر بين المدن الدول الإيطالية ، وامتد لهيبها إلى حروب طاحنة نشبت إبان القرن السادس عشر بين الممالك المجاورة ، وفى كل من الحالتين كانت نيران أتون الإله مولوخ Moloch تذكيها الكنوز المسلوقة من إحدى الإمبراطوريات المغلوبة . غير أن سبائك الذهب والفضة التى تكدست لدى الإمبراطورية الفارسية على مر الزمن ، لم تلبث أن طرحت فجأة للتداول مرة أخرى فى صورة رواتب للجند وهو ما حدث لإمبراطورية إنكا Inca فى بيرو ، فأسفر ذلك عن ضررين بالغين ؛ فضلاً عن أنه قد أدى إلى تضخم فى أعداد الجيوش المرتزقة المتناحرة ، فقد تسبب أيضاً فى انهيار اقتصاد المجتمع الغازى عن طريق إصابته بالتضخم المالى .

وهكذا يتضح لنا أن فقدان المدينة الدولة لسيادتها لم يمكن العالم الهلنى ، على أى نحو ، من تحقيق الوحدة السياسية التى كان فى مسيس الحاجة إليها . ولقد كان مولد الإسكندر وموته وبالا على ما حققه أبوه فيليب ، إذ أنه مد فى رقعة العالم الهلنى إلى أوسع نطاق ثم

ما لبث أن فتته سياسياً إلى عدد كبير من الدول المتناحرة التي قامت بينها حروب متصلة على نحو ما انحدرت إليه الحال فى المدن الدول من قبل ، وإن اختلف الأمر فى أن الأولى كانت تمثل آلات حرب بالغة القوة والجبروت . ولم تعد الانتصارات السياسية التى حققتها الحضارة الهلينية خلال العصر الذى تلا موت الإسكندر أمر قيام مدن محلية جديدة تتجاوز أبعادها أبعاد المدينة الدولة القديمة ، غير أن ذلك لم يكن ليعوضها عن نعمة الوحدة التى أسبغها فيليب على بلاد هيلاس قبل أن يقضى نحبه .

ولو لم يعجل الإسكندر بالانحراف بطاقات مقدونيا ، وتوجيهها إلى تنفيذ تلك الخطة البالغة الطموح والتطرف التى كانت ترمى إلى إخضاع الإمبراطورية الفارسية برمتها لحكمه ، لكان قد تيسر لمقدونيا أن تحتفظ لنفسها بالقوة التى تكفل لها دعم اتحاد كورنثة من جهة ، ونشر الحضارة الهلينية بين الشعوب الشمالية البربرية التى ضمها فيليب إلى ملكه من جهة أخرى . بيد أنه ما إن عبر الإسكندر مضيق الدردنيل Hellespont عام ٣٣٤ ق.م ، حتى أنهكت قوى مقدونيا واستنفدت طاقاتها ، فى أول الأمر ، من جراء طلبات الإسكندر المتكررة للتعزيزات العسكرية من أجل سد النقص الناشئ عن الخسارة فى الأرواح التى كانت تصيب قوات حملته الأصلية فضلاً عن إقامة الحاميات فى الأراضي الشاسعة التى يحتلها ، كما أنهكت قوى مقدونيا أيضاً خلال فترة تقدر بمائة وخمسين سنة بعد وفاته ، نظراً للجهود المتصلة التى كان يبذلها

خلفاؤه على عرش بيلا من أجل السيطرة على بلاد اليونان الأوروبية وفي سبيل الوقوف أيضاً في وجه البرابرة الشماليين ، وذلك استناداً إلى جيوش باتت مهلهلة مخربة بصورة غاية في الزاوية ، لا تسمح بحال بمواصلة خوض معارك متصلة تدور رحاها في جبهتين في وقت واحد . ومن بين الآثار المؤسفة المريرة التي ترتبت على فتوحات الإسكندر ما حدث عام ٢٧٩ ق.م ، ولم تمض على وفاته غير أربعة وأربعين سنة فقط ، حين اجتاح أراضي مقدونيا الغزاة البرابرة الغاليون ، وتمكنت جماعة من هؤلاء البرابرة من أن تعبر الدردنيل في آثار الإسكندر وأن تقيم لها ملكاً دائماً في فريجيا Phrygia ، وذلك دون أن يتمكن حلفاء الإسكندر من جمع قواتهم أو كلمتهم من أجل طردهم (وقد اتجهت جماعة أخرى إلى خزائن دلفي فردها الإله أبولو على أعقابها ، وربما لم يكن ذلك هو أبولو بل الأيتوليون) . وعندما أطاح الرومان بالمملكة المقدونية عام ١٦٧ ق.م، عثروا بها على عدد كبير من مستعمرات البرابرة الشماليين التي كانت قد أسست بناء على أوامر التاج المقدوني ، في المناطق غير المأهولة المتاخمة لحدود مقدونيا الشمالية . وتفشى هذا العنصر الأجنبي الدخيل في أرجاء البلاد ، كما يتفشى السرطان ، وحل محل الوطنيين من الفلاحين المقدونيين الذين التهمتهم نيران الحرب . وهكذا ظهرت قبل الأوان ، وفي إحدى الدول الهلينية التي أنهكتها الحرب ، أعراض محلية لمرض اجتماعي قدر له أن يصيب المحيط الخارجي للإمبراطورية الرومانية بعد مضي أربعائة سنة .

وكانت مقدونيا ومصر البطلمية وآسيا السلوكية هي الدول المقدونية الثلاث الوحيدة التي ورثت إمبراطورية الإسكندر العالمية التي لم تعمر طويلاً ، والتي كتبت لها النجاة بعد الصراع الذي نشب حول تقسيم الإمبراطورية ، وقدر لمملكة سلوكية أن تبرز هذه الدول جميعها في مضمار الأضالة السياسية . إذ استطاعت أسرة سلوكوس أن تقيم قواعد إطار سياسى فعال وفى غاية الاتساع أيضاً ، يمكن أن تنتظم داخله مجموعة من المدن الهلينية الاستعمارية الجديدة غير المتمتعة بالسيادة . وكان ذلك الولاء الذى ارتبطت به بالتاج الملكى ، مثل هذه المدن الموعلة داخل البلاد ، عندما وقع الهجوم المضاد من جانب أبناء الشرق ضد «السيادة الهلينية» أشبه فى طابعه بالولاء الذى ربط بين الغالبية العظمى من الدول الإيطالية الحليفة المتمتعة بالحكم الذاتى ، وبين مدينة روما إبان محنة غزو هانيبال لإيطاليا . ويستدل من ذلك على أن الأسرة السلوكية المالكة قد أقامت مع المدن الدول الهلينية الداخلة فى حدودها علاقات نالت رضا كل من الطرفين . ولو لم يقدر لمملكة سلوكية أن تصاب بالعجز الدائم من جراء اصطدامها بالدولة الرومانية فيما بين ١٩٢ - ١٨٩ ق.م ، لكان من المحتمل أن تتحول إلى اتحاد بين المدن الدول التى يربط بينها الولاء المشترك للتاج .

ومن الاتجاهات التى كان يقدر لها النجاح ، نظراً لأنها تحمل بين طياتها ما يهى لها أسباب البقاء والاستقرار ، ذلك الاتجاه الرامى إلى

تحقيق وحدة منظمة للمدن الدول عن طريق الجمع بينها فى اتحاد فيدرالى دون الالتجاء إلى النظام الملكى ليكون بمثابة رابطة سياسية فيما بينها ، وقد قامت هناك عدة محاولات هلينية تبشر بالأمل على أساس من هذا المبدأ الاتحادى .

كانت بويوتيا مهذاً لأقدم هذه الاتحادات ، حيث ظهر أن الأخذ بالنظام الفيدرالى هو أقرب سبيل إلى التوفيق بين القوى السياسية المحلية المتنافرة ، فقد نشأت هناك حالة من التوتر من جراء الإيمان العميق بالانتساب إلى جنسية بويوتية موحدة من جهة والولاء والتعصب من جهة أخرى للمدن الدول التى انقسمت بويوتيا إليها ، كما قامت هناك حالة أخرى من التوتر بين طيبة ؛ المدينة الدولة الكبيرة التى كانت تنوق إلى ابتلاع بقية أجزاء بويوتيا ، وبين الدول البويوتية الصغيرة التى عقدت عزمها على مقاومة محاولات طيبة من أجل السيطرة عليها . ووضع دستور فيدرالى معقد يرمى إلى تحقيق المساواة بين جميع مدن بويوتيا عام ٤٤٧ ق.م ، وذلك بعد تحرير الأجزاء غير التابعة لطيبة من سيادة أثينا . واحتجب النظام الاتحادى فى بويوتيا بعد ذلك لفترة من الزمن ، وذلك خلال تلك الحقبة الوحيزة التى شهدت سيطرة طيبة على هيلاس . إذ استطاعت طيبة أن تحقق أطماعها فى غفلة من الزمن ، بأن ضمت إليها بقية أنحاء بويوتيا دفعة واحدة . بيد أن بويوتيا عادت إلى اتباع النظام الاتحادى من جديد ، بعد أن لقيت طيبة الإذلال والمهانة على يد

فوكيس Phocis ثم الهزيمة الساحقة على يد مقدونية . وقد ظلت بويوتيا دولة اتحادية حتى انفصلت عرى اتحادها الفيدرالى فى عام ١٧١ ق.م بصفة تمهيدية ، ثم حل نهائياً عام ١٤٦ ق.م بناء على أوامر روما .

وثمة خطوة تقدمية واسعة تمت فى خالكيدىكى Cyalcidice قرابة عام ٤٣٢ ق.م وتمثلت فى تلك الفكرة الدستورية المبتكرة التى تقول بإمكان ازدواج حقوق المواطنة ، وذلك بعد أن تحررت البلاد من سيطرة أثينا . فدخلت المدن الدول مع خالكيدىكى فى اتحاد فيدرالى يقضى بأن ينال مواطن أى دولة من الدول الأعضاء ، تلقائياً ، حقوق مواطنة مدينة أوليثوس Olynthus ، أقوى المدن الأعضاء ، ومقر الحكومة الاتحادية . وكان من مزايا هذا النوع الجديد من الدساتير الفيدرالية ، التى كانت تقضى بأن يجمع الأفراد بين مواظنتهم للاتحاد الفيدرالى ومواظنتهم للدول الأعضاء المؤلفة لهذا الاتحاد ، أن بات الاتحاد يتمتع بقسط كبير من التماسك والحيوية لم يكن ليتاح له لو أنه كان مجرد اتحاد بين دول وليس اتحاداً بين أفراد أيضاً . وأبدى الاتحاد الفيدرالى الخلكيدونى قدرة عظيمة على النمو . فقد أفلح الخلكيدونيون ، خلال عصر الفوضى الذى حل بمقدونيا إثر موت الملك أرخيلائوس Archelaus عام ٣٣٩ ق.م ، فى ضم أجزاء كبيرة من مقدونيا إلى دولتهم الاتحادية . ولو لم تعتمد إسبرطة إلى حل الاتحاد الفيدرالى الخلكيدونى عام ٣٧٩ ق.م . ، بالقوة الغشوم لكان الخلكيدونيون قد تمكنوا من أن يحققوا ما حققه الملك

فيليب على أساس النظام الاتحادي ، بدلاً من النظام الملكي ، ولكانوا قد سبقوا الرومان أيضاً إلى إضفاء الوحدة السياسية على العالم الهليني بأسره .

ومن بين المنظمات التي أخذت بمبدأ ازدواج المواطنة ، اتحاد أيتوليا Aetolia واتحاد آخيا Achaia الفيدراليان ، وقد تألف هذان الاتحادان الواحد بعد الآخر في بلاد اليونان الأوروبية خلال القرن الثالث قبل الميلاد، لكي يكونا بمثابة وسيلتين لتحرير هذا الجزء من العالم الهليني من سيادة مقدونيا . ومن الجدير بالذكر أن النواتين اللتين نشأ حولهما هذان الاتحادان الجديدان كانتا في الأصل منطقتين مستخلفتين لا تحملان أية ذكرى لامجاد محلية غابرة من شأنها أن تحول بين الولايات أو المدن الدول المختلفة وبين إدماجها لحقوقها المستقلة المنفصلة الخاصة بسيادتها في وحدة واحدة ، أو تحول دون أن يقسم المواطن ولاءه مناصفة بين كل من مدينته الأم أو ولايته وبين الدولة الكبرى التي اندمجت فيها هذه المدينة أو الولاية . ومما يذكر أن أثينا لم تنضم قط إلى أي من هذين الاتحادين . أما إسبرطة فقد انضمت في النهاية وعلى الرغم منها إلى اتحاد آخيا ، ومن ثم فقد اغتنمت أول فرصة سنحت لها وانشقت من جديد عن هذا الحلف . وكان من السهل اجتذاب ولاية أينيانيا Aeniania الواقعة في وادي سبيرخيوس Spercheus إلى اتحاد أيتوليا ، واجتذاب ميغالوبوليس Megalopolis المدينة الدولة التي

توحدت مؤخراً فى جنوب غرب أركاديا Arcadia إلى اتحاد أخيا . بيد أنه كان لهذين الاتحادين أن يظفرا أيضاً بانضمام بعض المدن الدول العريقة الشهيرة إليهما .

وقد ارتفع شأن اتحاد أخيا نتيجة لانضمام سيكايون Sicyon المدينة الدولة المجاورة على برزخ كورنثوس فى عام ٢٥١ ق.م ، وذلك عن رغبة واختيار منها . وكان قد تسر استعادة قلعة سيكايون Sicyon وانتزاعها من جديد من يد الحامية المقدونية المرابطة بها ، بمعونة جماعة من مواطنى سيكايون يقودهم أراتوس Aratus ، وقد برهن هذا القائد الذى كان من أبناء سيكايون على أنه فضلاً عن كونه جندياً باسلاً ، فهو سياسى محنك ، إذ عمد إلى إقناع مواطنيه من أبناء سيكايون بأنهم إن أرادوا صون الحرية التى استعادوها ، فعليهم أن يضموا صفوفهم إلى صفوف جيرانهم الأخيين . وما لبث أن أصبح أراتوس الزعيم السياسى لاتحاد أخيا ، وفى عام ٢٤٣ ق.م توج انتصاره الحربى الذى حققه لمدينته ووطنه ، بطرده الحامية المقدونية من قلعة كورنثة ، وكانت قلعة كورنثة تمثل أحد القيود التى كبلت بها مقدونيا بلاد اليونان الأوروبية ، كما أدخل كورنثة ذاتها وميجارا فى اتحاد أخيا . وقد تمكن اتحاد أيتوليا أيضاً من أن يجتذب إلى حظيرته بعض المدن الدول العريقة مثل هيراكليا تراخينيا Heraclea Trachinia التى أسسها البليبونيزيون عام ٤٧٠ ق.م لتشرف على ذلك الممر الذى يقع فيما وراء ممر ثرموبولاي

جهة الغرب ، ويصل بين وسط اليونان وشماله . وكان لانضمام مثل هذه المدن إلى الاتحادين الآخى والأيتولى أهمية كبرى من الناحية الاستراتيجية . فدخل هيراكليا اتحاد أيتوليا ، كان معناه قطع خطوط المواصلات البرية التى تصل مقدونيا بوسط اليونان ، كما كان دخول كورنثة اتحاد آخيا معناه قطع طرق المواصلات البرية التى ترتبط بين مقدونيا والبيونيز . بيد أن الأثر الأعظم لحركة الاتحاد والاندماج التى تمت بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات المتخلفة ، ظهر بوجه خاص على الناحيتين السيكولوجية والسياسية . فقد كان من شأن انضمام مثل هذه الدول الشهيرة كأعضاء جدد فى اتحادى أيتوليا وآخيا أن ارتفعت مكانتهما وزادت هيئتهما ، فضلاً عن أنه كشف النقاب عن خلة حميدة تتحلى بها المدن الأعضاء الجدد ، وهى أنها لم تكن قط ترسف فى أغلال ذكرياتها عن استقلالها السابق المجيد .

وكان لقيام اتحاد آخيا ، واتخاذه ميجالوبوليس الواقعة على أعتاب إسبرطة قلعة وحصناً من حصونه ، أن مرت إسبرطة بتجربة مريرة واختبار صعب ، إذ تحتم عليها أن تختار أحد سبيلين ، فإما أن تروض نفسها على تقبل فكرة تخليها عن استقلالها ، وإما أن تخرج فى النهاية خروجاً تاماً عن تقاليدها الماضية ، على أن يكون ذلك على أضخم صورة وأوسع نطاق . فقد منيت إسبرطة ، قرابة أواسط القرن الثالث ق.م بنقص ذريع فى عدد الرجال كالذى شهدته مقدونيا من قبل . ومثل

هذا النقص لم يعم العالم الهليني بأسره إلا بعد مضي مائة سنة على هذا التاريخ وقد قيل إن عدد الأسر الإسبرطية هبط آنذاك إلى سبعمائة أسرة ، كما لم يتجاوز عدد الأسر التي تملك من بينها أرضاً أو تشرف على أرض الأسرة المائة تقريباً . ولم يعبأ العالم بما أصاب إسبرطة من عجز في عدد قواتها ، إذ كان قد مضى منذ أمد بعيد الزمن الذي كان ينظر فيه إليها باعتبارها قوة عسكرية يخشى بأسها . بيد أن ذلك قد حز في نفوس ذلك الفريق من الإسبرطيين الذي لم يستطع أن يطامن نفسه ، كما فعل الآثينيون على أن يشهد أقول نجم بلده على المسرح الدولي . وما كان علاج هذا الموقف بمتعذر ، إذ ظلت ممتلكات إسبرطة الخاصة من الأراضي حتى بعد تحرير مسينا (وبغض النظر عن أراضي المدن التابعة التي تحيط بها) تضم جانباً من الأراضي الزراعية التي تعد من أوفر الأراضي الزراعية إنتاجاً في بلاد اليونان الأوروبية ، وقد كانت الأرض بخير . لم يحد إسبرطة قط الأمل في أن تدخل في عداد الدول العظمى التي تأسست في عصر ما بعد الإسكندر ، بيد أنه كان في مقدورها أن تعزز قواتها العسكرية إلى حد بعيد - وربما بالقدر الذي يمكنها من الصمود أمام اتحاد أخيا المجاور لها - إذا ما عملت على أن تستخلص من أرضها الطيبة من جديد موارد العيش الكافية للبعدد الكامل اللازم من الجنود الذي كان في مقدور هذه الأرض أن تعوله من قبل . فقد كان هناك من بين المواطنين الإسبرطيين من كان لهم الحق في الحصول على مخصصات من الأراضي الزراعية ، كما كان من الممكن أيضاً منح حقوق

المواطنة الإمبرطية «الصفوة الممتازة» من التابعين Periceci ، ثم نقلهم إلى تلك الأراضي الإمبرطية التي تتخلف بعد أن يتم توزيع الأراضي على جميع المواطنين الإمبرطيين الذين لا يملكون أرضاً . بيد أن مثل هذا البرنامج لم يكن ليغنى غير تقسيم ضياع «النظراء» الخاصة ، الذين لا يزالون على قيد الحياة ، ثم إن أية محاولة لوضع ذلك البرنامج موضع التنفيذ كانت ستلقى حتماً مقاومة عنيفة ، فقد كانت الزيادة التي طرأت على معدل الثروة بالنسبة لكل فرد من الإمبرطيين الملاك الباقين على قيد الحياة ، هي النتيجة الاقتصادية الحتمية لتضاؤل عدد أفراد هذه الطبقة ، وكانت الأقلية المميزة المحظوظة تجد العزاء في ذلك عن انهيار قوة بلادها العسكرية الذي صاحب نقص أعدادها .

وكان أول من قام بمحاولة تنفيذ هذه الثورة في لأكيدايون Lace-daemon هو الملك آجيس Agis الرابع (وتولى الحكم بين ٢٤٤ - ٢٤٠ / ٢٤١ ق.م) وكان هذا الملك رقيق الشعور نزاعاً إلى المثالية بحيث رضى لنفسه أن يقع في قبضة أعضاء ثورة مضادة وأن يحكم عليه بالإعدام دون أن يبدى أية مقاومة . وقد أجيبرت أرملته على الزواج من ولى عهد الأسرة المالكة الإمبرطية الأخرى ، وكان شاباً يافعاً (إذ كان يتولى الحكم في إمبرطة جنباً إلى جنب ملكان ينتسبان إلى أسرتين ملكيتين مختلفتين، ولعل ذلك كان أثراً من آثار العصر السابق للاتحاد حين كانت إمبرطة تتألف من خمس قرى منفصلة) . وراحت الملكة

آجياتيس Agiatis تلقن الملك كليومينيس الثالث Cleomenes III (وتولى الحكم بين ٢٣٧ - ٢٢٢ ق.م.) مبادئ زوجها الأول الشهيد ومثله ، حتى إن زوجها الثانى الذى كان يضع فى اعتباره ألا يتورع عن الالتجاء إلى العنف وسفك الدماء إن لزم الأمر ، عقد العزم على أن يمشى بالثورة إلى غايتها . وفى هذه المرة ، لم يكن الملك الناصر هو الذى خر صريعاً ، بل كان هذا هو مصير من قاموا بالثورة المضادة . وفى عام ٢٢٧ ق.م. أعاد كليومينيس توزيع أراضي إسبرطة وفق البرنامج الموضوع ، فحصل بذلك من اختيروا من التابعين Perioeci ، بالإضافة إلى الإسبرطيين الذين لم يكونوا يمتلكون أرضاً ، على مخصصاتهم من الأرض بالطريق القانونى .

لم يكن تحقيق العدالة الاجتماعية من أهداف الثورة التى قامت فى إسبرطة . فإنها لم تكن ترمى قط إلى تحرير رقيق الأرض ، (وكان لا يزال هناك فريق من هؤلاء العبيد فى وادى يوروتاس Eurotas بعد تحرير مسينا) ، كما لم تتجه النية قط إلى إزاحة عبء نظام لوكورجوس الذى يحكم على الفرد بالعبودية العسكرية المؤبدة عن كواهل المواطنين الإسبرطيين ، سواء بالنسبة للقدامى منهم أو الجدد . وقد اقترنت زيادة عدد أفراد الفرقة الإسبرطية التابعة للجيش اللاكيدايمونى ، بتعديل أسلحة الجنود اللاكيدايمونيين . فبعد مضى مائة وثلاثة وستين عاماً على اندحار الفرقة الإسبرطية وتشتتها أمام الفرقة التى نظمها أفيكراتيس من الجنود

العزودين بالرماح والتروس ، عاد كليومينيس ملك إسبرطة إلى تسليح المشاة اللاكيدايمونيين بالترس الصغير والرمح بدلاً من الدرع والحرية . أما عن الآثار الاقتصادية التي ترتبت على هذه الإصلاحات ، فلم تكن تمشل في نظر كليومينيس غير نتائج عرضية ثانوية بالنسبة للهدف العسكري الكبير . غير أن النتائج الاجتماعية التي ترتبت على الثورة الإسبرطية ، كانت أجل وأخطر في نظر جارات إسبرطة من الآثار العسكرية .

أما وقد شرعت إسبرطة في القيام بتوزيع الأملاك العقارية على نسق جديد ، فكم كانت ستبلغ هذه الحركة من مدى ؟ كان اتحاد آخيا بمثابة جمعية تهدف إلى كفالة الحماية المشتركة لكافة الملكيات العقارية الخاصة إلى جانب صونها للاستقلال السياسي للبلاد . وقد أصبح على مواطني اتحاد آخيا بدورهم أن يختاروا بين ما تحتمه عليهم مشاعرهم الوطنية ، وبين ما تمليه عليهم مصالح الطبقة الوسطى . ثم هل كان من الممكن تحاشي خطر إسبرطة بضمها إلى اتحاد آخيا ؟ لقد كانت هذه مقامرة خطيرة ، لأن كليومينيس كان يتمتع بشخصية قوية أخاذة ، ولو دخل الحلف لألت زعامته إليه وانتزعت من يد أراتوس ، وربما وجد اتحاد آخيا نفسه أيضاً ، وقد تحول إلى إمبراطورية إسبرطية صغرى . أما أراتوس فقد سعى ، بدافع من مصالحه الذاتية ، إلى إقصاء كليومينيس عن الحلف ، والإطاحة به أيضاً ، وذلك بأن عمد إلى اللعب بمشاعر

القلق التى تساور ناخبيه من أفراد الطبقة الوسطى فيما يتعلق بوضعهم الاجتماعى والاقتصادى . ولم تلبث عروض كليومينيس بالصلح مع اتحاد آخيا أن قوبلت بالرفض ، وجرت المفاوضات فى هذا الشأن مع ملك مقدونيا المعاصر أنتيجونوس دوسون Antigonus Doson . وكان الثمن الذى طلبه أنتيجونوس فى مقابل مساعدته لمواطنى اتحاد آخيا ، على حسم أمورهم مع كليومينيس هو عودة الحامية المقدونية إلى قلعة كورنثة . واستطاع أراتوس أن يقنع المواطنين الأخيين بالموافقة على ذلك على الرغم من أن تحرير كورنثة هو إحدى مفخرتين كان يعتز بهما أراتوس . فزحف الجيش المقدونى إلى الجنوب فى ٢٢٤ ق.م ، إلا أن اختلال ميزان القوى على هذا النحو لم يحد مصر بحال إلى تقديم العون العسكرى إلى كليومينيس . أما قضية كليومينيس ، فكانت قد قضى عليها فعلاً بالفشل ، قبل أن يلقي الجيش اللاكيدايمونى فى تنظيمه الجديد الهزيمة المحققة عام ٢٢٤ ق.م عند سيلاسيا Sellasia ، قرب المنافذ الشمالية الشرقية لمدينة إسبرطة .

وفر كليومينيس وأسرته إلى الإسكندرية بصحبة نفر قليل من رفقاءه الأوفياء وإخوانه فى السلاح ، بيد أن سحر شخصيته الطاغى أثار فى وجه الملك بطليموس الرابع عندما نزل كليومينيس به ضيفاً متاعب جمّة كالتى عاناها الرئيس أراتوس عندما ناصب كليومينيس العداء . وكانت مصر تعتمد فى دفاعها خلال القرن الثالث ق.م مثلما كانت تعتمد خلال

القرنين السابع والسادس ، على فرقة من الجنود المرتزقة اليونانيين . وقد بدأ كليومينيس وهو فى منفاه بالإسكندرية بطلاً فى أعين هؤلاء الجنود اليونانيين الذين يعملون فى خدمة بلد أجنبى . وكان الكثيرون منهم من إخوانه المواطنين فى البليونيز . ولم يكن من المستبعد أن تحدثه نفسه بمحاولة كسب تأييدهم للقيام بانقلاب عسكرى والاستيلاء على مصر لاتخاذها قاعدة للعمليات من أجل استعادة إسبرطة . وشعرت الحكومة البطلمية أن من الصواب وسداد الرأى اعتقال الملك المنفى ورفقائه الإسبرطيين . فاندفع هؤلاء الأسرى الساخطون خارج السجن وتدفقوا إلى طرقات الإسكندرية ، وصرعوا أحد الموظفين المدنيين المنكودين ، وراحوا يدعون المواطنين إلى الثورة باسم الحرية . فلم يستجب المواطنون لذلك ولم يحركوا ساكناً ، فلو كانت لديهم بقية من رغبة فى أن يشهدوا مزيداً من هذه الثورات ؛ لما كانوا قد هجروا أصلاً مدن آبائهم وأجدادهم ، ونزحوا إلى الإسكندرية ييغون المقام بها . وعلى نحو درامى مفعج انتحر كليومينيس ورفقاؤه . كما أصدرت السلطات البطلمية حكمها الوحشى الصارم بإعدام نساءهم وأطفالهم . وما لبثت قصة حياة ملك إسبرطة الشهيد الثانى ، كما كان حال قصة حياة الملك آجيس الذى سبقه إلى الاستشهاد ، أن أصبحتا أسطورتين تعيشان بين أطواء ذلك العالم الساخط الموشك على الانفجار الذى يكاد يمسيد تحت أقدام الطبقة الهلينية الوسطى المزعزعة السيادة .

وكانت المنازعات التى نشبت فى البليونيز والتى اختتمت بمعركة سيلاسيا عام ٢٢٢ ق.م تبدو كما لو كانت لا تعدو حرباً صغيرة . بيد أن الحرب الكبرى قد نشبت عام ٢٢١ ق.م عندما هاجم أنتيوخوس الثالث « ملك سلوكية » ، أراضي المملكة البطلمية فى «سورية المجوفة» (Coele Syria) - كما كان يطلق على كنعان فى اللغة اليونانية ، للدلالة على الوادى الشديد الانحدار الناشئ عن انخساف القشرة الأرضية والذى يمتد من البقاع إلى خليج العقبة . وفى عام ٢١٩ نشبت حرب محلية أخرى فى بلاد اليونان الأوروية بين اتحاد أيتوليا وبين مقدونيا التى كانت تلقى تأييداً من جانب حلفائها فى اتحاد آخيا ومن جانب حلفاء آخرين أيضاً . وفى العام نفسه ، وعلى سواحل البحر المتوسط القصية فى إسبانيا ، قام القائد القرطاجنى الشاب هانيبال ابن هاميلكار بمحاصرة مدينة ساجونتوم Saguntum المحلية الصغيرة ثم استولى عليها . وكانت هذه محمية رومانية تقع فى مركز غير واضح المعالم على الجانب القرطاجنى من حدود نهر إبرو الذى ارتضته كل من هاتين الدولتين الغربيتين ليكون حداً فاصلاً بين منطقتى نفوذهما فى شبه جزيرة أيبيريا . وكان مقدراً لهذه النيران المحلية أن تتجمع سريعاً فى حريق بانهلينى عام . وكانت هذه هى اللعنة التى نزلت بالمجتمع الهلينى بأسره لأنه عجز عن صون الوحدة التى كادت أن تتحقق له منذ مائة وعشرين عاماً بفضل الجهود الجبارة التى بذلها السياسى المقدونى العظيم فيليب بن أمينتاس

الفصل الحادى عشر

تقبل روما للحضارة الهلينية وانقلاص ميزان القوى

كان يبدو كما لو أن النظم السياسية التى اتخذتها كل من اتحاد آخيا وأيتوليا والمملكة السلوكية إنما تنطوى على الحلول الطيبة الموجدة لتلك المشكلة المشتركة التى أصبح يعانى منها العالم الهلنى بأسره فى عصر ما بعد الإسكندر ، ألا وهى السبيل إلى وضع دساتير للدول التى يتجاوز نطاقها حدود المدينة الدولة . بيد أن النجاح والازدهار كانا معقودين على مجموعة جديدة من الدول التى قامت إلى الشرق من مضيق أترانتو .

ولو أنه كان مقدراً أن تقوم دولة من دول إيطاليا أو صقلية بدور رئيسى فى التاريخ الهلنى خلال عصر ما بعد الإسكندر لكانت سرقوسة Syracuse على قمة الدول المرشحة للقيام بهذا الدور ، ذلك لأن سرقوسة كانت تعد من بين المدن الدول الهلينية الوفيرة السكان ، البالغة القوة ، العريقة الحضارة ، فضلاً عن أن صقلية - كما سبق أن أوضحنا

- كانت الميدان الأول الذى حققت فيه الفراهة السياسية الهلينية النصر فى مضمار ضم المدن الدول فى وحدات سياسية كبيرة . وكان خلق الإمارتين اللتين تركزتا حول كل من أكراجاس Akragas (اجريجتوم Agrigentum) وسرقوسة بمثابة رد محلى هلىنى على الاتحاد الذى قام فيما سبق بين المدن الدول الفينيقية الواقعة فى الحوض الغربى للبحر المتوسط وذلك تحت زعامة قرطاجة . وقد تمكنت هاتان الإمارتان المتحالفتان أن تحبطا المحاولة التى قامت بها قرطاجة عام ٤٨٠ ق.م لغزو المنطقة الخاضعة للاستعمار الهلىنى فى الغوب . وأعادت قرطاجة الكرة مرة أخرى عام ٤٠٩ ق.م بعد أن أسفر هجوم وقع على سرقوسة من جانب أثينا عن تخريب الشطر الهلىنى من صقلية ، وبعد أن أبحر أيضاً أسطول سرقوسة المظفر ليشترك فى شن هجوم مضاد على أثينا فى مياه بحر إيجه البعيدة . وكان القرطاجيون فى هذه المرة قاب قوسين أو أدنى من تحقيق النصر . فلإنهم عندما عادوا إلى الهجوم عام ٤٠٦ ، تمكنوا من اجتياح أراضى صقلية جميعها حتى بلغوا أسوار سرقوسة وضربوا حولها الحصار بالفعل ، وعند ذلك استجمع الهلىنيون الصقليون قواهم بمعاونة ديونيسيوس الذى كان صديقاً لهرموكراتيس Hermo-crates زعيم حركة المقاومة السرقوسية المناهضة لأثينا . ولم يلبث ديونيسيوس أن قلب دفة الأحوال بصورة تثير الدهشة والعجب ، إذ تمكن لبرهة قصيرة خلال عام ٣٩٨ ق.م من طرد القرطاجيين من معظم ممتلكاتهم فى صقلية ، بما فى ذلك قلعة موتوا Motya المقامة على

جزيرة صغيرة . وعندما تبدلت الأوضاع ثانية وثالثة ، اتفقت الأطراف المتنازعة عام ٣٩٢ ق.م على تقسيم صقلية بحيث لا يترك لقرطاجة سوى الطرف الشمالى الغربى من الجزيرة على أن تثول الأجزاء الباقية إلى ديونيسيوس .

وهكذا باتت أملاك هذا الطاغية الصقلى ، تشمل كلاً من الأملاك التى كانت تابعة فيما سبق لهيرو Hiero حاكم سرقوسة ، والأملاك التى كانت تتبع ثيرو حاكم أكرجاس ، كما مضى ديونيسيوس أيضاً فى إخضاع طائفة من المدن الدول الهلينية المستعمرة فى إيطاليا ، وفى إنشاء قيادة بحرية فى بحر الإدرىاتيك . ولو كان قد قيض للإمارة الهلينية التى أسسها ديونيسيوس إلى الغرب من مضيق أترانتو البقاء إلى عصر خلفاء الإسكندر ، لاستطاعت أن تقف على قدم المساواة مع الممالك الهلينية الجديدة . والحقيقة أن مثل هذه الإمارة بعد أن أرسيت دعائمها من جديد خلال العصر ذاته ، على يد أجاثوكليس من سرقوسة (وتولى الحكم بين ٣١٧ - ٢٨٩ ق.م) قد تمكنت بالفعل من الصمود أمام هذه الممالك رغم أنها كانت أقل قوة ، وأصغر مساحة من إمارة ديونيسيوس السابقة . وكان من سوء طالع الحضارة الهلينية وحظها العاثر ، أن إمارة ديونيسيوس لم تعيش طويلاً شأنها شأن هيريو وثيرو اللتين تنتسبان إلى تاريخ سابق وإمارة إجاتوكليس التى ترقى إلى تاريخ لاحق ، فضلاً عن أن عوامل التخريب ومعاول الهدم التى قوضت دعائم كل من هذه

الاتحادات الواحد بعد الآخر « كانت متماثلة متشابهة . وكان الصقليون قد قبلوا مرغمين قيام مثل هذه الاتحادات على أساس أنها السبيل الوحيد لاتقاء شر الهزيمة على يد قرطاجة ، بيد أن ثمن الخلاص كان تبعية المدن الدول الصقلية الصغيرة إلى سرقوسة وخضوع مواطني سرقوسة أنفسهم ، فضلاً عن سائر الصقليين لحكم دكتاتور طاغية . ولم يكن هذا الثمن فى نظر الهلنيين ، بالثمن السهين على الإطلاق ، ومن ثم فإن الرغبة فى العودة إلى نظام الحكم الجمهورى ، وإلى تأسيس ممالك محلية ، مادامت تطفئ على الرغبة فى اتباع سياسة تأمين ضد العدوان الخارجى على أساس من تحمل ذلك الثمن الباهظ « وذلك حال أن يتراءى للأنتظار أن خطر وقوع عدوان وشيك من جانب قرطاجة قد بعد شيئاً ما . وفى عام ٣٥٦ ق.م ، وبعد أن كان ديونيسيوس الأول قد خلف العرش ابناً له يحمل اسمه أيضاً ، وإن كان لا يدانيه فى القوة والمقدرة ، أطيح بالأسرة المالكة الديونيسية تفتت أراضيها على يد ثورة قامت منادية بالحرية .

كان سقوط إمارة ديونيسيوس عام ٣٥٦ ق.م ، أواخر عاقبة بالنسبة للهلنيين الغربيين من سقوط إمارة هييرو عام ٤٦٦ ق.م ، لأن قرطاجة لم تكن فى هذه المرة هى الجارة الوحيدة التى أصبح على الهلنيين الغربيين أن يجابهوها . فقد بدأ الهلينيون الغربيون يواجهون بالفعل مختلف المتاعب من جراء هجوم الشعوب الوطنية المضاد ، وذلك قبل أن يقرروا بالفعل تسريح قواتهم المتحدة . وقد قدمت مدينة سرقوسة

الدليل ، خلال الفترة التي تلت قرار تسريح الجيوش السابق « الذى اتخذ منذ مائة وعشر سنوات ، على أنها تملك من القوة ما يمكنها - دون الاستعانة بالمدن الدول الهلينية السرقوسية الأخرى التي كانت مواردنا قد خرجت عن سيطرة سرقوسة - من كف أيدي الشعوب الصقلية الوطنية التي تعيش بالداخل عن تقويض دعائم ملكها . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد ثار الصقليون ضد حكم سرقوسة مطالبين بالحرية التي كانت مثلاً أعلى في نظر الهلنيين ، إلا أن فشلهم في انتزاع استقلالهم السياسى بالقوة من دولة هلينية متسلطة لم ينفهم من الحضارة الهلينية ، كما لم يعرقل بحال خططهم التي كانوا قد بدءوها بالفعل ، والتي قصدوا بها تمثل الحضارة الهلينية تلقائياً وبمحض إرادتهم . وقد هبت العاصفة التالية من هجمات الوطنيين المضادة ، على خلاف هجماتهم السالفة ، من تلك المنطقة القصية المتوغلة في القارة ، والممتدة بطول السواحل الإيطالية الشرقية إلى الشمال من «المهماز» وفوق «الكعب» ، ولم تكن الحضارة الهلينية قد أقامت لها حتى ذلك التاريخ أى مركز في هذه المنطقة غير أنكونا Ancona ، التي أنشأ بها ديونيسيوس الأول قاعدة بحرية تتبع سرقوسة . وكانت أنكونا هى البقعة الوحيدة التي تصلح لأن تتخذ مرفأً طبيعياً على طول هذا الساحل الواقع إلى الشمال من ميناء برونديزيوم Brundisium (برنديزى Brindisi) الذى اتخذته الرومان فيما بعد قاعدة لعملياتهم الحربية عبر مضيق أترنتو . ولم تخلف الحضارة

الهليئية أى أثر ذى بال فى منطقة شرق إيطاليا ، شمال «المهماز» حتى ضمت هذه المنطقة إلى الدولة الرومانية ، أما عن البرابرة الأوسكان -Os cii الذين أخذوا منذ أواخر القرن الخامس ق.م ، يشنون هجماتهم من هذه المنطقة الثانية ، على المستعمرات الهليئية الواقعة فى كمبانيا -Cam pania ، وفى «أصبع» إيطاليا ، فقد ثبت أنهم عاجزون عن تمثّل الحضارة الهليئية بقدر ما كان الصقليون على استعداد لتقبلها . وقد تمكنت المدن الدول الرئيسية التى أسسها المستعمرون الهليئيون على شواطئ إيطاليا- مثل تارنتوم Tarentum ولوكرى Locri وريجيوم Rhegium - من الصمود أمام هذه الهجمات ، بل إن مدينة نيابوليس -Nea polis(نابل Naples) الصغيرة الواقعة على شاطئ كمبانيا قد خرجت من المعركة سالمة . أما المدن التى لقيت الهزيمة بالفعل ، وقد كان هذا هو المصير الذى صادفته كثير من المدن الهليئية الصغيرة ، فهذه خسرها العالم الهليئى لفترة من الزمن . وقد أدى انهيار إمارة ديونيسيوس إلى بلوغ الطوفان أقصى حدوده . وليس أدل على عظم الخطب وفداحته مما وقع فى عام ٢٨٩ ق.م ، للمدينة الهليئية الصقلية ميساننا Messana ، التى تشرف على الجانب الصقلى من المضيق الواقع بين صقلية و «إصبع» إيطاليا ، إذا احتلها شرذمة من الجنود المرتزقة الأوسكان ، ثم أجلت عنها سكانها . واستعمرتها ، وكان هؤلاء الجنود فى خدمة أجاثوكليس من قبل ، كما اتخذوا لهم اسم المامرتيين Mamertini نسبة إلى أحد آلهة الحرب الوطنية فى إيطاليا .

وهكذا باءت بالفشل محاولات هلينيو الغرب لصد أى من قرطاجة أو قبائل الأوسكان بعد انهيار الإمارة الديونيسية . كان الطاغية أجاثوكليس ، الذى أعاد تأسيس إمارة سرقوسة عام ٣١٧ ق.م ، رجلاً ذا عزم وبأس - فقد كان أول بطل هلينى هاجم قرطاجة فى شمال غرب أفريقيا ، وفى عقر دارها - بيد أن جهوده هذه ذهبت أدراج الرياح . وعندما تأسست هذه الإمارة من جديد ، وللمرة الأخيرة . على يد طاغية آخر يدعى هيرو Hiero (وتولى الحكم بين ٢٦٥ (؟) و ٢١٥ ق.م) لم تتجاوز حدودها الساحل الغربى من صقلية ، باستثناء ميساننا Messana الممرتنية ، كما كانت تخضع طوال تاريخها للحماية الرومانية . ودأب هلينيو الغرب أيضاً على طلب العون من إخوانهم فى شرق مضيق أثراتو . ومثال ذلك ما حدث فى عام ٣٤٤ ق.م إذ وفد تيموليون Timoleon ، المواطن الكورنثى الداهية - وكانت مدينة كورنثة هى الوطن الأصلى لمستعمرى سرقوسة - إلى صقلية لنجدة سرقوسة التى استغاثت به من أجل الخلاص من ديونيسيوس الثانى ، وكان قد استولى على سرقوسة عام ٣٤٧ ق.م ، وأفلح تيموليون فى طرد ديونيسيوس وبعض الطغاة المحليين الآخرين ، كما حسم الخلافات القائمة وجرد جيشاً لصد هجوم قرطاجة . ولكنه كان يحرص كل الحرص على ألا يدع الفرصة تفوته لينصب من نفسه طاغية عليها ، غير أن المدن الدول فى صقلية لم تلبث أن تردت أثر اعتزاله الحياة العامة مرة أخرى ، فى موجة جديدة من الفوضى لم تنحصر حتى ظهور أجاثوكليس .

وقد هب أبطال أربعة ظهوروا فى بلاد اليونان الأوربية الواحد بعد الآخر لكى يمدوا يد العون للمدن الدول اليونانية الواقعة فى جنوب إيطاليا استجابة لنداءات الاستغاثة من جانب شعب تارنتوم . فجاء إليهم الملك أرخيداموس Archidamus الثالث ملك إسبرطة عام ٣٤٢ ق.م ، فلقى حتفه فى ميدان المعركة على أرض إيطالية عام ٣٣٨ . وعبر الإسكندر ، ملك المولوسيين Molossii - وهم شعب من شعوب شمال اليونان يعيش فى الأجزاء الداخلية من القارة (فى إبيروس Epirus) المواجهة لجزيرة كوركيरा Corcyra - عبر مضيق أترانتو بعد مضى عام على عبور سميّه المقدونى مضيق الدردنيل . ولعله كان بوسع هذين القائدين اللذين يحملان اسم الإسكندر ، إذ ما وحدا قواتهما ، أن يستخلصا إيطاليا للحضارة الهلينية ، بيد أن هذا المغامر المولوسى قد اضطلع بتنفيذ خطة عسكرية تفوق فى خطورتها وهو لها خطة المغامر المقدونى بإمكانيات تقل عن إمكانيات الأخير إلى حد بعيد ، وكان مصيره هو المصير ذاته الذى لقيه أرخيداموس . إذ بآء تدخله بالفشل .

أما عن تدخل الأمير الإسبرطى كليونوموس Cleonymus الذى تلا ذلك فى عام ٣٠٣ فقد انتهى بمهزلة ، وعندما رسا بتارنتوم أحد الملوك المولوسيين المتأخرين ، وهو القائد العظيم الشهير بيروس Pyrrhus وذلك فى عام ٢٨٠ ق.م على رأس عدد كاف من القوات يفوق عدد القوات التى نزل بها سلفه المولوسى ، الإسكندر ، كانت الفرصة قد

أفلفت ، ذلك لأن تارنتوم لم تكن تواجه فى ذلك الوقت شرارذم من المحاربين الأوسكان من أشباه البرابرة ، بل كانت تواجه روما ذاتها . وتبين بيروس أنه ما كان بوسعهُ أن يكسر شوكة روما ، حتى وإن ساندته قوات تارنتوم ولوكانيا Lucania وبروتيوم Bruttium الموحدة . بيد أن بيروس اضطلع والرومان لا يزالون فى ميدان القتال بمهمة تكاد لا تقل هولاً عن المهمة السابقة ، ألا وهى محاولة طرد القرطاجيين من صقلية . كما لم يكن يكف كل هذه الأثناء عن التطلع إلى وراء خشية أن تقلت من يده أية فرصة طيبة تتيج له التدخل من جديد فى الشجار الناشب من أجل اقتسام إرث الإسكندر الشاسع فى مقدونيا ، الذى كان على جانب نسي من الهدوء والسكينة . ولقد بات من الواضح الجلى يعد انسحاب بيروس عام ٢٧٥ ق.م إلى شواطئ مضيق أترانو الشرقية ، إن أمل خلاص الحضارة الهلينية فى الغرب - إن كان لها أصلاً أمل فى الخلاص - قد أصبح معقوداً على روما وحدها دون سواها .

وكان من حسن حظ الحضارة الهلينية أن قيض لها إيطاليون وطيون من أبناء القارة الأوروبية ممن يعيشون على شواطئ إيطاليا الغربية ، ويحظون باستعداد طيب لتقبل الحضارة الهلينية كالذى كان يتمتع به بنو جلدتهم من أبناء الجزر ألا وهم الصقليون . وما إن رسخت قدم الحضارة الهلينية فى هذا الجانب من إيطاليا ، فضلاً عن تغلغلها فى «كعب» إيطاليا تحت «المهماز» ، حتى بدأت فى الذيوع والانتشار ، ولم

يكن الفضل فى انتشارها فى هذه المنطقة يرجع فى الواقع إلى نفوذ المستعمرات اليونانية المحلية ، رغم طول باع بعضها وعراقة أصله ، بقدر ما كان يرجع إلى احتضان بعض الشعوب التى لم تكن تنتسب إلى أصل هلىنى، للحضارة الهلىنية . وهكذا لم يصطبغ بالحضارة الهلىنية المهاجرون الإترسكيون الغرباء الذين استعمروا جزيرة إلبا Elba والسهل الساحلى المواجه لها من القارة ، فحسب (وقد كانوا يسعون دون شك ، وراء الموارد المعدنية الوفيرة التى تزخر بها المنطقة) ، بل اصطبغ بها أيضاً السكان اللاتين المجاورون للإترسكيين فى الحوض الأدنى من نهر التير . وتتميز سواحل إيطاليا الغربية ، على عكس من سواحلها الشرقية، بوجود عدد لا بأس به من المرافئ الطبيعية ، فضلاً عن الأراضى الزراعية الداخلية الخصبة التى يسهل الوصول إليها . وكان الإترسكيون قد شقوا طريقهم، خلال القرن السادس ، عبر جبال أبنين حتى الحوض العظيم لنهر البو ، وقدر لبعض مستعمراتهم هناك - مانتوا Mantua وسبيننا Spina - النجاة من الطوفان البرابرة الغاليين الذين تدفقوا من وراء جبال الألب بعد هذا التاريخ .

ولو كان قد قدر أن تتوغل الحضارة الهلىنية فى الأجزاء الأوروبية الداخلية من القارة الأوراسية ، متخذة نقطة البداية من أحد شواطئ أوروبا المطلة على البحر المتوسط والمشرقة على خلدجانه الشمالية ، لكان الساحل الذى ينتظر أن يتخذ بمثابة قاعدة للعمليات فى حركة التوسع هذه

المتجهة إلى داخل القارة ، وهو ساحل بحر إيجه الشمالى « حيث يهين
وادی نهر أوكسيوس Oxius (فاردار Varadar) الطريق الممهّد الرّحب
المفضى إلى الداخل والذي يعادل فى يسر الانتقال به وادی نهر الرون
البعيد الذى يمتد خلف ميناء ماسيليا Massilia (مارسيليا marseilles) .
بيد أن هذا الساحل «التراقى» ، كما كان يسمى ، قد غرر به عن مصيره
المنتظر ، على يد إسبرطة أولاً ، عندما قبضت دعائم الاتحاد
الخلكيدونى ، ثم على يد الإسكندر « عندما أساء توجيه طاقات مقدونيا
فانحرف بها عن تنظيم منطقة جنوب شرق أوروبا إلى غزو أراضى جنوب
غرب آسيا . وقدر فى النهاية لساحل غرب إيطاليا - رغم أنه كان بعيداً
شيئاً ما عن قلب العالم الهلينى - أن يضطلع برسالة نشر الحضارة
الهلىنية بأوروبا ، وأن يقوم بالدور ذاته الذى قام به ساحل الأناضول
الغربى فى نشر الحضارة الهلىنية بآسيا ، فبعد أن اصطبغت بالحضارة
الهلىنية ، المدن الدول اللاتينية . واصلت إحداها ، ألا وهى مدينة روما
زحف الإترسكيين غير الموفق وأسهمت بدورها بنصيبها فى هذا الزحف
. وحملت روما فى النهاية مشعل الحضارة الهلىنية وسارت به محاذية
الضفة الجنوبية لنهر الدانوب حتى بلغت الساحل الغربى للبحر الأسود ،
واتجهت أيضاً صوب الغرب ، حتى سواحل المحيط الأطلنطى الشرقى
فى جبهة تمتد من مراکش حتى بريطانيا وباتافيا Batavia .

كانت الشعوب اللاتينية والإترسكية والشعوب الفينيقية الاستعمارية مازالت تنظر إلى نظام المدينة الدولة نظرة إجلال واحترام ، على حين كان الهلينيون قد شرعوا بالفعل فى هجر هذا النظام ونبذه ، على أمل أن يجدوا حلاً لمشكلاتهم فى إحياء النظام الملكى البائد . ولقد انبثقت المدن الدول فى كنعان ، مكا انبثقت فى هيلاس ، عن حاجة ورغبة محليتين ، أما المستعمرون الفينيقيون فقد صحبوا معهم هذا النظام فى هجرتهم من أوطانهم الأصلية . غير أنه لم يتحقق لدينا ما إذا كان الإترسكيون واللاتين قد أخذوا نظام المدينة الدولة عن الهلنيين ، شأنهم شأن الكثير من الشعوب الأخرى أو أنهم ابتكروه بأنفسهم بطريقة مستقلة . لقد وصف هيراكليديس البنطى الذى كان من المعاصرين لأرسطو ، مدينة روما بأنها «مدينة دولة هلينية» وذلك فى تقرير كتبه عن احتلالها المؤقت على يد فرقة من الجنود الغاليين الأفاقيين عام ٣٩٠ ق.م.

كانت روما خلال الفترة التى انصهرت بين عامى ٣٤٠ - ٢٦٦ ق.م والى تقدر بخمسة وسبعين عاماً ، وفى الوقت الذى كانت فيه جهود المقدونيين منصرفة بكليتها إلى غزو الإمبراطورية الفارسية وإلى الاقتتال أيضاً من أجل غنائمها وأسلابها ، تضطلع برسالة توحيد جميع أجزاء إيطاليا الواقعة إلى الجنوب من جبال أبنين ، فى ظل دولة هلينية ، قدر لها أن تصبح قوة جديدة فى العالم الهلبنى . إن تاريخ المملكة المقدونية

يعود القهقرى إلى عصر الفوضوية السابق للعصر الهليني ، كما يرجع تاريخ الإمبراطورية القرطاجية إلى القرن السادس ق.م ، على حين أن المملكة السلوكية فى جنوب غرب آسيا كانت فى واقع الأمر ، خليفة للإمبراطورية الفارسية مثلما كانت المملكة البطلمية فى مصر خليفة لمملكة مصر التى انشقت عن بلاد الفرس واحتفظت باستقلالها فى الفترة ما بين عام ٤٠٤ وعام ٣٤٢ ق.م. بيد أنه لم يحدث قط فى التاريخ أن قامت دولة قبل روما بتوحيد إيطاليا فى هذا الجانب من جبال أبينين . وكانت الفرصة قد سنحت للإترسكيين خلال القرن السادس ق.م للقيام بهذا العمل ، ولكنهم أضاعوها . أما روما فلم تجد صعوبة ، عندما شرعت فى إخضاع جيرانها لحكمها - نظراً لضعف الصلة بين المدن الدول الإترسكية - فى التغلب على هذه الدول الواحدة بعد الأخرى .

كان بناء الدولة الرومانية الجديدة يتألف من عناصر مختلفة ، كما كانت معظم معالمه منقولة عن نماذج هلينية سابقة . فقد دأبت روما ، مثلما كانت تفعل إسبرطة وقرطاجة على ربط غيرها من المدن الدول بالأحلاف السياسية والعسكرية الدائمة التى تقطع بموجبها هذه المدن العهد لروما بأن ترسم خطاها وتتبع زعامتها . كما كانت تؤسس ، مثل المملكة السلوكية ، المدن الدول الجديدة ، وكانت هذه تسمى بالمستعمرات اللاتينية - وتتمتع بالحكم الذاتى دون الاستقلال . وكان على المستعمرات اللاتينية ، شأنها شأن بقية الدول الحليفة ، أن تآتمر

بأوامر روما . وقد جرت العادة على أن تقام المستعمرات اللاتينية على أراضي العدو المغلوب المصادرة ، بيد أن روما قد سعت شأن إسبرطة وأثينا ، إلى التوسع فى المنطقة التابعة لمدينة روما الدولة (وكانت مساحة هذه المنطقة لا تزيد فى الأصل على مساحة أثينا) بأن ضمت إليها بعض أراضي الدول المغلوبة المصادرة . والحقيقة أن روما كانت ، فى بعض الأحيان تأمر بضم جميع الأراضي التابعة للدولة المغلوبة دون استثناء . وكانت روما تقيم ، مثل أثينا ، المستعمرات لمواطنيها فى مساحات مقفلة داخل الأراضي الملحقة بها، وكانت هذه تبعد عن المدينة نفسها بمسافة تزيد على مسيرة يوم ، كما أنها منفصلة عن دائرة الممتلكات الأصلية التى تتبع المدينة . وعلى حين أن البحر كان يعد همزة وصل لا فصل بين مختلف الإقطاعات الأثينية التى كانت تخصص للمواطنين الأثينيين والتى كانت تعرف باسم Cleruchies، إلا أن المساحات المقفلة من الأراضي التى كانت تخصص «للقبائل» الرومانية الجديدة (وهى تشبه «الأمم» التى كان يتألف منها جمهور المواطنين فى المدينة الدولة الهلينية) كانت تفصل بينها وبين مدينة روما ، أراضي الدول الحليفة المتمتعة بالحكم الذاتى . غير أن المستعمرات الرومانية التى يقطنها مواطنون رومان ينحدرون عن أرض روما الأصلية ، لم تكن تحتل سوى نسبة ضئيلة من الأراضي الملحقة بروما . أما الجانب الأعظم منها فقد ترك فى حوزة سكان البلاد الأصليين ، الذين لم يلبثوا أن

أصبحوا مواطنين رومانيين بموجب قوانين قضت بمنح حقوق المواطنة الرومانية لمجتمعات بأسرها . وما إن حل الوقت الذى كانت روما قد ضمت إلى دولتها فيه جميع أجزاء إيطاليا إلى الجنوب من جبال أبنين ، حتى كانت رقعة الأراضي التابعة لمدينة روما الدولة قد اتسعت - عن طريق ضم مساحات أخرى إليها - اتساعاً كبيراً بحيث أصبح «الحقل الرومانى» Ager Romanus ، كما كانت تسمى ، يقطع إيطاليا تماماً من البحر إلى البحر ، ممتداً من السواحل الغربية المطلة على البحر المتوسط عند ضفتى مصب نهر التيبر إلى سواحل بحر الأدرياتيك على جانبى الإقليم التابع لآنكونا Anconna ؛ حليفة روما . والحقيقة أن «الحقل الرومانى» كان يقارب عام ٢٦٦ ق.م مساحة الرقعة التى احتلتها الدول البابوية (باستثناء إيميليا Emilia) خلال العصر الوسيط والعصر الحديث ، وقبل أن توحد إيطاليا جميعها فى القرن التاسع عشر

كان من أعظم الانجازات أثراً على تطور الدولة الرومانية ، ذلك التوسع المتزايد المطرد فى تطبيق مبدأ المواطنة المزدوجة .

كان المواطنون الرومان الذين ينتسبون إلى القبائل التى كانت تنقسم إليها أراضي روما الأصلية أو الذين ينتسبون إلى القبائل الأخرى التى بثت فى أجزاء بعينها من المناطق التى ألحقت بروما فيما بعد ، مواطنين بطبيعة الحال لمدينة روما وحدها دون غيرها ، وكان هذا هو الحال أيضاً ، فى بداية الأمر ، مع السكان الذين فرضت عليهم الجنسية

الرومانية فرضاً، ألا وهم سكان الأقاليم المتخلفة فى جبال أبنين وفى سفوح الجبال المطلة على بحر الإدرياتيك الذين ضموا إلى «الحقل الرومانى» وإن لم يستعمرهم مستوطنون رومان . وكان هؤلاء المواطنون الجدد يلقنون تدريجياً أساليب الحياة الرومانية والقانون الرومانى واللغة اللاتينية تحت رعاية حكام تبعث بهم روما ، دون أن يمنحوا فى بداية الأمر حكماً ذاتياً. أو حقى التصويت أو الترشيح فى انتخابات الجمعيات الوطنية اللذين يتمتع بهما جمهور المواطنين الرومانيين . وكانت روما تتمتع بموقع جغرافى ممتاز كالذى تأتى لاولينشوس Olynthus وإن كانت أولينشوس ، على خلاف روما ، لم تحسن الاستفادة منه ، نظراً لأن إسبرطة قتلت اتحاد خلكيديكى الفيدرالى فى مهده . وكانت روما ، مثل أولينشوس ، مدينة دولة تقع إلى الخلف منها أرض داخلية لم يكن سكانها قد تخطوا بعد مرحلة ما قبل نظام المدينة الدولة ، كما كان من الميسور أن تستوعب هذه الشعوب المتخلفة سياسياً فى دولة تتمتع بمستوى عال من التقدم ، على خلاف ما كان عليه الحال مع مواطنى المدن الدول الذين لم يزد خطبهم على أنهم منوا بالهزيمة فحسب فى ميدان القتال ، وإن كانوا لا يقلون بحال فى مستواهم الحضارى عن الدولة الظافرة . كما قهرت روما أيضاً وضمت إليها ، فى منطقة السهول الساحلية الغربية ، طائفة من المدن الدول التى كانت تقف مع روما على قدم المساواة فى المضمار الحضارى ، وقد سمحت روما لغالبية هذه

المدن بأن تحتفظ داخل نطاق الدولة الرومانية ، بالحكم المدنى الذاتى الذى كانت تتمتع به وقت أن كانت دولاً مستقلة ذات سيادة .

وفى هذا الصدد لجأ الرومان إلى مبدأ المواطنة المزدوجة ، سواء قصدوا فى ذلك إلى اقتفاء أثر الهلنيين ، أما كانوا قد اكتشفوه بمحض الصدفة ، وقت أن كانوا يتلمسون الطريق إلى حل مشكلاتهم السياسية الخاصة . وثمة قاعدتان مختلفتان كان يستند إليهما الرومان عند منحهم حق الحكم الذاتى المحلى لمواطنى المدن الدول التى كانت تتمتع فيما مضى بالاستقلال والسيادة ، ممن فرضت عليهم الجنسية الرومانية قسراً . فإذا ما كان شعب المدينة الدولة التى كانت تتمتع بالسيادة فيما سبق يختلف عن الرومان فى لغته وثقافته - مثل مواطنى المدينة الدولة الإترسكية كايرى caere - فإن الرومان كانوا يحرمونهم ، كما كان الحال مع السكان المتخلفين فى الأقاليم الجبلية المغلوبة ، من ممارسة الحقوق السياسية التى كان من شأنها أن تجعل لهم صوتاً فى الحكم الذاتى للجمهورية الرومانية . أما إذا ما كانت ثمة صلات رحم وثيقة تربط بين المواطنين الجدد والرومان - كما كان الحال مع مواطنى أريكيا Aricia ؛ المدينة الدولة اللاتينية التى كانت تتمتع من قبل بالسيادة والاستقلال ، وكان هؤلاء ممن فرضت عليهم الجنسية الرومانية - فإن الرومان كانوا يبدون حيالهم قسماً أعظم من الكرم والسخاء . ففضلاً عن أنهم قد سمحوا لهم بمواصلة التمتع بالحكم الذاتى ، فقد خولوا لهم

فيما يختص بحكم روما ، الحقوق ذاتها التي كان يتمتع بها مواطنوها
القدامى .

وكان يطلق على الأجانب الذين فرضت عليهم الجنسية الرومانية
وفق مجموعة القواعد والشروط غير المسخية اسم «المواطنين المحرومين
من حق التصويت» تارة ، واسم «مواطنى الولايات» Municipales تارة
أخرى ، بمعنى الأشخاص الذين يخضعون للواجبات المفروضة على
المواطن الروماني ، وإن لم يتمتعوا بالحقوق المكفولة له ، أما المدن
الدول التي كانت تتمتع بالحكم الذاتي داخل نطاق الدولة الرومانية والتي
كان مواطنوها يعرفون باسم «Municipes» ، فكانت تسمى بالولايات
Municipia (وهي أصل اللفظة الإنجليزية الحديثة Municipalities)
وكان الاتجاه العام للدولة الرومانية ، خلال القرنين الرابع والثالث من
العهد المسيحي ، يرمى إلى منح حقوق المواطنة الرومانية إلى جماعات
أخرى من المواطنين ، في اطراد - من الطبقة الدنيا إلى الطبقة العليا .
وقد يتعثر تنفيذ هذه السياسة العامة أو يتوقف بل وقد يعود القهقري ،
مما قد يأتى فى بعض الأحيان بأوخم العواقب ، بيد أن حركة منح
الحقوق السياسية كانت تتقدم فى اطراد مع توالى العصور ، كما أنه بعد
أن أصدر الإمبراطور كاراكالا Caracalla قانونه الشامل المعروف باسم
الدستور الأنطونينياني Constitua Antoniniana عام ٢١٢ ، لم تبق
سوى قلة قليلة من شعوب العالم الهليني التي تعيش إلى الغرب من

الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية كما كانت آنذاك ، لم تثل حقوق المواطنة الرومانية وفق أسخى شروط كان من الممكن أن تمنح لها حينئذ .

وقد بدت روما بالنظر إلى سياستها الرامية إلى منح الأجانب حقوق مواطنتها ، فى مضمار السخاء والكرم ، جميع الدول السابقة التى قدر لها أن تدخل حلبة السياسة الدولة الهلينية ، كما انتهجت روما هذه السياسة وقت أن كانت الاراضى الإيطالية التى تحدها شرقاً جبال أبينين راخرة بالسكان ووقت أن كان هؤلاء السكان لم يزالوا يتزايدون على مر الايام . وقد ترتب على ذلك أن أصبحت روما تستحوذ على موارد عظيمة من القوى البشرية العسكرية ، الأمر الذى لم يتيسر لاية دولة من الدول المنافسة لها . فضلاً عن أن جنودها الفلاحين الذين يبلغون الآلاف المؤلفة ، لم يكونوا جنوداً مرتزقة أو رعايا دولة مقهورة أو من البرابرة ، بل كانوا على خلاف ذلك من مواطنى مدينة روما ذاتها ومن مواطنى مستعمراتها اللاتينية أو من مواطنى الدول الإيطالية الحليفة ، كما كانوا إلى جانب ذلك تلاميذ مخلصين تواقين إلى تلقن فنون الحضارة الهلينية . وبالنظر إلى ما كان عليه عدد الجنود الذين كانوا يتمتعون بحقوق المواطنة فى مملكة مقدونيا أو سلوكية ومقارنتهم بعدد الجنود المواطنين الرومان ، يبدو الأولون وكأنهم لا يعدون كونهم حرساً خاصاً . كان لدى مصر البطلمية وقرطاجة عدد كبير من الرعايا الذين يخضعون للتجنيد كما كانت

ثرواتهما تؤهلها لزيادة عدد الجنود وذلك باستخدام جنود مرتزقة . وقد تبذ الجيوش التي تتألف من هذه العناصر الجيوش المكونة من مواطنين مجندين ، في مجال القدرة والكفاءة (وقد كبدت قوات هانيبال المحترفة ، الهزيمة ، في كثير من المرات ، لجيوش رومانية تربو عليها عدداً) بيد أن القوات المؤلفة من جنود «وطنيين» أو جنود مرتزقة ما كان ليؤمن جانبها . فقد يدين جنود هذه القوات بالولاء لشخص قائد بعينه ، مثل هانيبال ، ولكنهم قد لا يشعرون بأدنى ارتباط أدبي أو صلة تربط بينهم وبين الدولة التي نقدتهم على خدماتهم أو فرضتها عليهم فرضاً . وشاهد ذلك أن قرطاجة كادت تلقى حتفها إثر الحرب الأولى التي خاضتها ضد روما، بدلاً من أن تلقى المصير ذاته بعد حربها الثالثة ، وذلك عندما أثارت الفتنة بين صفوف قواتها المرتزقة من جراء الشروط المهينة التي أرادت أن يتم بموجبها دفع أجورهم . كما دلت نتيجة المنافسة التي احتدمت بين الدول الخمس العظمى ، على أن روما ، بجنودها المواطنين، إنما كانت تحتفظ بين يديها بالورقة العسكرية الرابعة .

كان الجيش الروماني يضم في ذلك العصر ، شأنه شأن الجيش المقدوني ، فرقاً للمشاة المزودين بأسلحة على النمط الهليني البائد الباهظ التكاليف . ولكن الفرق ذوات الدروع والرماح لم تكن تعدو أيضاً في الجيش الروماني كما في الجيش المقدوني ، أقلية ضئيلة ، كما لم تلعب هذه الأقلية دوراً بارزاً . أما معدات الغالبية العظمى من الجنود

المشاة الرومانيين المزودين بالأسلحة الثقيلة فقد كانت أقدم عصراً من أسلحة الفيلق المقدونى المؤلفة من الترس والرمح وفق النمط الذى ابتكره أفيكراتيس . وكما جاء فى وصف معارك الأبطال فى الملاحم الهومرية ، كان الجندى الرومانى من المشاة يبدأ بقذف رمح رشق ثم يشتبك مع العدو فى قتال متلاحم مستخدماً سيفه ، وكان رمح الرشق قصيراً ثقیل الوزن . وكان الجندى يخوض المعركة مزوداً برمحين من هذا النوع . أما درعه المستطیل المقعر الذى كان يصنع من مواد خفيفة الوزن كالخشب أو الجلد ، فقد كان يقى بدنه ، وفقاً لقاعدة وزن بوزن ، وقاية لم يكن يكفلها بهذا القدر ، الدرع الهلینى التقليدى المستدير المصنوع من المعدن المطروق أو الترس الذى ابتكره أفيكراتيس . وكان الدرع الرومانى يفترق إلى تلك الميزة التى كان يوفرها ترس أفيكراتيس وهى إطلاقه لسليد اليسرى لتكون كاليد اليمنى ، مهياة للعمل فى حرية تامة . بيد أن الرومان قطعوا شوطاً أبعد مما قطعه المقدونيون من قبل ، حتى فى العصر الذهبى للفيلق المقدونى ، فى مضمار الجمع بين ضخامة الحشد وخفة الحركة . كان فى مقدر الفيلق المقدونى المهاجم أن يكتسح أى شىء يعترض طريقه - بما فى ذلك الفرقة الرومانية - طالما أن العدو لم يقيم بمناورة مضادة ومادام تشكيل الفيلق نفسه ظل متماسكاً لم يختل فى أى جزء من أجزائه . ولكن مصير الفيلق المقدونى كان هو الفناء المحقق ، إن قامت على سبيل المثال فرقة من الجنود الرومان بالالتفاف

حول مؤخرته ، وهو ما حدث فى كل من معركة كينوسكيفالاي -Cy-
noscephalae عام ١٩٧ ق.م وبيدنا Pydna عام ١٦٨ ق.م ، وذلك
لأن رهبة الرماح المقدونية وضراوتها لم يكونا يظهران فى الواقع إلا فى
حالة الاشتباك بالمواجهة وحيث تكون الصفوف متراصة متلاحمة ، أما
إذا وجد الجندى المقدونى نفسه هدفاً لهجوم جانبى واضطر للقتال
بمفرده ، فإنه لا يجد من سند غير خنجر صغير لا يفى بالغرض . وعلى
النقيض من ذلك فإن الجندى الرومانى كان يعد محارباً فردياً حتى وإن
كان منتظماً فى تشكيله ، فضلاً عن شدة فتك سلاحه الهجوميين
وفاعليتهما التى كان يضاعف منها ذلك التناسق والتآزر فى استخدامهما ؛
فقد كان يقصد من قذف الرماح دفعة واحدة فى بداية القتال تحطيم قوة
العدو بدرجة ما قبل منازلته بالسيوف فى قتال متلاحم . وفضلاً عن ذلك
فقد كانت تشكيلات الجيش الرومانى تتمتع بقسط كبير من المرونة ،
فإن المشاة ذوى الأسلحة الثقيلة كانوا يشكلون على هيئة باقات صغيرة ،
لا يزيد عدد جنود كل منها على ١٢٠ جندياً فقط ، وكانت هذه الباقات
الصغيرة تأخذ عند الهجوم صورة موجات ثلاث . وتعد مثل هذه المناورة
التكتيكية إحدى الخطوات التى انتهت بابتكار خطة احتجاز قوات احتياطية
لكى يدفع بها إلى ميدان المعركة فى اللحظة الحاسمة . وهكذا كان
المجال متسعاً أمام الجيش الرومانى كى يقوم بمختلف التحركات
والمناورات قبل أن يوطد نفسه فى النهاية على الهزيمة ، هذا فضلاً عن

أن خسائره كانت موزعة على نطاق واسع ، على حين أن مصير الجيش المقدونى كان مرهوناً بنتيجة هجوم واحد تقوم به وحدة حربية واحدة - وذات مرة فقدت القيادة العليا للجيش الرومانى فى لحظة من لحظات الزمن - وذلك من أثر الكوارث التى لحقت بالجيش الرومانى عند نهر تيبيريا Tiberia وبحيرة تراسيمينى Trasimene - ثقتها فى صلاحية تنظيمات الجيش الرومانى الخاصة ، فعمدت إلى تنظيم قواتها فى كاناي Cannae فى حشود أشبه بحشود الفيلق المقدونى . وكانت عاقبة هذه الخطوة التقهقرية ، التى أقدمت عليها روما فى نوبة من اليأس ، غاية فى البشاعة والهول ، بحيث إنها لم تعد إلى هذه الزلة قط . وبعد كسوة كاناي ، سارت الخطط الحربية الرومانية فى تطورها على أساس تحقيق أكبر قسط ممكن من المرونة وخفة الحركة .

والحقيقة أن المشاة الرومان كانوا ، بالنظر إلى ما يدخرون من قوة ، أعظم القوات التى شهدتها ساحة الحرب الهلينية فى عصر الصراع بين الدول ، ومما زاد أيضاً من صلابة معدنهم ، اختبارهم لقوتهم أمام القوى العسكرية العظيمة الأخرى التى كانت قائمة فى ذلك العصر . أما سلاح الفرسان الرومانى فقد ظل كخنجر الفيلق المقدونى ، سلاحاً عديم الجدوى . إذ لم يعوض عن قلة عدده بحال ، أى قسط من التفوق فى القدرة على القتال . وكان الرومان يفضلون أيضاً ، فيما يختص بسلاح الفرسان ، الاعتماد على خدمات حلفائهم ، كما كان إهمالهم لهذا السلاح من الأسباب التى أدت إلى عجزهم عن التصدى لهانيبال .

ولم يكن هناك مفر من أن تدفع روما بنفسها ، وهى بسبيل إخضاع جميع أجزاء إيطاليا التى تحدّها جبال أبنين شرقاً ، فى معترك شئون دولية تخص رقعة كبيرة من العالم ؛ نظراً لأن إيطاليا كانت تضم طائفة من المدن الدول الهلينية الاستعمارية ، وأن أهم هذه المدن ، وهى تارنتوم Tarentum ، قد استنجدت بدولة هلينية فى الجانب الشرقى من مضيق أترانتو ضد روما ، كما غارت قدماً روما أكثر فأكثر عندما أسبغت حمايتها عام ٢٦٤ ق.م ، على الجنود المامرتينيين الذين كانوا يحتلون مدينة ميساننا الصقلية ، والذين كانوا قد استفزوا هيررو حاكم سرقوسة وأثاروا ثائرة القرطاجيين ، مما حمل الفريقين على التحالف فيما بينهما لمحاربتهم . وسأقت هذه المغامرة التى جرت فيما وراء البحار ، روما ، إلى الدخول فى حرب مع قرطاجة استغرقت أربعاً وعشرين سنة (٢٦٤ - ٢٤١ ق.م) . وقد خاضت هاتان الدولتان الغربيتان غمار حرب ضروس واسعة النطاق تضاءلت إلى جانبها الحروب المعاصرة التى نشبت بين كل من البطالمة والسلوكيين ، والبطالمة ومقدونيا ، إلا أن هذه الحرب الأولى التى نشبت بين روما وقرطاجة قد أسفرت على خلاف الحريين السالفتى الذكر ، عن نتيجة حاسمة . إذ انتهت بطرد القرطاجيين من صقلية ، وإلى قيام اتحاد سياسى للجزيرة يخضع لزعامة دولة واحدة ، وذلك للمرة الأولى منذ خمسة قرون ، أى منذ بدأ التنافس بين المستعمرين الفينيقيين والهلينيين حول امتلاك الجزيرة . وهكذا انتقلت

إلى روما ملكية الولاية التابعة لقرطاجة فى صقلية . أما الجنود المامرتينيون وهيريرو فقد انضموا بالفعل إلى حلفاء روما . وكان الفضل فيما أحرزت روما من نصر يرجع إلى ذلك العمل الباهر الذى اضطلعت به ، وهو إنشاء أسطول لها على وجه السرعة والحرب مازالت دائرة ، ولم يتمكن هذا الأسطول من أن يشتبك فحسب مع الأسطول القرطاجى ، بل أن ينتزع منه أيضاً سيادته على البحار . وكما يوسع روما ، بطبيعة الحال ، أن تستند إلى الخيرة البحرية التى كان يتمتع بها حلفاؤها اليونانيون فى جنوب إيطاليا ، كما أن ثروتها الكبيرة من القوى البشرية كانت تكفل لها إمداد أسطول بحرى كبير بالعدد الكافى من البحارة . بيد أنه بالنظر إلى أن القرطاجيين كانوا يتمتعون بمهارة فائقة طبقت شهرتها الأفاق فى مضمار الحروب البحرية ، فإن تحدى روما لقرطاجة فى مملكتها البحرية كان عملاً غاية فى الجرأة ، وإن بلغ الغاية أيضاً فى النجاح .

وما إن توطد السلام من جد يد بعد هاتين الحربين اللتين نشبتا ، فى وقت واحد ، فى الحوضين الغربى والشرقى من البحر المتوسط ، وإن لم ترتبط بينهما أية صلة ، حتى بعث الأمل - كما حدث عندما استعيد السلام عام ٤٤٥ ق.م فى البحر الإيجى - فى قيام تعايش سلمى قد يكون فيه ما يجنب وقوع كارثة محققة . بيد أن ما تلى ذلك من أحداث مفعجة رهيبة ، لم يلبث أن قد قضى على مثل هذا الأمل فى هذه المرة أيضاً .

وثمة وجه للشبه بين الحرب الثانية التى نشبت بين روما وقرطاجة (٢١٨ - ٢٠١ ق.م) وبين الحرب الثانية من بين الحريين العالميتين اللتين وقعتا فى القرن العشرين ، وهو أن كلا منهما كانت حرباً انتقامية ، قامت بها دولة كبرى مغلوبة لم يعد أمرها أنها استذلت فقط دون أن تلقى فى المرة الأولى الهزيمة الساحقة الماحقة التى لا عومة لها بعدها . فقد كانت الحرب الثانية فى الحالتين أعظم فتكاً وتدميراً من الحرب الأولى ، على الرغم من أن الحرب الأولى لم يكن ينقصها عنف أو هول . كما ساءت الحرب الثانية الدولة الغالبة فى الحرب الأولى إلى شفا الانكسار والاندحار ، غير أنها أسفرت فى النهاية عن هزيمة الدولة التى سبق أن قهرت ، وذلك للمرة الثانية بحيث كانت هزيمتها فى هذه المرة نهائية تامة لا رجعة فيها . وثمة وجه آخر للشبه بين الحرب الرومانية القرطاجية والحرب الآثينية البلوبونيزية الثانية (٤٣١ - ٤٠٤ ق.م) ، وهى أنهما قد أطبقنا على العالم الهلنى جميعه ، فضلاً عن أنهما كانتا فاتحة سلسلة متصلة من الحروب والثورات .

وكان القائد الوحيد فى كل من الطرفين المتحاربين الذى استطاع أن يحيط نفسه بهالة من المجد فى الحرب الأولى بين روما وقرطاجة ، هو هاميلكار Hamilcar الذى يلقب بالصاعقة . فقد استطاع هاميلكار أن يطيل أمد المقاومة القرطاجية فى صقلية إلى ست سنوات أخرى بعد أن كان القرطاجيون على وشك أن يفقدوا آخر قلاعهم بالجزيرة . ثم هب

هاميلكار مرة أخرى عندما خسرت قرطاجة الحرب من جراء هزيمة بحرية ساحقة منيت بها ولم يكن لهاميلكار يد فيها ، وعندما أوشكت قرطاجة على التردى فى مهوى الدمار والخراب لقيام حركة تمرد بين صفوف جنودها المرتزقة ، فسحق المتمردين ثم ولى وجهه شطر إسبانيا كى يفتح لسلاله إمبراطورية جديدة لتكون عوضاً عن الولاية القرطاجية القديمة فى صقلية ، التى أجبرت قرطاجة على التنازل عنها لروما بموجب التسوية السلمية التى عقدت بينهما ، وكان هاميلكار يرمى إلى أن يمحو أثر انتزاع روما للسيادة البحرية على حوض البحر المتوسط الغربى وإلى أن ينقض أيضاً نتيجة الحرب الرومانية القرطاجية الاولى بأن يتخذ من الإمبراطورية القرطاجية الجديدة فى إسبانيا قاعدة للعمليات من أجل غزو إيطاليا براً . وكانت خطته هذه غاية فى الجرأة والروعة فقد كانت تتطلب تخطى سلسلتين عظيمتين من الجبال ، وهما سلسلتا البرانس والألب ، وتستلزم عبور نهر عظيم هو نهر الرون . وكان الطريق الذى ستقدم به الجيوش يمر بأكمله ببلاد متخلفة ومجاهل غير مطروقة فى واقع الأمر ، بيد أن هذه العقبات الطبيعية التى تثير الرهبة فى النفوس كانت تبدو هينة جديرة بالمخاطرة بالنظر إلى المغنمين العسكريين والسياسيين العظميين اللذين كانا يكمنان وراء هاتين السلسلتين من الجبال إذا سارت الأمور وفق الخطة الموضوعة . وكان من المتوقع إلى حد بعيد أن تتحول الحملة القرطاجية ، فور نزولها بحوض نهر

البو، إلى نقطة تجمع للشعبين الوطنيين الغالي والليجورى ، اللذين كانا قد رفعوا السلاح بالفعل فى وجه موجة الاستعمار الرومانى الزاحف . كما كان للحملة القرطاجية أن تأمل - حال عبورها لجبال أبنين وبمعاونة قوات مساعدة من الغاليين والليجوريين - فى إحداث سلسلة من الانشقاقات بين الدول الإيطالية الحليفة لروما . كانت الغاية التى يرمى إليها هاميلكار ، هى تحطيم الدولة الرومانية عن طريق إحراز نصر قرطاجى برى حاسم على روما وعلى الأراضى الإيطالية التابعة لها، ولأمراء فى أن تحقيق هذا الهدف كان من شأنه قلب النتائج التى أسفرت عنها الحرب الأولى ، وربما أزاح عن كاهل قرطاجة خطر الرومان إلى ما لا نهاية بسحقه قوة روما سحقاً تاماً لا قومة لها بعده .

عاجل الموت هاميلكار قبل أن ينتهى من استعداداته الحربية ، ومن ثم وكل لابنه مهمة تنفيذ خطته . والحقيقة أن المجتمعين الكنعانى والهلبنى قد عجزا عن أن ينجبا قائداً أعظم من هانيبال ، ولا تثريب عليه إن كانت خطته قد باءت فى النهاية بالفشل . وقد زحف هانيبال حسب الخطة الموضوعة من إبرو إلى البو ، ومن حوض نهر البو إلى الأراضى الإيطالية التى تحدّها جبال أبنين شرقاً ، وكبد الرومان فى خلال ثلاث سنوات متتالية ، الهزيمة فى ثلاث معارك تتدرج تصاعدياً من حيث خطورتها وفداحتها ، وذلك على نهر تريبيا فى عام ٢١٨ ق.م وعلى شواطئ بحيرة تراسيمينى فى عام ٢١٧ وفى كاناى عام ٢١٦ ق.م ،

وصمد بقواته فى أراضي إيطاليا التى تحدها جبال أبنين شرقاً مدة خمسة عشر عاماً تبدأ بعام ٢١٧ وتنتهى بختام عام ٢٠٣ ق.م. غير أن ثمة عوامل ثلاثة مناوئة ، لم يكن ليستطيع معها دفعاً ، هى التى أحبطت خطته جميعها ألا وهى : الروح العالية الأبية التى كان يتمتع بها مجلس الشيوخ الرومانى والشعب الرومانى ، وذلك الولاء الراسخ الأكيد الذى كان يدين به لروما الجانب الأعظم من المواطنين الذين حصلوا على الجنسية الرومانية ، ويكنه لها أيضاً حلفاؤها الذين أبدوا من الثبات والاستماتة فى القتال ما ظهر على النقيض تماماً من التخاذل المزرى من جانب مواطنى كابوا وسرقوسة وتارنتوم . ثم ذلك الاحتياط الضخم من القوى البشرية الممثل فى المواطنين الرومان وفى اللاتين والحلفاء ، الذين كان بوسع روما أن تتزود منه .

واختتمت الحرب الثانية بين روما وقرطاجة ، بإحراز روما لانتصار حاسم عام ٢٠٢ ق.م على آخر جيوش قرطاجة ، بقيادة هانيبال نفسه ، وذلك فى موقعة ناراجارا Naraggara ، بالقرب من زاما ريجيا Zama Regia أى على أرض أفريقية . ولكن لهيب الحرب كان قد امتد قبل ذلك التاريخ بزمان طويل من كل من إسبانيا وإيطاليا وصقلية إلى بلاد اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية وإلى بحر إيجه أيضاً . ففى عام ٢١٥ ق.م عقد هانيبال معاهدة مع الملك فيليب الخامس ملك مقدونيا ، لرغبة الأخير فى إزالة رأس جسر كان الرومان قد أقاموه على جانبه

الخاص من مضيق أترانتو فيما بين الحرب الأولى والثانية ، فرد الرومان على ذلك بأن عقدوا عام ٢١١ ق.م حلفاً مع إيتوليا Aetolia ألد أعداء مقدونيا . كما لم تتوقف الحرب العالمية يوم أن كفت قرطاجة عن القتال ، إذ لم تلبث الاشتباكات بين روما ومقدونيا ، التي توقفت عام ٢٠٥ ق.م أن استؤنفت من جديد عام ٢٠٠ ق.م ومنى المقدونيون فى هذه المرة بهزيمة ساحقة على أيدي المشاة الرومانيين والفرسان الأيتوليين فى موقعة كينوسكيفالاي Cynoscephalae عام ١٩٧ ق.م . وقد أجبرت مقدونيا على التخلي عن جميع ممتلكاتها الواقعة إلى الجنوب من أراضيها الأصلية فى بلاد اليونان ، بل إنها اضطرت إلى أن تمنح الاستقلال لولاية أورستيس Orestis الجبلية المنشقة التى كانت تقع داخل حدود مقدونيا ذاتها . وتحررت كورنثة من حكم مقدونيا على يد القائد الرومانى المظفر تيتوس كرنكتيوس فلامينيوس Titus Quinctius Flaminius ، بعد مضى ثلاثين عاماً على تنازل أراتوس لمقدونيا عنها (إلا أن أحد القواد الرومان قد أقدم بعد انقضاء خمسين سنة على لفته فلامينيوس الكريمة هذه، على فغلة لم يجترئ عليها أى فاتح مقدونى من قبل ، ألا وهى تدمير كورنثة وتخريبها) . وجاء بعد ذلك دور الأيتوليين ، فدب الخلاف بينهم وبين روما حول توزيع الأراضى التى تنازلت عنها مقدونيا، وتلا ذلك نزاع الملك السلوكى أنتيوخوس الثالث معها من جراء محاولته تأكيد سيادة التاج السلوكى على المدن الدول الهلينية القديمة الواقعة على الساحل الغربى للأناضول ، وبلغ الحمق بأنتيوخوس أن تحالف مع

الأيثولييين ضد روما ، وأمعن في الطيش والتهور ، فرغب في أن يلتقي والمتاعب في منتصف الطريق ، بالزحف على بلاد اليونان الأوروبية . وكان قد خدع بانتصاراته الحربية السالفة التي واته في شئ من السهولة . فقد توغل بجيوشه في آسيا ذات مرة حتى بلغ هندكوش ، وفي عام ١٩٨ ق.م استطاع - وذلك بعد المحاولة الثالثة - الاستيلاء على سورية المجوفة Coele Syria بعد هزيمة الملك بطليموس الخامس . ولم يكن إلى هذا الحين قد عرك قوة الرومان الحربية . فلقى في عام ١٩١ ق.م الهزيمة في ثرموبولاي ودحر مرة أخرى عام ١٩٠ ق.م عند مجنيسيا بالقرب من سيبيلوس magnesia-under-Sipylus . وقد أجبرت المملكة السلوكية على التخلي عن جميع ممتلكاتها الواقعة إلى شمال وغرب جبال طوروس ، وكانت هذه هي بداية النهاية بالنسبة لها ، على الرغم من أنه حتى عام ١٦٢ ق.م كان المفوضون الرومانيون مازالوا يخشون انتفاضة السلوكيين العسكرية ، مما حدا بهم إلى أن يصيبوا بالعجز الفيلة الحربية التي كانت بالمقر العسكري للمملكة في أباميا على نهر العاصي . وقد قاتل الأيتوليون أيضاً من معاقلهم الجبلية عندما ضيق عليهم الخناق كالمقطط الهائجة ، ولكنهم اضطروا بدورهم إلى التسليم عام ١٨٩ ق.م .

وهكذا طوحت روما خلال ثلاثين سنة (٢١٨ - ١٨٩ ق.م) بجميع الدول التي حاولت منازلتها وحسم أمورها معها ، بيد أن تجربة غزو هانيبال لإيطاليا قد خلفت لدى روما شعوراً مؤرقاً رهيباً بانعدام الأمن ،

وتطلب الأمر منها الدخول فى جولتين آخرين من القتال المرير لكى تقلم أظافر خصومها المغلوبين إلى الدرجة التى تشعر معها بالاطمئنان إلى أنهم سوف لا يشكلون خطراً عليها فى المستقبل . ولقد كانت روما على حق فيما داخلها من خوف تجاه مقدونيا ، فثمة رغبة أكيدة فى الانتقام كانت تجتاح مقدونيا بعد انتهاء حربها الثانية مع روما . كما كان الحال مع قرطاجية بعد حربها الأولى ، وعندما نشبت الحرب الرومانية المقدونية الثالثة (١٧١ - ١٦٨ ق.م) لم تستسلم مقدونيا قط للهزيمة إلا بعد أن أبدت من المقاومة المستميتة اليائسة ، ما لم تبده فى الحرب الثانية ذاتها . وكان السبب أيضاً فى استسلامها فى هذه المرة يرجع إلى قلة نصيبها من القوى البشرية ونقط الضعف التى كانت تعتور جيشها الباسل ، سواء من حيث أسلحته ، أم من حيث تنظيماته الحربية .

أما بالنسبة لروما فقد كانت هذه الحرب من أخرج وأدق المعارك التى خاضتها منذ هزيمتها فى كاناي . غير أن المخاوف التى لازمت روما تجاه قرطاجية لم تكن فى الحقيقة سوى أضغاث أحلام ، فعلى الرغم من أن هانيبال كان عدو روما اللدود الذى لم يثن عن معاداتها ، حتى النهاية ، فإنه اضطر إلى الانتحار فى منفاه عام ١٨٣ ق.م ، أما القرطاجيون أنفسهم فإنهم لم يلبثوا أن تخلوا عن أطماعهم حال أن عقد الصلح بين قرطاجية وروما فى عام ٢٠١ ق.م ، وبات جل ما يستغنون أن يسمح لهم بمواصلة العيش ، وصون أرواحهم . ومن ثم كان الهجوم الذى شنته روما على قرطاجية عام ١٤٩ ق.م من أبشع الأعمال العدوانية

التي شهدها تاريخ روما ، وقد جلب عليها ذلك نقمة عاجلة لأن قرطاجة فى هذه الحرب الأخيرة التى نشبت بينها وبين روما (١٤٩ - ١٤٦ ق.م) والتى دخلتها مجبرة دون أن تكون هى البائدة بالعدوان ، راحت تدافع عن نفسها دفعاً لمصيرها المحتوم ، فى استماتة واستبسال كاللذين أبداهما أبناء عمومتهما يهود فلسطين عند مقاومتهم ذلك العدو الرومانى الجبار ذاته . وذلك خلال حربين (٦٦ - ٧٠ من الميلاد ، ١٣٢ - ١٣٥ من الميلاد) كان اليهود أنفسهم هم البادئون بهما . كما قام المقدونيون الذين لم تفت فى عضدهم الهزائم الثلاث التى كبدهم الرومان إياها ، بثورة أخرى عام ١٤٩ ق.م ، ولم يلبث أن اقتفى أثرهم فى طيش اتحاد أخيا وبويوتيا عام ١٤٦ . فسحقت مقدونيا ، ولم يمض العام ذاته حتى كانت كل من قرطاجة وكورنثة قد أصبحتا أثراً بعد عين ، وتلفت اتحادات أخيا وبويوتيا وإيوبويا وفوكايا ولوكريا ضربات قاصمة ثم حلت جميعها .

وهكذا لم تعد هناك أية دولة كبرى قائمة فى العالم الهلنى غير روما ذاتها ، ذلك لأن مملكة مصر البطلمية التى اعتراها الضعف والوهن توخت جانب الحكمة ، فأثرت الخضوع للحماية الرومانية على ألا تتعرض لغزو عدوتها المملكة السلوكية لها ، جرياً على المثل القائل : شر أهون من شر . وفى الوقت الذى كانت فيه نتيجة الحرب الرومانية المقدونية الثالثة مازالت فى كفة القدر لم تنجل بعد ، حاول الملك السلوكى أنتيخوس الرابع أن يعوض مملكته عن الخسارة التى تكبدتها فى ممتلكاتها فيما وراء جبال طوروس وذلك بضم مصر ذاتها إلى ممتلكات

مصر فى سوريا المجوفة التى كانت قد دخلت ضمن حدود المملكة السلوكية على يد سلفه أنتيخوس الثالث . ولكنه ما إن بلغت أنباء انتصار روما الحاسم على المقدونيين عند بيدنا Pydna، ميدان المعركة التى كانت تدور رحاها فى مصر ، حتى بادر أحد المفوضين الرومانيين الجوالين بإعلان الملك السلوكى المغير بإنذار نهائى يقول : «عليك بالجلء عن مصر وإلا قاتلتك، كما أنى أريد ردك فى التو واللحظة» . وتوخى أنتيخوس جانب الحكمة فضرب باعتبارات الكرامة والعزة عرض الحائط ، وأذعن للأمر . وهكذا لم يعد هناك من منازع لسيادة روما داخل النطاق جميعه الذى كانت تصلح فيه العمليات الحربية التى يقوم بها سلاح المشاة التابع لها وذلك من قواعد تقام له على سواحل البحر المتوسط وخليجانه ، وظل حالها كذلك حتى تعثرت جيوشها الزاحفة بسهول بلاد ما بين النهرين وبغابات شمال أوروبا . أما بالنسبة للمنطقة التى كانت منحصرة داخل هذه الحدود ، فقد كان العالم فيها واقعاً فى هذه الأثناء تحت رحمة روما . فلم يعد هناك شئ يجرى إلا بإذن من روما ، كما كان ينذر أن يتخذ أى إجراء ما لم تكن هى بادئته . فلقد نالت جزيرة رودس صديقة روما القديمة العقاب الرادع بعد انتصار روما فى حربها الثالثة ضد مقدونيا، وذلك لأنها عرضت خدماتها بالوساطة ، وقت أن كانت نتيجة الحرب مازالت غير مؤكدة ، وذلك من أجل عقد تسوية سلمية عن طريق التفاوض . كانت روما ، على ذلك سيدة الموقف الحريصة عليه . ترى ماذا كان عساها أن تفعل ؟

الفهرس

الصفحة

الموضوع

٧	تصدير
١١	مقدمة
١٩	الفصل الأول : عقدة المسرحية
٤١	الفصل الثاني : البيئة الطبيعية لطرائق الحياة الهلينية
٥٧	الفصل الثالث : الرد على أخطار الفوضى والضغط
٨٧	الفصل الرابع : تحرير المدينة الدولة للفرد
	الفصل الخامس : مواجهة خطر المنافسة الفينيقية والإتريكية
١١٣	في الغرب
١٣٩	الفصل السادس : مواجهة خطر العدوان الفاسي من الشرق .
١٦١	الفصل السابع : فشل إسبرطة وأثينا في تحقيق الوفاق السياسي
١٩١	الفصل الثامن : تقبل مقدونيا للحضارة الهلينية وغزو الشر

٢٠٩	الفصل التاسع : تحرير الأفراد من عبودية المدينة الدولة
	الفصل العاشر : فشل الملكيات والاتحادات فى تحقيق
٢٣٣	الوفاق السياسى
	الفصل الحادى عشر : تقبل روما للحضارة الهلينية وانقلاب
٢٥١	ميزان القوى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع: ١١٢٥٢ / ٢٠٠٣

I.S.B.N. 977 -01- 8583 -3



وبعد أكثر من عشرة أعوام من عمر مكتبة الأسرة
نستطيع أن نؤكد أن جيلاً كاملاً من شباب مصر نشأ
على إصدارات هذه المكتبة التي قدمت خلال الأعوام
الماضية ذخائر الإبداع والمعرفة المصرية والعربية
والإنسانية النادرة وتقدم في عامها الحادى عشر
المزيد من الموسوعات الهامة إلى جانب روافد الإبداع
والفكر زاداً معرفياً للأسرة المصرية وعلامة فارقة في
مسيرتها الحضارية .

سوزانه بارك



التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الثمن ٢٠٠ قرش